انغبورغ باخمان

العام الثلاثون

ترجمة: سالمة صالح

مكتبة بغداد

منشورات الجمل

انغبورغ باخمان

العام الثلاثون

قصص

ترجمة: سالمة صالح

منشورات الجمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولدت **انغبورغ باخمان** ١٩٢٦ في كلاغنفورت– النمسا، نشأت في مدينة كيرنتن، درست الفلسفة في غراتس وانسبورغ وفيينا. تنقلت خلال الأعوام العشرة من ١٩٥٠ – ١٩٦٠بين باريس وميونيخ وروما وبرلين وزيوريخ. شاعرة وقاصة وروائية، تعتبر قصائدها مثل "في الشمس" و"انتهت اللعبة" و"أغان من الجزيرة" من الأعمال المهمة في الشعر الألماني الحديث. ويحتل كتابها "العام الثلاثون" الذي صدر أول مرة ١٩٦١ أهمية خاصة بين أعمالها فهو نصوص قصصية ترصد التحول البشري، تحول الإنسان الفرد، معتمدة إلى حد كبير على التجربة الذاتية.

من أعمالها "الوقت المقسط" ١٩٥٣ ، "نداء الدب الكبير" ١٩٥٦ ، "مالينا" ١٩٧١ و"مكان للصدف" ١٩٦٥. توفيت في ١٩٧٤، محترقة في سريرها الذي شبت فيه النار أثناء نومها في غرفة فندق في روما.

ولدت **سالمة صالح** ١٩٤٢ في الموصل/العراق. درست القانون في جامعة بغداد والصحافة في جامعة لايبزج في المانيا حيث حصلت على الدكتوراه ١٩٨٦ عن اطروحة حول اتجاهات تطور الصحافة في العالم. عملت في الصحافة العراقية والعربية، ونشرت العديد من القصص في الصحف العربية والألمانية، تعيش في برلين منذ عام ١٩٧٨. أصدرت العديد من الأعمال النثرية منها: النهوض، رواية (بيروت ١٩٧٤)، التحولات، قصص (قصص ١٩٧٥)، زهرة الأنبياء، قصص (بيروت ١٩٩٤)، شجرة المغفرة، قصص (دمشق ١٩٩٦).

انغبورغ باخمان: العام الثلاثون، قصص، ترجمة: سالمة صالح
نُشر هذا الكتاب باتفاق خاص مع الناشر
© Piper Verlag GmbH, Muenchen 1978
منشورات الجمل، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ كولونيا / المانيا

© Al-Kamel Verlag 1998
Postfach 600501
50685 Köln . Germany
Tel: 0221 736982
Fax: 0221 7326763

يفاعة في مدينة نمساوية

في أيام اكتوبر الجميلة يستطيع المرء القادم من شارع راديتسكي أن يرى قرب مسرح المدينة مجموعة أشجار في الشمس. الشجرة الاولى أمام أشجار الكرز، تلك التي لا تحمل ثمارا، توقدت بفعل الخريف، بقعة ذهبية غير متجانسة، حتى لتبدو وكأنها شعلة أسقطها ملاك، وهي تشتعل الآن ولا تستطيع ريح الخريف وصقيعه أن يطفئانها.

من يريد أن يتحدث معي عن سقوط الأوراق وعن الموت الأبيض عند رؤية هذه الشجرة، من يمنعني أن أمسك به بعيني وأعتقد انه سيضيء لي دائما كما هو في هذه الساعة وانه لا يخضع لقانون العالم ؟

في ضوئه يمكن الآن التعرف على المدينة ثانية، ببيوت شاحبة ماثلة للشفاء تحت قرميدات داكنة، وعلى القناة التي تحمل بين حين وآخر قاربا قادما من البحيرة يستقر في قلبها. لكن الميناء أصبح ميتا، منذ أن صارت الحمولة تنقل بالقطارات والشاحنات بسرعة أكبر إلى المدينة. ولكن من الرصيف الأعلى لا تزال تسقط زهور وفاكهة على ماء متجمع، الثلج يسقط من على الأغصان، ماء الذوبان يسقط محدثا ضجيجا، ثم يفيض مرة أخرى ويرفع موجة ومع الموجة سفينة يرتفع شراعها الملون لدى وصولنا.

نادرا ما كان المرء ينتقل من مدينة أخرى إلى هذه المدينة. لأن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مغرياتها كانت قليلة. قدم الناس من القرى لأن باحات الدور أصبحت ضيقة، وبحثوا عن سكن في أطراف المدينة حيث الأسعار الأرخص. كانت لا تزال هناك حقول وحفر حصى الحدائق الواسعة ومواقع البناء التي جني فوقها لفت وأعشاب وفاصوليا طيلة سنوات، خبز أفقر المستوطنين. حفر هؤلاء المستوطنون سراديبهم بأنفسهم، وقفوا في المياه الجوفية، دقوا أعمدة السقوف بأنفسهم في الأماسي القصيرة بين الربيع والخريف، والله أعلم ان كانوا قد رأوا احتفال تأسيس قبل موتهم.

لم يكن الأمر يعني أطفالهم، إذ أنهم عُمِّدوا بروائح البعد غير المستقرة، حين اشتعلت نار البطاطا وحط الغجر رحالهم بشكل عاجل وبلغة غريبة في أرض لا يملكها أحد، بين المقبرة والمطار.

في بيت مستأجر في شارع المعبر كان على الأطفال أن ينزعوا أحذيتهم ويلعبوا مرتدين الجوارب، لأنهم يسكنون فوق مالك البيت. لقد سُمح لهم أن يتحدثوا همسا فقط ولن يتركوا عادة الهمس ما عاشوا. في المدرسة يقول لهم المعلمون: ينبغي أن تُضرَبوا حتى تفتحوا أفواهكم، أن تضربوا. فيتدبّرون أمورهم صامتين بين اللوم من الضجيج واللوم من أن تكون أصواتهم واطئة جدا .

لم يكتسب شارع المعبر اسمه من اللعبة التي يعبر فيها اللصوص، لكن الأطفال ظنوا طويلا أن الأمر كذلك. فيما بعد، حين حملتهم سيقانهم أبعد، رأوا المعبر، النفق الصغير الذي يمر فوقه القطار المسافر الى فيينا. كان على الفضوليين الراغبين في الذهاب إلى حقل المطار أن

يمروا من هنا، عبر الحقول، عبر نقوش الخريف، لقد خطرت لأحد فكرة وضع المطار قرب المقبرة. وقد رأى الناس في ك. أن ذلك مناسب لدفن الطيارين الذين قاموا ردحا من الزمن باجراء تمرينات الطيران. لكن الطيارين لم يقدموا لأحد معروف أن يسقطوا.

زعق الأطفال دائما: طيار، طيار، رفعوا أيديهم في مواجهة الطائرات كما لو كانوا يريدون اصطيادها، وحدقوا في حديقة حيوانات الغيوم التي كان الطيارون يتحركون فيها بين رؤوس الحيوانات واليرقات .

ينزع الأطفال الورق الفضي عن الشكولاته ويعزفون عليه لحن ماريا زالر. يدع الأطفال في المدرسة الطبيبة تفتش رؤوسهم بحثا عن القمل. لا يعرف الأطفال كم دقت الساعة لأن الساعة على كنيسة قس المدينة متوقفة. إنهم يعودون من المدرسة الى البيت متأخرين على الدوام. الأطفال ! (إنهم يعرفون عند الضرورة أسماءهم، ولكنهم يلبون فقط حين يناديهم المرء "يا أطفال" .)

الواجبات: أقصر وأطول مما ينبغي، خط عمودي، تمارين في اكتساب الافق وفقدان الحلم، ما يتعلم عن ظهر قلب ويعتمد على الذاكرة. في أبخرة الأرض الزيتية، ببضع مئات من حيوات الأطفال، معاطف الأقزام، ممحاة محترقة، بين الدموع والتوبيخ، الوقوف في الزاوية، الجثو على الركب وثرثرة نهمة، عليهم أن ينجزوا: الحروف الأبجدية، الواحد في واحد، الأملاء والوصايا العشر.

يترك الأطفال المفردات القديمة ويُركّبون جديدة. يسمعون عن جبل سيناء ويرون جبل اولريش بحقول البنجر فيه، الملز وأشجار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشربين، يوقعهم الأرز ودغل الشوك في حيرة، يأكلون الحماض ويقضمون عرانيس الذرة قبل أن تتصلب وتنضج أو يحملونها إلى البيت ليشووها على جمر الخشب. تختفي العرانيس التي تعرت في صندوق الخشب لتستعمل في اشعال النار، ويضاف الأرز وشجرالزيتون، يحترقان فوقها دون لهب، تنشر دفئها بعيدا وتلقي ظلا على الجدار.

زمن رموز الانتصار، زمن أعياد الميلاد، دون التطلع الى الأمام، دون الالتفات الى الخلف، زمن ليالي القرع، الأرواح والخوف الذي لا نهاية له. بلا أمل في الخير والشر.

ليس للأطفال مستقبل. إنهم يخافون العالم بأجمعه. إنهم لا يشكلون عنه صورة إلا من هذه الجهة وتلك، إذ يمكن تحديده بخطوط الطباشير. ينطون بساق واحدة الى الجحيم ويقفزون بساقين الى السماء.

ذات يوم ينتقل الأطفال إلى شارع هينزل. في بيت ليس له سيد، في حي زحف خارجا من الأبنية، أليفا ضيق الصدر. يسكنون شارعين بعد شارع بيتهوفن، حيث البيوت واسعة ومدفأة مركزيا، على بعد شارع من شارع راديتسكي الذي يمر منه قطار الشوارع كهربيا أحمر واسع الفم. لقد أصبحوا مالكين لحديقة تزرع في قسمها الأمامي ورود وفي قسمها الخلفي أشجار تفاح صغيرة وشجيرات عنب الذئب. ليست الأشجار أكبر منهم، وينبغي أن يكبروا معا. لجيرانهم من جهة اليسار كلب ومن اليمين أطفال يأكلون الموز. صنعوا في الحديقة حلقات وأبطالا وهم يمضون نهارهم مبتهجين. يصادقون الكلب

إيلي و يخاصمون أطفال الجيران الذين يعرفون كل شئ ويستطيعون كل شئ أفضل منهم. الأفضل أن يكونوا فيما بينهم، يعششون في العلية ويصرخون أحيانا من مخبئهم عاليا ليجربوا أصواتهم الكسيحة. يطلقون بصوت واطيء صرخات عصيان قصيرة أمام نسيج العنكبوت.

بغضوا السرداب بسبب الفئران ورائحة التفاح. الهبوط اليه كل يوم، البحث عن الثمرات الفاسدة، قصها وأكلها! لأن اليوم الذي يكون فيه جميع التفاح الفاسد قد أكل لن يأتي، لأن تفاحا آخر يفسد ولا يجوز رميه، يجعلهم جائعين إلى ثمرة غريبة ممنوعة. انهم لا يحبون التفاح والأقارب وايام الأحد، حيث يتوجب عليهم الذهاب للنزهة على جبل الصليب، فوق البيت معرِّفين الزهور، معرفين الطيور.

في الصيف يضيق الأطفال عيونهم في الشمس عبر درف خضراء، في الشتاء يبنون رجل ثلج ويغرسون له قطع فحم مكان العينين. يتعلمون الفرنسية Madelleine est une petite fille. Elle est à la fenêtre. Elle regarde la rue. يعزفون على البيانو. أغنية الشمبانيا. وردة الصيف الأخيرة. نشوات الربيع.

لم يعودوا يتهجأون. يقرأون صحفا ينطلق منها قاتل بدافع الرغبة، يتحول إلى الظل الذي تلقيه الأشجار في الظلمة، حين يعود المرء إلى البيت من درس الدين، ويستدعي حفيف الليلك المتحرك على طول الحدائق الأمامية. أدغال كرات الثلج وزهرة اللهيب تنقسم وتتخلى طيلة لحظة عن هيأتها. تشعر بقبضة الخانق، السر الذي يكمن في كلمة رغبة والذي يُخاف منه أكثر مما يخاف من القاتل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقرأ الأطفال حتى تتجرح عيونهم. إنها محمرة لأنهم أقاموا في المساء أطول مما ينبغي في كردستان المقفرة أو عند مناجم الذهب في ألاسكا. يستلقون مترصدين حوار حب ويريدون الحصول على قاموس للغته غير المفهومة. يجهدون أذهانهم بشأن أجسادهم وبشأن خلاف ليلي في غرفة الأبوين. يضحكون في كل مناسبة، لا يكادون يستطيعون ضبط أنفسهم ويسقطون عن المصطبة من الضحك ، ينهضون ويستمرون في الضحك حتى يصيبهم التشنج.

لكن سيعثر على القاتل بدافع الرغبة قريبا في قرية، في روزنتال، في المخزن، بخيوط القش وضباب الصورة الرمادي في الوجه، الذي يجعله غير قابل للتعرف عليه الى الأبد، وليس فقط في جريدة الصباح.

ليس ثمة نقود في البيت. لا قطعة نقود معدنية تسقط في الحصالة. لا يتكلم المرء أمام الأطفال إلا بالتلميحات. لا يستطيعون أن يحزروا أن الأرض على وشك أن تباع والسماء أيضا، التي يتجاذبها الجميع حتى تتمزق وتترك ثقبا أسود.

إلى المائدة يجلس الأطفال هادئين، يمضغون اللقمة طويلا بينما يرعد في المذياع ويتجول صوت قارئ الأخبار في المطبخ مثل برق الطلقات وينتهي حيث يرتفع غطاء القدر مذعورا فوق البطاطا المنفلقة. ينقطع التيار الكهربائي. في الشارع تمضي طوابير من المستعرضين. تتضارب الرايات فوق الرؤوس. " ...حتى يسقط كل شيء إلى شظايا "، هكذا يغنون في الخارج. تدوي اشارة الوقت، ويذهب الأطفال الى الجهة الأخرى ليعطوا أخبارا صامتة باصابع مدربة.

وقع الأطفال في الحب ولا يعرفون فيمن. يرطنون بكلام غير مفهوم،

يلقون برأسهم في خضم الأفكار في صفرة لا يمكن تعريفها، وحين تضيق بهم السبل يخترعون لغة تجعل منهم مجانين. سمكتي. صنارتي. ثعلبي. فخي. ناري. أنت يا مائي، أنت يا موجتي. أرضي. أنت يا إذاي. وأنت يا لكني، إما، أو، كل ما أملك ...كل ما أملك... يتدافعون يواجهون بعضهم بالقبضات ويتضاربون من أجل مفردة مضادة لا وجود لها.

إنهم لا شيء، هؤلاء الأطفال.

يصابون بالحمى، يتقيأون، يصابون بحمى بادرة، التهاب اللوزتين، السعال الديكي، الحصبة، الحمى القرمزية، إنهم في أزمة، تُخليَ عنهم، إنهم معلقون بين الموت والحياة، وذات يوم يضطجعون هنا دون شعور خائرين، بأفكار جديدة حول كل شيء. يقال لهم أن الحرب اندلعت.

يستطيع المرء التزلج على البحيرة تحت جبل الصليب. بضعة شتاءات أخرى حتى تحرث القنابل جليدها. الأرضية الزجاجية الناعمة في الوسط خصصت للفتيات ذوات التنورات الشبيهة بالأجراس، اللاتي يتزلجن في قوس داخلي وقوس خارجي وفي ثمانيات، الشريط المحيط بها يعود للمتزلجين السريعين. في غرفة التدفئة يُلبِس الشبان الكبار الفتياتِ الكبيرات أحذيةَ التزلج ويمسون بواقيات الأذن الجلد الذي يشبه عنقَ البجعة فوق سيقان نحيلة. ينبغي أن يكون للمرء حافات تزلج مثبتة لا مسامير دوارة ليكون موضع اعتبار، ومن كان كالاطفال ليس له سوى أحذية تزحلق من خشب بشداد، يتنحى إلى زاوية متروكة من البحيرة أو يكتفي بالنظر. في المساء حين يخرج

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتزلجون والمتزلجات من الأحذية ويعلقونها على أكتافهم ويظهرون على المنصة الخشبية مودعين، حين تكون جميع الوجوه غضة تشبه الأقمار تطلع في الظلمة، تشعل الأضواء تحت مظلات الثلج. تدار مكبرات الصوت و يهبط التوأمان وهما في السادسة عشرة من العمر اللذان تعرفهما المدينة السلم الخشبي، هو في بنطال أزرق وبلوزة بيضاء وهي في لا شيء أزرق فوق بدلة بلون الجلد. ينتظرون دون عجلة الافتتاح قبل أن يندفعا من الدرجة قبل الأخيرة على الجليد هي بضربة أجنحة وهو بقفزة سباح رائع ويصلا ببضع ضربات عميقة قوية الوسط. هناك تصبح هي الشخص الرئيس، ويمسك هو لها حلقة من الضوء، تقفز من خلالها محاطة بالضباب، بينما تبدأ ابرة الغرامافون بالاحتكاك وتخشخش الموسيقى. يوسع الشيوخ عيونهم تحت حواجب مؤطرة ويسند الرجل ذو مسحاة الثلج الذي ينظف ممر التزحلق الطويل حول البحيرة بأقدامه الملفوفة بالخرق، يسند ذقنه الى المسحاة ويتابع خطوات الفتاة كما لو أنها تقود إلى الأبدية.

يندهش الاطفال ثانية: اشجار الميلاد تسقط بالفعل من السماء. نارية. والهدية التي لم يتوقعوها فوق ذلك هي مزيد من وقت الفراغ للأطفال .

سمح لهم لدى سماع الانذار أن يتركوا دفاترهم ويذهبوا إلى الملجأ. بعدئذ سمح لهم أن يوفروا حلوى للجرحى ويحوكوا الجوارب وينسجوا سلال الخوص للجنود، لأولئك على الأرض وفي الجو وفي الماء. وأن يذكروا في الإنشاء اولئك تحت الأرض وفي القاع. وفي وقت لاحق أيضا سمح لهم أن يحفروا ممرات بين المقبرة وساحة المطار الذي يشرف على المقبرة. سمح لهم أن ينسوا اللاتينية ويتعلموا التمييز بين

ضوضاء المحركات في السماء. لم يعد عليهم أن يغتسلوا بكثرة، لم يعد أحد يهتم بالاظافر. يضفر الاطفال الحبال التي يقفزون عليها إذ لم يعد ثمة حبال جديدة، ويتحدثون عن مُوقّت الانفجار والقنابل التي تشبه الصحون. بين الأنقاض يلعب الأطفال "دع اللصوص يمروا" ولكنهم أحيانا يقرفصون هناك فقط، يحدقون أمامهم ولا يعودون يسمعون حين يناديهم المرء "يا أطفال". هناك ما يكفي من الشظايا للسماء والجحيم. لكن الأطفال يرتعدون، لأنهم مبتلون ويشعرون بالبرد. .

أطفال يموتون، ويتعلم الأطفال أرقام سنوات الحروب التي دامت سبع سنوات وتلك التي دامت ثلاثين سنة، ولم يكن يهمهم أن يخلطوا العداوات، الذرائع والأسباب التي يحصل المرء عن التمييز بينها بدقة على درجة جيدة في درس التاريخ .

يدفنون الكلب ايلي ثم يدفنون أهله. لقد مضى زمن التلميحات. صار المرء يتحدث أمامهم عن الرصاصات في الرقبة، عن الشنق، الاعدام، التفجير، وما لا يسمعونه أو يرونه كانوا يشمونه، كما يشمون موتى شارع روبريشت الذين لا يستطيع المرء إخراجهم لأن دار السينما التي ذهبوا اليها سرا ليشاهدوا "مغامرة عاطفية في مول" سقطت عليهم . لم يكن دخول اليافعين مسموحا به، لكنهم دخلوا بعد ذلك بالفعل، جاؤوا بعد ذلك بأيام للموت الكبير والقتل وكل الأيام التالية.

لم يعد ثمة ضوء في البيت بعد ذلك. لا زجاج للنوافذ، لا باب في المفصلة، لا أحد يتحرك من مكانه ولا أحد ينهض. لا يجري نهر الغلان قُدُما أو الى الوراء. النهر الصغير متوقف وقصر تسيغولن متوقف لا ينهض.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القديس جورج يقف في ساحة ناون، يقف ممسكا بالهراوة ولا يقتل التنين. إلى جانبه تقف القيصرة ولا تنهض.

واه أيتها المدينة، أيتها المدينة، مدينة النوار الأبيض التي تتدلى منها كل الجذور. لا ضوء ولا خبز في البيت. يقال للأطفال: اهدأوا، إهدأوا قبل كل شئ .

خلف هذه الجدران، بين شارع رنغ، كم من الجدران لا تزال هناك الطير رائع، ألا يزال يعيش؟ لقد صمت سبع سنوات. مضت السنوات السبع. أنت يا مكاني، أنت يا لا مكان، فوق الغيوم، تحت المعزقة، تحت الليل، في النهار، مدينتي ونهري. أنا موجتك، أنت أرضي، مدينة بحلقة فيترينغر وسانت فايتررنغ ، كل الشوارع الدائرية يجب أن تذكر بأسمائها مثل شوارع النجم الكبيرة، التي ما كانت أكبر بالنسبة للأطفال، وجميع الأزقة: زقاق القلعة وزقاق الغلال، نعم هكذا تدعى، زقاق الفردوس، لا ينبغي نسيان الساحات، ساحة القش، وساحة الروح المقدس، من أجل ذكر كل شئ هنا، مرة وإلى الأبد، بذلك تكون جميع الساحات قد ذكرت. موجة وأرض.

وذات يوم لا يحرر أحد للأطفال شهادة، وهم يستطيعون الذهاب. يطلب منهم أن يدخلوا معترك الحياة. يحط الربيع بماء صاف غاضب ويولد عشبة. لا يحتاج المرء أن يقول للأطفال أن السلام قد حل. يمضون أيديهم في جيوب ظهرت خيوطها يطلقون صفيرا يحذرهم أنفسهم.

لأنني كنت في ذلك الوقت، في ذلك المكان بين الأطفال وكنا قد

أقمنا ساحة جديدة، أتخلى عن شارع هينزل، وعن الاطلالة على جبل الصليب أيضا، وأتخذ جميع اشجار الشربين، طيور أبي زريق وأوراق الأشجار الناطقة شاهدا. ولأنني أدركت أن صاحب المطعم لم يعد يدفع قرشا عن زجاجة سيفون فارغة ولن يهديني شراب الليمون أترك الطريق للآخرين عبر شارع المعبر وأرفع ياقة معطفي حين أعبره دون نظرة، لأصل الى المقابر، مسافرا عابرا لا يكتشف أحد أصله. حيث تنتهي المدينة، حيث توجد الحفر ، حيث تقوم المصافي مليئة ببقايا الحصى وحيث تَوقف الرمل عن الغناء ، يستطيع المرء أن يستقر لحظة واضعا وجهه في كفيه. يعرف المرء عندها أن كل شئ كان كما كان، أن كل شئ كما هو، ويتخلى عن البحث عن سبب لكل شيء. فهنا لا توجد عصا تمسّك، لا مسخ. الزيزفونات ودغل البيلسان...؟ لا شئ يحرك عاطفتك. لا انحدارات زمن سابق، لا بيتا مقاما، ولا برج تسيغولن، لا الدبين الحبيسين، لا البحيرات أوالورود أو الحدائق المليئة بالأبنوس الكاذب. في تذكر غير مؤثر، قبل الرحلة، قبل جميع الرحلات، ماذا ينبغي أن ندرك؟ الأقل متوفر، ليجعلنا نفهم والشباب ليس ضمنه، ولا المدينة التي كان فيها أيضا. فقط حين تأتي الشجرة القائمة أمام المسرح بمعجزة، حين تتقد المشاعل، أنجح كما المياه في البحر في رؤية كل شئ يختلط: الظلمة المبكرة مع الطيرانات فوق الغيوم المرتدية جمرا أبيض، الساحة الجديدة وتماثيلها السخيفة تتطلع إلى يوتوبيا، صافرات انذار تلك الأيام مع صوت المصعد في بناية شاهقة، شرائح الخبز اليابسة بمربى فيه حجر قضمته على شاطئ الأطلسي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العام الثلاثون

حين يبلغ أحد ما عامه الثلاثين لن يكف المرء عن وصفه بالشاب. ورغم انه لا يستطيع أن يكتشف تغيرا على نفسه، يصبح غير واثق ويشعر كما لو أنه لا يحق له أن يقدم نفسه كشاب. ويفيق ذات صباح، في يوم سينساه، يضطجع فجأة فلا يستطيع أن ينهض، مصابا بأشعة ضوء قوية مجردا من اي سلاح، وكل شجاعة لليوم الجديد. حين يغلق عينيه، ليحمي نفسه، يغوص متراجعا ويسقط في العجز، مع كل لحظة يعيشها. يغوص ويغوص، ولا ترتفع الصرخة (أخذت منه هي أيضا، أخذ منه كل شيء)، ويسقط في هوة لا قاع لها، حتى يفقد حواسه، حتى ينحل كل شيء، ويُباد ما كان يُعتقد أنه قائم. حين يستعيد وعيه، يعود الى رشده مرتجفا ويصبح شبحا من جديد، يصبح شخصا، سينهض بعد قليل ويتوجب عليه أن يخرج الى النهار، مكتشفا في نفسه قدرة جديدة عجيبة. قدرة أن يتذكر. إنه لا يتذكر كما فعل حتى الآن، على غير تَوقُّع أو لأنه رغب في ذلك، يتذكر هذا وذاك، وإنما يتذكر بقسر مؤلم كل أعوامه، السطحية منها والعميقة، وكل الأماكن التي شغلها في تلك الأعوام. يلقي شبكة اسمها التذكر، يلقيها على نفسه ويسحبها، غانما وغنيمة في شخص واحد، فوق عتبة الزمن، عتبة المكان، ليرى من كان ومن صار.

حيث أنه قد عاش ببساطة حتى الآن من يوم لآخر، حاول أن يقوم بشيء مختلف كل يوم وكان بلا هم. رأى في نفسه مكانات كثيرة

وظن على سبيل المثال أنه يستطيع أن يكون كل شيء ممكن:

رجلا عظيما، إشارة ضوء، عقلا فلسفيا. أو شغيلا، رجلا مجتهداً، رأى نفسه وهو يبني جسورا، يشق طرقا، في دريليش، رأى نفسه يمشي متصببا عرقا في موقع العمل، يقيس الأرض، يلعق حساء كثيفا من علبة صفيح، يشرب صامتا كأسا مع العمال. لم يكن متحدثا جيدا.

أو ثوريا يشعل حريقا في أرض المجتمع الخشبية المهترئة، رأى نفسه ملتهبا حماسة، فصيح اللسان مستعدا لكل مخاطرة. تحمس، كان في السجن، عانى، أخفق وحقق أول نصر.

أو متعطلا بدافع الحكمة – باحثا عن كلّ متعة ولا شيء سوى المتعة، في الموسيقى، في الكتب في المخطوطات القديمة، في البلدان البعيدة متكئا على الأعمدة. كانت لديه حياة واحدة فقط ليعيشها. هذه الأنا الواحدة ليقامر بها، متعطش الى السعادة، إلى الجمال، مخلوق للسعادة ومدمن على كل بريق!

لذلك عاش طوال أعوام مع أكثر الأفكار تطرفا وأروع الخطط، ولأنه لم يكن شيئا سوى كونه شابا ومعافى، ولأنه بدا أن لديه الكثير من الوقت قبل كلّ عمل سانح. أعطى للتلاميذ دروسا إضافية لقاء وجبة طعام ساخنة، باع الصحف، أزاح الثلج لقاء خمسة شلنات في الساعة ودرَس إلى جانب ذلك الأسلاف. لم تكن له خيارات كثيرة فقصد شركة ما كعامل متدرب، استقال ثانية، حين وجد عملا في جريدة، طُلب منه كتابة ريبورتاجات عن جهاز جديد لحفر الأسنان. عن بحوث التوائم، عن أعمال صيانة كنيسة شتيفاندوم. ثم رحل ذات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوم دون نقود، استوقف سيارات، استخدم عناوين أعطاه اياها صبي لا يكاد يعرفه كان بدوره قد حصل عليها من شخص ثالث، بقي هنا وهناك وتابع السفر. سافر بالاوتوستوب عبر أوربا، ثم عاد بعد ذلك متبعا قرارا مفاجئا، استعد للامتحانات لمهنة نافعة، لكنه لم يرد أن يعتبرها قراره النهائي، ونجح في الامتحانات. كان يرضى في كل سانحة بصداقة، بعلاقة حب، يستجيب لطلب وكل هذا على سبيل التجربة وقابل للرجوع عنه. بدا له العالم قابلا للالغاء، هو نفسه قابلا للإلغاء.

لم يخشَ لحظة واحدة أن الستارة يمكن أن ترتفع كما هو الحال الآن أمام سنته الثلاثين، التي لتكون الكلمة الأساس له، ويكون عليه أن يري ذات يوم ما استطاع أن يفكر ويفعل ويكون عليه أن يعترف بما هو مهم بالنسبة له حقا. لم يخطر له أبدا أنه من ألف إمكانية وإمكانية ضاعت وألف إمكانية أُهدرت – أو كان عليه أن يضيعها، لأن واحدة فقط كانت بالنسبة له قائمة.

لم يتفكر أبدا. . .

لم يخَفْ شيئا.

الآن يعرف، أنه هو أيضا في الفخ .

يوم ممطر من حزيران، تبدأ به هذه السنة. كان يعشق من قبل هذا الشهر الذي ولد فيه، في الصيف المبكرفي بشرى الدفء والتأثيرات الطيبة للأفلاك الحسنة.

لم يعد يعشق نجمه.

وسيكون تموزا دافئا.

يصيبه القلق. عليه أن يعدّ حقيبته، غرفته، ما يحيطه، أن يلغي ماضيه. ليس عليه أن يسافر فقط، وإنما أن يبتعد. يجب أن يكون حرا في هذه السنة، يتخلى عن كل شيء، أن يغير المكان، الجدران الأربعة والناس.عليه أن يسوي الحسابات القديمة، أن يبلغ فاعل خير بمغادرته، أن يبلغ الشرطة، وحلقة الزبائن الدائمين. بهذا يكون قد تحرر وتخلص من كل شيء. يجب أن يذهب إلى روما، أن يعود إلى هناك، حيث كان أكثر حرية، حيث شهد قبل سنوات صحوته، صحوة عينيه، فرحه، معاييره وأخلاقه.

غرفته قد رتبت، لكن بعض الأشياء متناثرة لا يعرف ما يفعل بها: كتب، صور، كتيبات مصورة لمناظر ساحلية، خرائط للمدينة، ومستنسخة لا يخطر له من أين حصل عليها. ، «ليسبيرينس» هو اسم الصورة لبوفي دي شافان، التي يجلس فيها الأمل عفيفا وذا زوايا، على بساط أبيض، في يده غصن يخضر متريثا. منقطة في الخلفية – بضعة صلبان سوداء، في البعيد – ثابتة ومرنة، أنقاض، فوق الأمل – شريط مغيب لسماء وردية ، إذ أن الوقت مساء، الوقت متأخر، والليل يتجمع. رغم أن الليل ليس في الصورة – فإنه سيأتي! سيحل فوق صورة الأمل وحتى الأمل الطفولي وسيلون هذا الغصن بالسواد ويجففه.

لكنها صورة وحسب. يرميها .

ثم ها هنا لفاف عنق حريري مخروق، معطر بالغبار. بضع أصداف. حجارة التقطها حين خرج الى اليابسة ولم يكن وحيدا. وردة يابسة، لم يرسلها حين كانت نضرة. رسائل تبدأ بـ "أيها الحبيب"،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"حبيبي"، "أنت يا أنتاي"، "آخ". وتلتهمها النار بـ "آخ" سريعة فتتكور وتُفتت رقائق رماد دقيقة. يحرق جميع الرسائل.

سينفصل عن الناس المحيطين به، لن يذهب ما أمكن إلى اناس جدد. لم يعد يستطيع العيش بين الناس. إنهم يشلونه، لقد أعدوه وفق رغبتهم الخاصة. يتخذ المرء هيئات كثيرة جدا، كما يكون المرء فترة طويلة في نفس المكان، هيئات صنعتها الإشاعة، ويتناقص حقه في أن يستشهد بنفسه. لذلك يريد أن يظهر منذ الآن والى الأبد في هيأته الحقيقية. هنا حيث يستقر منذ زمن طويل، لا يستطيع أن يبدأ بذلك، ولكن هناك سيفعل، حيث سيكون حرا.

يصل ويلتقي في روما الهيئة التي تركها للآخرين يومذاك. سيرغم عليها مثل سترة القسر Zwangjacke*. يثور، يدافع عن نفسه، يضرب حوله حتى فهم ويصبح أكثر هدوءا. تغتصب حريته، لأنه سمح لنفسه سابقا عندما كان أصغر سنا، أن يكون هنا مختلفا. لن يستطيع أبدا وفي أي مكان أن يحرر نفسه، لن يستطيع أن يبدأ من جديد. هذا لا يجوز. ينتظر.

يلتقي مول ثانية. مول الذي وجبت مساعدته دائما. مول الذي يشعر عدا ذلك باليأس من الناس، مول الذي يطلب أن يقاس المرء به، مول الذي كان هو قد أقرضه كل نقوده منذ وقت طويل، مول الذي كان يعرف ايلينا أيضا... مول ، سعيد الآن، لا يعيد اليه نقوده وهو لذلك صعب المراس ويشعر بسرعة بالاهانة. مول ، الذي أخذه في ذلك الوقت إلى كل أصدقائه، الذي فتح له كل الأبواب، لأنه كان محتاجا جدا إلى المساعدة، قد عشش خلال ذلك في كل مكان وسود سمعته

بقصص صغيرة موزونة بدقة، اعادة رواية الكلام، تصريحات سهل تزويرها. يتصل مول يوميا وهو موجود في كل مكان يذهب اليه. مول يقلق من أجله، يستل منه اعترافات ينقلها الى أقرب زاوية، إلى أول من يلاقيه ويسمي نفسه صديقا له. حيث لا يكون مول يكون ظل مول، ضخما وأكثر تهديدا في الأفكار والتخيلات. مول بلا نهاية. إرهاب مول. إلا أن مول نفسه أصغر كثيرا، ينتقم لنفسه بمهارة مدهشة لكونه مدينا له بشيء.

تبدأ هذه السنة بداية سيئة.يدرك أن الوضاعة ممكنة وأنها تستطيع أن تمسه. أجل لقد اقتربت منه مرارا، لكنها هذه المرة تلقي بنفسها عليه بقوة وتخنقه. وفجأة يتأكد له أن لهذه الوضاعة تاريخا طويلا، تصبح أكبر منه و تخترق حياته. ستكويه حموضتها مرة بعد أخرى، ستحرقه، إذا لم يكن مهيأ لها. لم يكن مهيأ لمول.

عليه أن يستعد لأموال كثيرين، إنه يعرف الكثيرمنهم هنا وهناك. إنه يدرك الآن فقط بمعرفته لمول واحد، أن ثمة ليس مول واحد وحسب.

سيصبح في هذه السنة مجنونا ولا يعرف إن كان قد عرف أصدقاء في أي وقت، إذا كان قد أحبه أحد في أي وقت. يضيء برق جميع علاقاته، جميع الظروف، الوداعات، ويشعر أنه خدع وكان ضحية للخيانة. يلتقي ايلينا ثانية، ايلينا التي تُفهمه أنها قد غفرت له. يحاول أن يكون شاكرا. إنها نفسها لم تعد حتى تدرك أنها ابتزته وهددته، أنها تصرفت دون تعقل في غضبها منه وأنها أرادت أن تمحو وجوده – وقد كان هذا قبل سنوات قليلة وحسب – . إنها مستعدة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للصداقة، محبوبة، تنطق بالحكمة، متسامحة، حنون، فهي الآن متزوجة. كان قد انفصل عنها يومها وقتا قصيرا، كان قد خانها بأغبى الصور كما اعترف نفسه بذلك. يفكرفي الباقي مكرها: في انتقامها، هربه، خسائره، المصالحات، الخجل، الندم أيضا، التودد إليها من جديد. لديها الآن طفل، لكنها حين يسألها عنه دون تحسب، تعترف مبتسمة ومترددة أنها كانت حاملا يومذاك، في فترة الانفصال. تبدو مهمومة للحظة، لا أكثر. يدهشه هدوؤها، راحتها. يفكر دون عواطف وانفعال أن غضبها يومذاك كان تظاهرا، ما كان لديها سبب للصلف، لا حق لها في الابتزازالذي قبله إذ أعتقد أنه المذنب الوحيد. (كان يعتقد حتى الآن أنها ذهبت الى غيره بعد سفره فقط، ربما لتنسى.) أعتقد طول الوقت أنه مذنب، وقد تركته ببساطة يعتقد أنه مذنب. يزفر الذنب بهدوء وتأكيد ويفكر: كنت مخطئا في يأسي. لكني الآن مخطئ في وضوح رؤياي. أشعر بالبرد. كان أفضل لي أن أحتفظ بالذنب.

ثمة تخريب يجري. سيكون بوسعي أن أتحدث عن الحظ إذا لم يُقضَ عليّ هذه السنة. يمكنني أن أزور القبور الايتروسكية، أسافر في الحملة قليلا، اتشرد في المنطقة المحيطة.

روما كبيرة. روما جميلة. ولكن لا يمكن أن أعيش هنا ثانية. في كل مكان يختلط أنصاف أصدقاء بالأصدقاء، وصديقك مول لا يحتمل صديقك مول، وكلاهما غير متسامح أزاء صديقك الثالث مول. يُضغط على الحائط الذي تبحث خلفه عن الحماية من جميع الجوانب. رغم أنك تصبح أحيانا مرغوبا فيك ويُحتاج اليك، يتملكك شغف وتحتاج الى الآخرين، فان جميع الايماءات صعبة، ولن تعود

قادرا على المضي بصداع في الرأس، سيفسر في الحال كاستياء مهين. لا تستطيع أن تدع رسالة دون جواب، دون عجرفة، دون أن تتهم بعدم الاكتراث، لن تستطيع منذ الآن أن تتأخر عن موعد دون أن تثير سخطا.

ولكن كيف بدأ هذا؟ ألم يستوطن الاضطهاد والوصاية من خلال شبكات العداوات والصداقات قبل سنوات. بعد أن تورط في تجارات المجتمع بوقت قصير؟ ألم يبنِ في ضعفه منذ ذلك الوقت حياة مزدوجة، حياة متعددة من أجل أن يستطيع العيش وحسب؟ ألا يخدع الجميع وكل واحد وأضعاف ذلك نفسه بالذات؟ أصله الطيب منحه : الاستعداد للود، للثقة. كان حنينه الطيب هو: الرغبة البربرية فى اللا مساواة، التعقل والتبصر لأقصى الدرجات. اكتسب إلى جانب ذلك فقط الخبرة في ان الناس تجني على المرء فيجني هو الآخر عليهم أيضا وان ثمة لحظات يشيخ فيها المرء من الاساءة – يساء إلى كل واحد من قبل الآخرين حتى الموت. وأن الجميع يخاف الموت الذي يستطيعون فيه وحسب أن ينقذوا أنفسهم من الاساءة الفظيعة التي هي الحياة.

آب! كانوا هنا، الأيام من حديد، جيء بها الى دكان الحداد لتسخن حتى الاحمرار. الوقت يهدر.

كانت الشواطئ محاصرة، ولم يعد البحر يقلب جيوش أمواجه إليها، وإنما تظاهر بالانهاك العميق، الأزرق.

فوق الفرن، في الرمل قُلى، حُمِّر لحم الانسان السريع الفساد. عند البحر، على الرمال: اللحم.

كان خائفا، لأن الصيف انقضى علي هذا النحو. لأن هذا يعني أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخريف آتٍ قريبا. كان آب مليئا بالاضطراب، مليئا بالقسر، أن يمسك به ويعاش.

فوق الرمال تركت جميع النساء أنفسهن للعناق، خلف الصخور، في الكابينات، في السيارات التي وقفت في ظل أشجار الصنوبر، حتى في المدينة خلف فراء الخراف المعلق في الظهيرة، قدمن أنفسهن نصف نائمات أو بقين ساعة أخرى في الكورزو مسمرات بكعوبهن العالية في الاسفلت اللين للشوارع والمنعطفات الهادئة الخالية ، وأمسكن ، باحثات عن سند، بذراع تمر .

لم تقل كلمة في هذا الصيف، لم يُذكر اسم.

تنقل بين البحر والمدينة، بين الأجساد البيض والسمر، من طمع طارئ إلى آخر، من الزبد إلى شواطئ الليل، استغرقه الصيف تماما. والشمس تشرق كل يوم أسرع، وتسقط أبكر في البحر أمام العيون التي لا تشبع.

تضرع إلى الأرض والبحر والشمس التي حاصرته بشكل مخيف في الوقت الحاضر. نضجت البطيخات، أكل لحمها، مات من العطش.

أحب مليار إمرأة، الكل في نفس واحد ودون تمييز.

من أكون، في أيلول الذهبي، حين أخلع كل شيء عني، ما صنعه المرء مني؟ من، حين تطير السحب!

العقل الذي يسكن في لحمي أكثر احتيالا من صاحب النزل المتظاهر بالورع. إنني أخشى لقاءه قبل كل شيء. حيث لا شيء مما أفكر فيه له علاقة بي. ليس كل فكرة سوى تفتح بذور غريبة. لا أستطيع التفكير في شيء من كل ما أثار عاطفتي، وأنا أفكر في أشياء لم تحرك عاطفتي.

أفكر سياسيا، اجتماعيا وأيضا فيما يقع تحت مصطلحات أخرى، وهنا وهناك وحيدا ودون غرض، ولكني أفكر دائما في لعبة بقواعد لعب وجدتها أمامي، وربما فكرت مرة أيضا في تغيير القواعد. ليس اللعبة. أبدا. !

الأنا، هذه الحزمة من ردود الأفعال وإرادة حسنة التربية، أنا تتغذى من قمامة من تاريخ، فضلات من الغريزة والفطرة، أنا بقدم في التوحش، وأخرى في الشارع الرئيسي المؤدي إلى الحضارة الأبدية. الأنا التي لا يمكن اختراقها، مخلوطة من كل المواد، مبطنة بالوبر، غير قابلة للذوبان، ورغم ذلك يمكن القضاء عليها بضربة في مؤخرة الرأس. أنا من صمت مجبرة على الصمت .

لماذا بحثت طيلة صيف عن الدمار في النشوة أو تصعيد النشوة؟ – أجل فقط من أجل ألا يصبح ملحوظا أنني آلة متروكة، عزف عليها أحد ما، من زمن طويل، بعض الألحان، التي نوّعتُها يائسا، أحاول بغضب أن أجعل منها لحنا يحمل طبعات أصابعي. يحمل طبعات أصابعي! كما لو أن الأمر يتوقف على أن يحمل شيء طبعات أصابعي. مرت صواعق في الأشجار وشقتها. حل الجنون بالناس، ومزق دواخلهم. غزت أسراب الجراد الحقول، وتركت أثار الالتهام. أجدبت الفيضانات الهضاب، الجداول العفوية المنحدرات. لم تهدأ الزلازل. هذه طبعات الأصابع، الوحيدة!

لو لم أُذكر في الكتب، في القصص والاساطير، في الصحف، الأخبار، لما نما فيّ كلُّ ما يمكن ابلاغه، لكنت لا شيء، مجموعة من الحوادث الغامضة. (وربما كان هذا جيدا، إذن لخطر لي شيء جديد!) أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أستطيع الرؤية، أن أستطيع السمع، هذا ما لا أستحقه. أما مشاعري، فهذه أستحقها بالفعل. طيور مالك الحزين هذه فوق الشواطئ البيض، هؤلاء المتجولون ليلا، الصعاليك الجياع، الذين يجعلون من قلبي شارعا خارجيا لهم. أردت، لو استطعت أن أهتف بكل أولئك الذين يؤمنون برؤوسهم الفريدة والعملة الصعبة لأفكارهم: صدقوا! لكنها قد أبعدت من التداول، هذه العملات التي تخرخشون بها، إنكم فقط لا تعرفون بعد. أسحبوها من التداول مع جميع صور رؤوس الموتى والنسور. أقرّوا أن بلاد الإغريق وبلاد بوذا قد انتهت، النهضة والكيمياء. أقروا أنكم تسكنون في واحد من البلدان المؤثثة القديمة، أن وجهات نظركم مستأجرة، مستأجرة صور عالمكم. أقروا بأنكم حيث تدفعون بالفعل بحياتكم تفعلون ذلك في الجانب الآخر من الحاجز، حين تكونون قد تخليتم عن كل ما هو عزيز عليكم، – عن مواقع الهبوط، القواعد الجوية، ومن هناك فقط تبدأون طريقكم الخاص ورحلتكم، من محطة متخيلة إلى محطة متخيلة، مسافرين لا يحق لهم أن يهتموا بالوصول.

محاولة طيران! محاولة حب جديد! ها هنا عالم غامض مترامي الأطراف يعرض نفسه ليأسك – سافر إلى هناك!

سلبية، نشوة مجنحة فوق هاويات. حين لا يعود الواحد يلف ذراعه حول عنق الآخر، يدعه يمضي في طريقه، حين يسحب الانسان الاخطبوط ذراعه التي يصيد بها، لا يبتلع الأقرب إليه. . . . إنسانية: أن يستطيع المرء أن يبقى على بعد.

ابقوا على بعد عني، وإلا متّ ، أو قَتَلتُ، أو قتلت نفسي، بُعد، بحق الله!

أنا غاضب من غضب ليس له بداية ولا نهاية. غضبي الذي نشأ في فترة جليدية سابقة وهو يتحول الآن ضد الفترة الجليدية... فإذا ما انتهى العالم – والجميع يقول هذا، المؤمنون والمتشككون، العلماء والأنبياء، سينتهي ذات يوم – لماذا إذن ليس قبل أن ينهي دورته أو قبل الانفجار أو قبل يوم القيامة؟ لماذا ليس بسبب تبصر وغضب؟ لماذا لا ينبغي لهذا الجنس أن يكون قادرا على التصرف بلياقة ويضع النهاية؟ نهاية المقدسات، المثمرات العقيمات، المحبات حقا. ليس هناك بالصدفة ما يقال ضد هذا.

أفاق بصعوبة متزايدة في الصباح. ضيق عينيه في الضوء القليل، استدار، دفن رأسه في الوسادة. التمس مزيدا من النوم. تعال، أيها الخريف الجميل. في تشرين الورود الأخيرة هذا...

توجد على أية حال جزيرة، حدثه عنها أحدهم، في ايجه، لا يوجد فيها سوى زهور وأسود حجرية، نفس الزهور التي تتفتح عندنا بتواضع ولفترة قصيرة، تتفتح هناك مرتين في السنة، كبيرة وباهرة. الأرض الضيقة، الصخور النفورة تحثها. يدفعها الفقر إلى ذراعي الجمال.

نام غالبا عميقا حتى بعد الظهر وأمضى المساء في علاقات حب. ضحى أكثر وأكثر بالاستياء في هذا النوم واكتسب به قوة.

فجأة لم يعد يبدو له الوقت ثمينا، لم يعد قابلا للاستعمال. لم يكن عليه أيضا أن يفعل شيئا معينا،ليكون راضيا، أن يرضي رغبة أو طموحا ليبقى على قيد الحياة.

كانت ميزة هذه السنة الموشكة على الانتهاء أنها شحيحة الضوء. حتى الأيام المضيئة كانت تحمل غيوما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يذهب الآن الى أماكن صغيرة دائما، إلى الغيتو أو إلى مقهى الحوذيين في تراستيفيرا، وكان يشرب الكامباري هناك ببطء، يوما فيوما في نفس الساعة. اكتسب عادات، حافظ عليها، حتى أصغرها. نظر إلى تحجراته بإعجاب. في التلفون كثيرا ما قال: أيها الأعزاء، لا أستطيع هذا اليوم مع الأسف. ربما الاسبوع القادم. – في الاسبوع التالي عطل التلفون. في الرسائل أيضا لم يعط وعودا وايضاحات. لقد قضى ساعات كثيرة لا جدوى منها مع الآخرين، والآن صحيح أنه لا يستغل الساعات أيضا، لكنه ثناها إلى نفسه، شمها. استمتع بالوقت. كان طعمه نقيا وجيدا. أراد أن ينكفئ تماما على نفسه. ولكن لم يلاحظ ذلك أحد أو لم يرغب أحد في ملاحظته. في المقابلات مع العالم تصرف بتبذير، كان لا يزال العليم بكل الدروب. أحيانا التقى شبحه الغائم في المدينة وحياه مترددا، لأنه كان يعرفه من قبل. إنه لا ينتمي الى الحاضر. إنه اليوم شخص آخر. أحس بالراحة وحيدا، لم يعد يطلب شيئا، أزال بناية الرغبات، تخلى عن آماله وأصبح أكثر بساطة يوما بعد يوم. بدأ يفكر في العالم بتواضع. بحث عن واجب، أراد أن يخدم.

أن يزرع شجرة، أن ينجب طفلا.

هل هذا متواضع بما يكفي؟ هل هو بسيط بما يكفي؟

لو بحث عن قطعة أرض وزوجة – وهو يعرف أشخاصا، فعلوا ذلك بكل تواضع – لاستطاع أن يغادر البيت مبكرا في الثامنة ويذهب إلى عمله، أن يملأ مكانا في الماكنة، ويستفيد من التقسيط لشراء الأثاث ومن علاوات الدولة للأطفال. يستطيع أن يرى ثمرة ما تعلمه أوراقا

نقدية كل شهر ويستخدمها ليقضي هو وجماعته عطله نهاية اسبوع هادئة. يستطيع أن يساهم في تنشيط الدورة ويشارك في الدوران.

سيعجبه هذا. خاصة: أن يزرع شجرة. سيستطيع مراقبتها في كل مواسم السنة، يرى حلقات تنضاف اليها، ويدع أطفاله يتسلقونها. سيعجبه جني الثمار. تفاح. رغم أنه لا يحب أكل التفاح يصر على شجرة تفاح. وأن يكون له ابن، سيكون ذلك حسب ذوقه، رغم أنه حين يرى أطفالا لا يكترث لجنسهم. سيكون للابن أطفال أيضا، صبيان.

لكن جنيَ ثمار بعيد على هذا النحو، في الخارج في الحديقة التي ستنتقل إلى الآخرين، خارجا في الزمن الذي لن يعود فيه حيا! هذه القشعريرة! وهنا دورة الأرض بأكملها مليئة بالأشجار والأطفال، أشجار جرباء كسيحة، أطفال جائعين، وليس ثمة مساعدة تكفي لتساعدهم على وجود كريم. اعتن بشجرة برية، خذ هؤلاء الأطفال، أفعل هذا، إذا استطعت، احم أيضا شجرة فقط من القطع، ثم تابع الكلام!

أمل: أرجو ألا يحدث شيء مما آمل. آمل أني إذا حصلت على شجرة وطفل أن يحدث ذلك في وقت يكون فيه كل أمل قد ضاع وكل تواضع. حيث أنني سأستطيع أيضا أن أتعامل مع الاثنين بشكل طيب ومؤكد، وأستطيع تركهم في ساعة موتي.

لكني أحيا! لا سبيل إلى تغيير ذلك.

مرة، حين لم يكد يبلغ العشرين، كان في المكتبة الوطنية في فيينا قد فكر بكل الأشياء حتى النهاية وعلم أنه كان يحيا. استلقى فوق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتب مثل شخص يغرق وفكر فيما كانت المصابيح الصغيرة الخضراء مضيئة والقراء ينسلون بخطوات خفيفة، يسعلون بصوت خافت، يقلبون الأوراق بهدوء، كما لو كانوا يخافون أن يوقظوا الأرواح التي تسكن بين أغلفة الكتب. فكر – إذا كان ثمة من يفهم، ماذا يعني ذلك! أنه يتذكر بالضبط تلك اللحظة، إذ تعقب مشكلة من مشكلات المعرفة وكانت جميع المصطلحات موجودة في رأسه مرنة وقابلة للاستدعاء. وحين فكر وفكر وحلق أعلى فأعلى كما لو كان في أرجوحة، دون أن يصاب بالدوار، وحين أعطى لنفسه أروع دفعة، شعر أنه يصطدم بسقف، كان عليه أن يخترقه في الأعلى. تملكه شعور بالسعادة لم يعرفه من قبل، لأنه كان في هذه اللحظة بصدد فهم شيء، ينسحب على كل شيء وآخر شيء.

طعنته الفكرة التالية! هنا حدث الأمر. هنا أصابته ومسته ضربة، في داخل رأسه، نشأ ألم حمله على التريث، أبطأ تفكيره، اضطرب وقفز من الارجوحة. لقد تجاوز قدرته في التفكير أو ربما لم يكن ثمة انسان قادر على التفكير هناك حيث كان. فوق، في الرأس أمام سقف جمجمته، طقطق شيء ما، طقطق بشكل مخيف ولم يتوقف طيلة ثوان. اعتقد أنه أصيب بمس من الجنون وأطبق يديه على الكتاب. ترك رأسه يسقط عليه وأغمض عينيه، كان مغمى عليه وهو في كامل الوعي.

كان قد قُضي عليه.

كان قد قُضي عليه أكثر من أي وقت مضى، أكثر مما هو عليه الحال حين يكون مع إمرأة، وحين تنقطع في دماغه كل الأسلاك

للحظة، أمل في افناء شخصه، شعر أنه يدخل مملكة الأنواع. لأن ما أبيد هنا، في الصالة الكبيرة القديمة، في ضوء المصابيح الصغيرة الخضر، في سكينة الوعود الاحتفالية للحروف، كان مخلوقا ارتفع أكثر مما ينبغي، مجنحا سعى الى مصدر ضوء خلال الممرات المشعة بضوء أزرق، وعلى وجه الدقة إنسانا لم يعد ندا وإنما شريك محتمل في معرفة الخلق. لقد قُضي عليه كشريك محتمل في المعرفة ولن يستطيع بعد الآن أن يرتفع الى هذا العلو ويخلط المنطق الذي علق عليه العالم.

شعر أنه مرفوض، عاجز، ومنذ هذه الساعة كان العلم وبالا عليه، لأنه أساء إليه، لأنه مضى أبعد مما ينبغي وقضي عليه في ذلك. كان بامكانه أن يضيف هذا وذاك إلى معارفه، أما أن يصبح مقتدرا ويحتفظ بفكره مرنا ، فذلك ما لم يكن يهمه. أحب أن يقف خارجا، ينظر عبر الحدود الى الجهة الأخرى ورجوعا من هناك إلى نفسه وإلى العالم واللغة وكل شرط. كان بوده لو عاد بلغة أخرى، تصلح للتعبير عن السر الذي خبره.

لكن كل شيء ضيع هكذا. لقد عاش، أجل، لقد عاش، شعر بهذا لأول مرة. لكنه عرف الآن أنه قد عاش في سجن، كان عليه أن يرتب وضعه فيه، وسيغتاظ بعد وقت قصير ويكون عليه أن يتكلم لغة النصابين الوحيدة المتوفرة هذه ولا يبقى متروكا. سيكون عليه أن يلعق الحساء الذي طبخه، ويكون في اليوم الأخير فخورا أو جبانا، يصمت، يحتقر أو يتحدث بغضب الى الرب الذي لم يستطع أن يلتقي به هنا ولم يأذن له هناك، حيث كان لديه ما يفعله بهذا العالم، بهذه اللغة، وإلا لما كان إلها. لا يمكن أن يكون الاله في هذا الجنون، لا يمكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يكون فيه، يمكن أن يتعلق الأمر بأن هذا جنون، وأن هذا الجنون موجود وأنه ما من نهاية للجنون.

في شتاء نفس السنة كان قد سافر مع ليني إلى الجبال، إلى الراكس، في نهاية الاسبوع. نعم إنه يعرف ذلك بالضبط، الآن فقط يعرفه بالضبط. تجمدا، ارتجفا، تشبثا ببعضهما خائفين في ليل العاصفة. دفعا باللحاف الخفيف الرث إلى بعضهما بالتناوب، ثم سحباه نصف نائمين من بعضهما. قبل ذلك كان قد زار مول وائتمنه على كل شيء. كان قد هرع إلى مول لأنه ما كان يعرف ما العمل، لم يفهم شيئا من كل ذلك، لم يكن يعرف طبيبا، لم يكن يعرف نفسه وليني، لم يعرف النساء. كانت ليني صغيرة السن، كان صغيرَالسن، ومعرفته التي تظاهر بها أمامها كان مصدرها مول الذي كان يعرف كل شيء أو كان يدعي أنه يعرف كل شيء. مول هو الذي أتى بالأقراص، التي أمر ليني أن تبلعها مساء في كوخ التزحلق. تحدث مع مول عن كل شيء، ورغم أنه كان بائسا، جعله يشعر بالحسد منه. (عذراء، هذا ما لم يحدث لي في هذه المدينة بعد، تحدث بكل شيء، أيها الصديق القديم!) شرب مع مول وفي نشوته استنشق آراء مول. (وضع نهاية في الوقت المناسب. كان ثمة شيء واحد. أن ينسحب المرء من الفضيحة. أن يفكر بالمستقبل. الحجر حول الرقبة.) ولكن في ليلة الثلج فزع حتى من نفسه، من مول، من ليني التي لم يعد يريد أن يمسها، منذ أن عرف ماذا ينتظرها، لم يعد يريد أن يمس هذا الجسد العظمي الرفيع، هذه المرأة الطفلة التي لا رائحة لها، ولذلك نهض في منتصف الليل وهبط ثانية إلى غرفة الضيوف، جلس إلى منضدة فارغة وشعر بالاشفاق على نفسه،

حتى لم يعد وحيدا، حتى جلست إليه المتزحلقتان الشقراوان، حتى ثمل وصعد مع الاثنتين مثل محكوم عليه، في نفس الطابق الذي كانت فيه ليني تستلقي يقظة وتبكي، أو كانت نائمة وتبكي في النوم. حين كان مع الفتاتين في الحجرة وسمع نفسه يضحك معهما، بدا له كل شيء بسيطا وسهلا. كل شيء كان موجودا من أجله، كان يستطيع أن يطلب كل شيء، كان الأمر بالغ البساطة، فقط لم يكن لديه الموقف الصحيح، ولكن سيحصل عليه، الآن حالا ومنذ الآن وإلى الأبد. شعر أنه شريك في معرفة سر السهولة، الرخص، والإثم الخالي من الإثم. قبل أن يبدأ بتقبيل إحداهما كان قد تخلى عن ليني. قبل أن يتغلب على بقية من مقاومة وخجل ويمرر أصابعه في شعر الأخرى، كان الخوف قد تبدد. أجل لقد دفع بعد ذلك الثمن، حيث أنه لم يكن قادرا على سد أذنيه أمام الكلمات الحادة والجلجلة المجنونة التي حامت حوله. لم يعد يستطيع الرجوع ولم يكن قادرا على إغماض عينيه، دفع الثمن بعينيه عن كل شيء رآه هدية في الليالي التي كان قد اشتعل فيها الضوء. في الصباح التالي كانت ليني قد اختفت. حين عاد إلى فيينا، اعتكف عدة أيام، لم يذهب إليها، ولم يسمع ثانية عنها. بعد ذلك بسنوات دخل البيت الذي كانت تسكن فيه في المحافظة الثالثة، لكنها لم تعد تسكن هناك. لم يجرؤ الآن أيضا أن يبحث عنها، لو كانت لا تزال تسكن هنا، لمضى أيضا في الحال، لهرب. رآها أحيانا بعد منتصف الليل بوجه مترهل تمضي بمحاذاة الدانوب أو تدفع الطفل في عربة في حديقة المدينة (وفي مثل هذه الأيام تجنب حديقة المدينة) أو رآها دون طفل، لأن الطفل لم يستطع أن يعيش مطلقا، كيف كانت تقف كبائعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في المحل وتسأله عن رغبته قبل أن تنظر إليه. رآها أيضا سعيدة في زواجها من وكيل في الضاحية. ولكن لم يرها بعد ذلك ثانية. ودفن في داخله عميقا حتى أن صورة ليلة الثلج ، العاصفة، الثلج الذي ارتفع حتى النوافذ الصغيرة للأكواخ، الضوء الذي أشتعل فوق ثلاثة أجساد متشابكة وضحكة، ضحكة ساحرة وشعر أشقر، نادراً ما ارتفعت.

إذا هجرت الكنيسة في القرية، إذا سقط أحد ما في الحفرة التي حفرها لغيره، إذا تحقق المثل، وصحت التنبؤات حول تحول القمر ودورة الشمس ثانية، بكلمة واحدة، حين يصح الحساب مؤقتا، ويطير في الفضاء كل ما يفترض أن يطير، عليه أن يهز رأسه ويفكر في أي زمن يعيش؟

إنه مثل الجميع لم يتهيأ جيدا، إنه يعرف فقط الجزء الأصغر وكل واحد يعرف الأجزاء الصغرى مما يجري.

إنه يعرف صدفة انه توجد روبوتات لا تخطئ، ويعرف سائق قطارشوارع كان قد أخطأ مرة في موعد الانطلاق وحق اولوية المرور. ربما تخطئ النجوم والشهب، حين يحدث ما لم يكن متوقعا من تشتت الذهن والتعب ولأن محاضرة شعرية قديمة لضوئها استأثرت بانتباهها.

لا يريد أن يكون فوق، ولكن يناسبه أن تستمر الامور فوق، لأن فوق هو أيضا تحت، إذن أن تسير الأمور في مجاريها في كل مكان حيث لا يمكن وقفها، لا أحد يوقفها. لا يوقف المرء الأفكار، ولا توجد أداة لإطالتها. وإنه أيضا لا فرق في الأمر أن يطير المرء في الغرفة يسارا أم يمينا، إذ كل شيء يطير، الأرض تقريبا، ولو انه طيران في

طيران فانه أفضل أن يطير ويدور، فيعرف المرء بذلك كيف يدور بقوة وليس ثمة توقف في أي مكان، ليس في السماء المرصعة بالنجوم فوقك...

ولكن فيك، في الداخل، حيث لا تكاد ترتفع، ولا تشارك جدا في الطيران، حيث لا توقف أيضا، ولكن حساء لزج متعفن من أسئلة قديمة، لا علاقة لها بالطيران وقواعد الإطلاق، حيث تستطيع إدارة عجلة القيادة من الخلف فقط وبشكل لا يكاد يلحظ، حيث تصنع الأخلاق من القصة بكاملها، لأنها غير موجودة فيها، حيث تبحث عن أخلاق الأخلاق ولا يحدث ما تتوقعه

حيث يحفر أحدهم حفرة ويقع هو فيها، حيث تلتصق وتدور لكنك تبقى ملتصقا ولا تستطيع الحركة

لأنه ما من ضوءيشتعل أمامك هناك (وماذا ينفعك أن تعرف كل شيء عن سرعة الضوء؟)، لأنه ما من ضوء يشتعل أمامك، يضيء العالم، يضيئك ويضيء الحياة بأكملها واللا حياة والموت

لأنه لا يوجد هنا سوى العذاب، لأنك لا تجد في لغة النصابين الكلمة الصحيحة ولا تحل العالم

تحل المعادلة فقط، تلك التي هي العالم أيضا

العالم أيضا معادلة، تحل نفسها ثم يكون الذهب ذهبا والقذارة قذارة

ولكن لا شيء يساوي الذي فيك ولا شيء يساوي العالم فيك

لو استطعت أن تترك هذا، أن تخرج من تحفظك المعتاد حول الطيب والشرير ولا تتابع التحريك في حساء الأسئلة القديمة، إذا كانت لديك الشجاعة أن تدخل التقدم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليس فقط في ذاك الذي من الغاز إلى الكهرباء، من المنطاد إلى الصاروخ (التحسن المتواضع)

إذا تخليت عن الانسان، القديم، وقبلت جديدا، عندذاك

عندذاك، حين لم يعد العالم يتابع سيره بين الرجل والمرأة، كما هو الحال الآن، بين الحقيقة والكذبة، كما الحقيقة الآن والكذبة الآن

إذا ذهب هذا كله إلى الشيطان

إذا أعدت الحساب الذي تعول عليه، وحسبت حسابه

لو كنت طيارا، وقطعت أقواسك دون انحراف، لو أنك تعطي أخبارا فقط، تقارير، لا تعود تعرف قصة كل هذا معا، عنك وعن شخص آخر وثالث

عندذاك، حين تكون معافى ولا تعود مجروحا، منزعجا، مدمنا على النقاء والانتقام

إذا لم تعد تصدق اسطورة ولا تخاف في الظلمة

حين لا يكون عليك أن تجرؤ وتخسر أو تربح، وإنما تفعل

تضع اللمسة في النظام الكبير، تفكر في النظام، لو كنت في النظام، في الحساب، تفتحت في النظام التام

عندذاك، حين لا تعود تعتقد أن الأمور يجب أن تتحسن "في إطار الموجود" ، أنه لا يجوز للأغنياء أن يبقوا أغنياء وللفقراء أن يبقوا فقراء، أنه لا ينبغي أن يدان الأبرياء بعد وأن يُصدِر المذنبون الأحكام

إذا لم تعد تريد أن تقدم العزاء وتفعل المعروف ولا تطلب عزاء وعونا

إذا ذهبت الشفقة والوجع إلى الشيطان، والشيطان إلى الشيطان، عندذاك!

عندذاك، حين يمسك بالعالم هناك حيث يمكن الامساك به، حيث يحتفظ بسر القدرة على الدوران

حيث لا يزال عفيفا، حيث لم يضاجع ويدنس، حيث لم يستخدم القديسون أنفسهم من أجله ولم يترك المجرمون بقعة دم

إذا ما تحقق وضع جديد

إذا لم تعد العاقبة تُدخَل في العقل

إذا ما جاء أخيرا أخيرا

عندذاك

عندذاك انهضْ ثانية ومزقْ النظام القديم الشائن. ثم صر مختلفا، بذلك يتغيرالعالم ، بذلك يتغير الاتجاه، أخيرا! عندذاك ادخله!

حين يدخل هو في سنته الثلاثين، ويأتي الشتاء، حين تربط كماشة الجليد تشرين الثاني وكانون الأول ويتجمد قلبه، يغفو فوق عذاباته. يهرب إلى النوم، يهرب عائدا إلى اليقظة، يهرب مقيما ومسافرا، يمضي في جدب المدينة الصغيرة ولا يعود قادرا على الضغط على قبضة باب، لا يعود يوجه تحية، لأنه لا يريد أن يُرى ويُوجَّه اليه الكلام. يريد أن يزحف تحت الأرض مثل بصلة، مثل جذر، حيث يبقى دافئا. يقضي الشتاء مع أفكاره ومشاعره. يصمت بفم متقلص. يتمنى لو الغيت جميع التصريحات، الاهانات والاستبشارات التي كان قد نطق بها، أن ينساها الجميع ويُنسى من قبل الجميع.

ولكنه لا يكاد يثبت في الصمت، لا يكاد يظن أنه قد انسحب، لا يعود محقا. تدفع ريح باردة رطبة خلو باله حول الزاوية مرورا بكشك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للزهور فيه زهور للموتى وخضرة شتاء. وفجأة يمسك بزهور الثلج في يده دون أن يريد شراءها – هو، الذي أراد أن يذهب بيدين خاويتين! تبدأ أجراس الثلج ترن بجنون ودون صوت، ويذهب الى هناك، حيث ينتظره هلاكه. مليئا بالأمل كما لم يحدث له من قبل، بالأمل والرغبة في الخلاص من كل السنوات.

الآن فقط، بعد أن اعتبر نفسه هادئا وسعيدا، بعد أن مر بكل التجارب الممكنة، يأتي الحب الذي لا يصدق. لقبول الموت، والآلام الطقسية، التي تمضي كل يوم بشكل مختلف.

من هذه الساعة، حتى قبل أن تتعرف الزهور على متلقيتها، لم يعد سيد نفسه، وإنما كان مقضيا عليه ملعونا وقد سحبه لحمه معه إلى الجحيم. مضى طيلة ثمانية أيام وثم بعد القطيعة الأولى ومحاولة الانقاذ، مرة أخرى طيلة ثمانية أيام في الجحيم. لم يكن للتعاطف، لعمل الخير، للرضا مكان. لم تكن امرأة تبدو كيت وكذا أو هي كيت وكذا. لم يكن يستطيع أن يتلفظ باسمها، إذ لم يكن لها اسم، مثل السعادة نفسها، التي سلخت عنه دون مراعاة. كان في حالة عدم السيطرة على النفس لن يعود فيها يتذوق طعم فم، لا تدع فيها اشارة وقتا للتفكير في أخرى، يصبح فيها الحب انتقاما لكل ما هو قابل للاحتمال على الأرض. كان الحب لا يطاق. لم تكن تنتظر شيئا، لم تطلب شيئا ولم تهدِ شيئا. لم تدع نفسها تحاط بسور، ترعى وتزرع بالعواطف، وإنما تجاوزت الحدود وسحقت جميع العواطف.

لم يكن أبدا دون عواطف، دون تعقيد، وقد كان الآن لأول مرة خاويا، معصورا وأحس الآن فقط برضا أعمق كيف أن موجة ترفعه في فترات قصيرة وتضربه إلى صخرة وتتلقاه من جديد.

لقد أحب. كان متحررا من كل شيء، كل الصفات، الأفكار والأهداف، مسروقا في هذه الكارثة، التي لم يكن فيها طيب وخبيث، عادل وغير عادل، وكان متأكدا أنه لا يوجد طريق للاستمرار أو الخروج يستطيع أن يسميه المرء طريقا. بينما قام الآخرون في مكان آخر في كل الأمكنة بعمل، كانوا مشغولي البال بالأعمال، وقع هو في الحب تماما. استخدم من القوة أكثر مما كان يستخدمه في العمل والحياة. اتقدت نظراته، خلفه أصبح الوقت أثر حريق أسود، ومن لحظة إلى لحظة ظهر أكثر حيوية من كائن من نظام تام، يسود فيه عنصر واحد وحسب. أعد حقائبه، لأنه أدرك بحدسه أن الساعة الأولى من الحب كانت أكثر مما ينبغي، وبحث بما تبقى من قوته عن الهرب في الرحيل. كتب ثلاث رسائل. في الأولى إتهم نفسه بالضعف، في الثانية حبيبته، في الثالثة تخلى عن البحث عن ذنب وترك عنوانه. "أكتبي إلي رجاء على عنوان البريد في نابولي، في برنديزي، في أثينا، القسطنطينية . . . "

لكنه لم يبتعد كثيرا. أدرك أن كل شيء تهدم بالرحيل، أصبح لديه فقط مال أقل، كان قد أنفق آخر ما معه، ليدفع مقدمة ايجار الشقة مقدما، ليستطيع الاحتفاظ بها، أن يحتفظ بمكان رغم كل شيء. تسكع في ميناء برنديزي، باع ما لديه عدا بدلتين وبحث عن عمل في سوق العمل السوداء. لكنه لم يكن صالحا لمثل هذه الأعمال وهذه المخاطر التي يمكن أن يقع فيها الان. لم يعرف ما يفعل، نام ليلتين في العراء، بدأ يخاف الشرطة، العوز، الهلاك. نعم ربما هلك. عندئذ كتب رسالة رابعة: "لا تزال لدي الآن بدلتان تحتاجان إلى كوي، غليوني والقداحة التي أهديتنيها، لم يعد فيها بنزين. إذا لم تريدي رؤيتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل الصيف ، أو كنت لا تستطيعين الانفصال عن قبل الصيف. . . "
قبل الصيف!
"وإذا كنت ما زلت لا تعرفين، مع من ولماذا ولأي شيء، يا إلهي. . . ولكن إذا عرفت ذلك، ثم إنني ربما لم أكن أعرف، وسأشعر بأني في حالة تدعو أكثر للرثاء. لم أعد أستطيع أن أرى في أي طريق مخرجا. ما كان علينا أن ننجو. "

قبل الصيف! عندها يكون قد كفّر عن خطيئته هذه السنة، وكل ما استطاع إعداده من مادة ثلاثين سنة وَعَدَه أن يكون عاديا. اوه، هل ينبغي حقا أن نصبح شيوخا، قبيحين، متغضنين وخرفين، محدودين ومتفهمين. ليتحقق بذلك قدرنا؟ لست ضد الشيوخ، قال لنفسه، سيكون الحال كذلك معي أيضا في وقت قريب، وأحس منذ الآن بالقشعريرة التي ستمربها علي كل سنواتي. قريبا، لكني لا أزال أقف ضدها، لا زلت لا أريد التصديق أن هذا الضوء يمكن أن ينطفئ، شباب، هذا الضوء المشتعل إلى الأبد. ولكنه حين أصبح أقصر نفسا وبدأ يتذبذب جائعا، ولأن جميع المحاولات للعثور على عمل أو الذهاب أبعد في سفينة – كل هذه المغامرات التي لا معنى لها التي تناسب أنسانا أصغر سنا أو مجنونا أفضل – كانت قد أخفقت، كتب إلى البيت. كتب الحقيقة تقريبا وطلب من أبيه المساعدة أول مرة. شعر أنه بائس، حيث انه كان في الثلاثين، وكان في الماضي قد عرف دائما كيف يتدبر أموره. لم يكن في أي وقت ضعيفا وعاجزا كما هو الان. اعترف بانهياره وطلب نقودا. لم يكن له أن يحصل على نقود بأسرع من

ذلك. لم يكن قد ارتاح بعد من الانقاذ السريع حتى كان في طريق العودة. سافر عبر فينيسيا.

هناك وصل ساحة ماركوس في ساعة متأخرة من المساء، توجه إليها. كانت المنصة خالية. كان المشاهدون قد جُرفوا من على المقاعد، البحر قد أغرق السماء، وبحيرات الشاطئ مليئة بالوميض، إذ ألقت المصابيح وقناديل الشوارع ضوءها إلى الأسفل في الماء.

ضوء، مصابيح مضيئة، بعيدة عن الحثالة. تجول كالشبح. كان مندفعا منذ البداية للبحث عن حماية في الجمال، في الرؤية، وحين ارتاح داخلها، قال في نفسه: كم هو جميل! هذا جميل، جميل، إنه جميل.

دعه يكن جميلا هكذا دائما وخربني لأجل الجمال وما أعنيه بذلك، للجمال، لهذا "أكثر من ..."، لهذا النجاح. لا أعرف جنة أريد أن أدخلها بعد هذا الذي كان. ولكن هذه جنتي، حيث الجمال.

أعد انني لن أتأخر، لأن الجمال مريب، لم تعد ثمة حماية، وتمضي الآلام مرة أخرى بصورة مختلفة.

لم يعرف سابقا أبدا كيف يسافر المرء. صعد إلى القطارات بقلب خافق ونقود قليلة. وصل إلى المدن دائما في الليل، حين تكون دفقات الغرباء المتحوطين قد انتزعت جميع غرف الفنادق منذ وقت طويل لأنفسهم وأصدقاؤه قد ناموا. مرة قضى الليل بكامله متنزها، لأنه لم يجد سريرا. سافر على السفن بخفقان قلب أكبر فأمسك عن التنفس في الطائرات من الفرح. لكنه هذه المرة قرأ برنامج الرحلة، أعد حقائبه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجديدة، أخذ حمالا. كان له مكان محجوز وكراس عن الرحلة. كان يعرف أين يريد أن يغير القطار، ولم تنفد نقوده وهو لا يزال على رصيف المحطة، بعد أن يكون قد شرب قهوة. سافر كشخص له مكانة وكان هادئا حتى أن أحدا لم يكتشف خططه. كان ينوي أن ينهي حياة التجوال. أراد أن يعود. سافر عائدا إلى المدينة التي أحبها أكثر من سواها والتي كان عليه فيها أن يدفع الضرائب، وأجورالتعليم، أجور الدراسة وأشياء أخرى غير ذلك. سافر إلى فيينا – مع كلمة "الوطن" ضبط أعصابه رغم ذلك.

استلقى في الحجيرة، رأسه على معطفه المكور وتأمل. في هذا السرير سيطوف أوربا، سيفزع من الأحلام، يتجمد بردا، وحين يصل قريبا من جبال يعرفها، يشرد ذهنه يتذكر بخجل. أراد أن يعود إلى نقطة الإنطلاق، لأنه رأى ما يكفي من ذلك الذي يسمونه العالم.

أقام في فندق صغير في داخل المدينة قريب من البريد. لم يكن قد أقام في فيينا في فندق أبدا. كان هنا مستأجرا من الباطن دون الحق في استخدام الحمام أو معه، دون الحق في استخدام التلفون أو معه. لدى أقرباء، لدى ممرضة وحيدة، لم تحتمل رائحة تبغه، لدى أرملة جنرال، كان عليه أن يعتني بقططها وصبارها حين تسافر للنقاهة.

ظل مترددا طيلة يومين، لم يجرؤ أن يتصل بأحد. لم يكن ثمة من ينتظره، لم يكن قد كتب لبعض الناس فترة طويلة، آخرون لم يجيبوا على رسائله. شعر فجأة أن عودته أمر مستحيل لأسباب كثيرة. تماما مثلما يجوز لميت أن يعود. لا يجوز لأحد أن يستأنف ما كان قد قطعه. لا أحد هنا، قال لنفسه، ليس ثمة من يعوّل عليّ. ذهب ليأكل

في مطعم، لم يجرؤ أن يدخله سابقا، قرأ قائمة الطعام بألفة أكبر مما في مكان آخر، يعتقد أنه كان متأثرا بتلك العلاقة الغريبة التي افتقدها طويلا، لكنه لم يكن كذلك. عرف الأجراس القديمة المفتقدة في ناقوس الظهيرة. بقي في داخله هادئا هدوء الموت. التقى صدفة بمعارف عند الساقية، التقى بمزيد من المعارف، ومتشجعا من المصادفات المهمة، انضم إلى الجميع بحماسة وحرج. بدأ يروي بتردد، عن حياته التي عاشها في مكان آخر، وقطع كلامه ثانية، حيث أصبح واضحا لديه أن حياته في مكان آخراعتبرت من قبل الجميع خيانة، كان أفضل أن يصمت عنها.

إشترى خارطة للمدينة في مكتبة، للمدينة التي عرف فيها كل رائحة والتي لا يعرف عنها ما يستحق المعرفة. فتح الكتاب، جلس به على مصطبة مبتلة من المطر في متنزه المدينة، خشى أن يتجمد ثم مضى، متعقبا النجيمة إلى القصر الكبير الذي يضم مجموعة الأسلحة وفي متحف تاريخ الفن، إلى الغلوريتا وإلى الكنائس ذات الملائكة الباروكية. في المساء سافر مع غروب الشمس إلى جبل كالنبيرغ ونظر الى المدينة في الأسفل، من نقطة يُنصح بها. وضع يديه أمام عينيه وفكر: أن كل شيء غير ممكن! إنه غيرممكن أن أكون قد عرفت هذه المدينة. ليس هكذا.

في يوم آخر التقى أصدقاء.لم يعرف على الإطلاق عما كانوا يتحدثون، لكن جميع الأسماء التي ذُكرت كانت معروفة لديه، وحتى حين لم يستعِد الوجوه فإنه قد عرفهم جميعا. كانت الاتيكيتات باقية. أومأ برأسه حول كل ما سمعه، موافقا، لكن بدا له غير واقعي أن يكون كل هذا قد وُجد: أطفال جدد لصديقة قديمة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تغيير في المهنة، فساد، فضائح، عروض أولى، قصص حب، معاملات تجارية.

(خطتي: الوصول!)

إلتقى مول ثانية، الصبي العجيب، العبقري مول، الذي أعشى أبصار الجميع عشرين عاما، العقل النقي مول، الذي وضع دراساته التي أثارت الكثير من الإعجاب حول تحلل القيم والأزمة الثقافية تحت تصرف مكتب تحرير مسيحي لقاء شريحة خبز بالزبدة وقتها. لقد أصبح مول ساخرا، يحصل على أعلى المكافآت، يسرع من مؤتمر إلى مؤتمر، مول الذي يسخر منه الآخرون والذي يسخر هو نفسه من نفسه، مول الذي يعيش الآن في محادثات الموائد المستديرة من ثروته القديمة ولا يجد أن العالم يستحق خاطرة جديدة ذات قيمة. مول الذي يجب أن يذهب في المساء إلى السفير الفرنسي، ويتخذ في اليوم التالي باكرا دور المستشار في مؤتمر، مول الذي لا يزال الأكثر شبابا، المراوغ، ممثلا دون وجهة نظر وجهات نظر، مول من الجانب الحسن، مول الذي يحتقرالحياة غير المضمونة، حتى الأقل ضمانا ... مول ينصحه: "إبدأ لدينا." (يبلغ بلغة النصابين الكمال!) مول متفوقا، مول الذي يملك تفهما لكل شيء ولكل الناس الذين كان قبل سنوات يحتقرهم. مصافحات مول، مقتصدة ولكنها قوية. " ألورا، باي باي. لتكن بخير. فيما بعد. فكر في الأمر. أكتب، حين تحتاج شيئا. "

يودع مول، يرد على مصافحته المقتصدة باقتصاد ويذهب إلى مقهاه القديم الصغير. يندهش النادل، يعرفه، الرجل الصغير اللطيف

الحزين. ولا يكون عليه هذه المرة أن يتكلم، أن يصافح، أن يبذل جهدا، وفرت عليه العبارة المتعارفة، ابتسامة تكفي، يبتسمان لبعضهما ببلاهة، رجلان رأيا الكثير يمر عليهما، سنوات، ناس، سعادات، تعاسات، وكل ما يريد الرجل العجوز أن يعبر عنه – فرح، ذكريات – يريه بأن يضع أمامه بالضبط الصحف التي كان قد طلبها وقرأها في الماضي.

عليه أن يمسك برزمة الصحف، هو مدين للعجوز بذلك، إنه مدين له بذلك بسرور. أخيرا هو هنا فرح إلى حد ما ومدين دون مقاومة.

يبدأ بالقراءة دون قصد، العناوين الكبيرة، المحليات، الموضوعات الثقافية، موضوعات، منوعات، التقرير الرياضي. لا يلعب التاريخ أي دور، كان يمكنه أن يستبدل الجريدة خطأ بواحدة صادرة قبل خمس سنوات، إنه يقرأ فقط النبرة، الخط الذي لا يخطئه المرء، التنسيق، صورة الجملة. إنه يعرف كما لا يعرف في أي مكان آخر ماذا يتناول الموضوع فوق يسارا وتحت يمينا، ما يعتبره المرء هنا في الصحف حسنا وما يعتبره سيئا. فقط هنا وهناك تسللت حائرةً مفردةٌ جديدة.

فجأة يقف أمامه شخص، في مثل سنه، يحييه، لا بد أنه يعرفه، ولكن لا يخطر بباله، من يكون – أجل، إنه بالطبع مول، هذا الذي يقف هنا، وعليه أن يطلب من مول بسرعة وفرح أن يجلس إلى مائدته. مول الخجول، المتعطش إلى التعلم، الذي أراد مرة أن يبحث عما هو الأسلوب الجديد، والذي وجده الآن. مول، الذي يعرف اليوم، كيف يجب على المرء أن يسكن، يرسم، يكتب، يفكر ويؤلف الألحان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مصمم بشكل نهائي. الذي كان يوما متلمسا، باحثا، مُطْعَما معارف جيل سبقه، يهضم ويمضغ ما التهمه ثانية. نظام مول. مول الذي لا يخطئ. مول كقاض في الفن. مول الحقير السوقي العادي المنفر الذي لا رجاء فيه، مول الذي فقد لغته وبدلا من ذلك يستعرض بألفي ريشة طاووس من لغات أخرى. مول الذي لم يعد يستطيع قراءة الروايات، الذي لا يرى للقصيدة مستقبلا، مول الذي يدعو إلى إخصاء الموسيقى، والذي يريد أن يبعد الرسم عن خامة الرسم، مول مزبدا، لا يرحم، يساء فهمه، محيلا إلى عظَمة غوليلموس أبولينسيس (حوالي ١١٠٠) ... مول الذي يعتبر ايرهارد شون الأكثر إثارة للدهشة بين جميع الرسامين، مول المرشد. مول يصمت مغتاظا، حين يكون الحديث عن شيء معروف للآخرين، فقيرا مثل موظف صغير، كجامع نصوص مبهمة، كشخص جرى تجاهله. مول متحمسا مفكرا في أنه جرى تجاهله وتخطيه، ينتقم بمرارة كاوية، نظرات معاقبة، إلى تلك المرأة الجميلة، في يوم أحد، في ثمرة، في حظوة. مول الشهيد. مول يحتقره طبعا، صديق مول القديم، لأنه ينظر الآن في الساعة وينتبه إلى أن الوقت قد حان للذهاب. مول الذي يعيش وفق ساعة داخلية، تدير عقله المتشدد، تجعل شعوره بالعدالة يدق...

هكذا ينقضي يوم بتلامس الأقداح، وهو يحتمل ذلك في عالم أصبح فيه جميع الناس بالنسبة له أشباحا. إنه غير متصلب ضد الأشباح. هذا ما يريه اليوم التالي أيضا.

يلتقي مول ثانية، لأن العالم مليء بالأموال. لكنه لا يكاد يتذكر هذا المول. إنه ذلك الـ ألا زلت تعرف يامول. لا ينفعه ألا تكون لديه فكرة،

إذ أن مول يتذكر لحسن الحظ كل شيء. يذكره مول كيف أنه هو زميل مول في المدرسة، ثمل أول مرة، واستطاع فقط أن يُتأتئ أكثر مما كان عليه أن يتقيأ، وقد ذهب مول به يومذاك إلى البيت. لا يزال مول يتذكر اليوم الذي ارتكب فيه هو، صديق مول، حماقة كبيرة، مول الذي كان يمسك في يده سلبيات حياته، إخفاقاته، ما هو عادي لديه، قد أحتفظ بها في أمانة. مول النديم، مول الذي كان معه وهو ابن الثامنة عشرة في الجيش، مول الذي كان في الذكرى في "الجيش" ثانية، مول الذي يستخدم لغة تثير غثيانه، لأنه يريد حمله على الاعتقاد بأنه كان قد استخدم نفس اللغة. مول الأقوى، مول الذي أنقذه، هو الأضعف. مول الذي يسمي الأشياء بأسمائها، ماذا –صار– من– أمر– الدمية – الشقراء؟ زواج – هذا – ما كان – ينقصني! مول الذي يدفع الرشاوى، الذي يعرف ما حوله، الذي لا يدع أحدا يجعل أمامه الميم واوا، الذي يأخذ النساء كما يُردن أن يُؤخذن، والرؤساء الذين يستطيعون أن. . . الذي يعرف الأخوة ويعرف النساء. مول، الذي يعتبركل شيء سياسة، الذي يمكن أن تسرق منه السياسة، مول، المزعج كالقمل في الفراء، مول الذي يرى أن الحرب لم تخسر بعد، الحرب التالية على أية حال، الذي يعتبر الإيطاليين لصوصا سفلة، الفرنسيين مائعين، الروس بشرا أدنى، ويعرف كيف هم الانكليز في الواقع وكيف هو العالم في الواقع، صفقة، تجارة، فكاهة، خنزرة. مول: "لكني عرفتك من قبل، لا تتظاهر أمامي، لا تستطيع أن تخدعني!"

كيف يتجنب المرء مول؟ أي فائدة في أن تقطع رأس هذا الهيدرا مول، إذا كان ينمو له مكان الواحد عشرة رؤوس جديدة! حتى حين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا يتذكر أيضا، أنه أعطى مول حقا في واحدة وحسب من هذه الذكريات فهو يعرف كيف ستجري الأمور في المستقبل: سيظهر مول في كل مكان، من جديد دائما.

إبتعدوا، وإلا قَتلتُ! ابتعدوا عني!

في نهاية إحدى هذه الليالي، التي أصدر فيها الملتقى حكمه عليه وعلى آخرين، وقف مع ثلاثة هياكل وإمرأة شابة، كان قد طلب ودها سابقا وقتا من الزمن دون نجاح أمام مطعم صغير للسجق. كان قد رقص قبل ذلك مع هيلينا في بار، حرك فمه فوق كتفها. لم يستطع أن يحسم أمره ويقبلها في الفم، رغم أنه كان متأكدا أنه كان يستطيع هذه المرة أن يفعل. رغم ذلك ذهب معها بعد أن ودعا الآخرين إلى شقتها وشرب عندها القهوة. كانت لها طريقة في التحدث بغموض، اتخذها هو في الحال ثانية. يبدو أنه كان يتحدث معها على هذا النحو يومذاك، مستخدما درجات لونية وسطى، متدربا على الأنصاف، ازدواج المعاني، والآن لا يمكن أن يكون بينهما ما هو واضح ومباشر. كان الوقت متأخرا، كانت الغرفة مليئة بالدخان، وكان عطرها قد تبدد. قبل أن يذهب أخذها مترددا وخاويا من التعب، بين ذراعيه. كان مهذبا جدا، التفت وهو على مفصل السلم، رد مومئا بيده، كما لو كان يشق عليه أن يذهب. كان ذلك آخر رياء له، ونظر خلال ذلك إلى وجهها، الذي طرده قاسيا وسائرا الى الذبول. في الخارج كان النهار قد طلع أو ما بدا نهارا: ضباب مبكر. وصل الفندق متعبا وغير قادر علي النوم واستلقى في السرير مثل مريض، تناول قرصين ونام أخيرا. لم يستيقظ إلا وقد حل المساء ثانية، دافئا وفي فمه طعم باهت نشأ من

طول النوم والذي ذابت فيه جميع اللقاءات في المدينة. حزم حقائبه، رمى فيها قمصانا، فراشي، أحذية مختلطة ببعضها، كما لو كان مستعجلا جدا وكما لو لم يعد التنظيم مهما. في المحطة فقط بحث عن قطار وهو يضع سبابته على جدول مواعيد الانطلاق.

وقع على أسوأ القطارات، قطار بطيء، يتوقف في كل محطة، ثم كان عليه أن يقضي نصف الليل جيئة وذهابا في الليل الشتائي في محطة ريفية، كانت صالة الانتظار فيها مغلقة، يدق أقدامه على الأرض ويصفق يديه. كان يود لو جلس على عربة حقائب ونام إلى الأبد. ولكن لم يكن البرد كافيا، ولم يكن متعبا بدرجة كافية. كان شعوره بأنه متروك غير كاف لمثل هذه النهاية. في القسم التالي من الرحلة استمع إلى قصص مسافر آخر عرض له نسبة الذين يعتقدون أنفسهم نابليون من مجموع المجانين، وكم يعتقدون أنهم الامبراطور الأخير، ليندبيرغ، هتلر، أو غاندي. أيقظ فيه إهتماما فسأل عما إذا كان المرء يستطيع أن يعتبر نفسه نفسه دون أضرار أو أن ذلك لا يكون أيضا جنونا. نفض الرجل وهو طبيب نفسي على الأرجح غليونه، غير المملوء وتحدث عن نسب أخرى وعلاجات لهذه أو تلك النسب. نكش بمنظف الغليون أنفه، وقال: "أنت ، على سبيل المثال، أنت تعاني من.... أنت تعتبر ذلك بالغ الأهمية ... إننا نعاني جميعا بالطبع من ذلك، إنه ليس شيئا فريدا."

حمله القطار التالي عبر ليلة مرعبة – قفزت العجلات في المحطات الكبيرة إلى سكك أخرى وتدحرجت ممتلئة سخطا، بينما جاهد هو من أجل الهواء محصورا مع عشرة أشخاص في كابينة، نظر جانبا حين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أرضعت المرأة الكهلة إلى جانبه طفلها، حين بصق زوجها الشاحب في الجهة المقابلة بعد كل نوبة سعال، وأوشك على الجنون لأن رجلا آخر أمام الباب كان يشخر. اختلطت أقدام وسيقان الجميع، كان الكل يكافح من أجل خمسة سنتمترات من المكان ويحاول أن يزيح الآخرين. فجأة اكتشف كيف أنه أيضا توسع بمرفقيه، ليعيد المرأة ذات الطفل إلى موضعها. كان ثانية وسط ناس حقيقيين، كافح بقوة من أجل موقعه، من أجل مكانه، من أجل حياته. أغفى مرة فترة قصيرة. في الحلم سقطت المدينة فوقه بكنيسة كارل اولا، بقصورها وأقسام كاملة من الشوارع، يبدو أن الحلم استمر ثانية واحدة، إذ أنه أفاق ميتا من الذعر، من ضربة على الرأس. عرف على الفور دون أن يكون عليه أن يفكر أن القطار كان قد اصطدم بآخر. كانت حقيبة قد قفزت من الشبكة وأصابته. عرف أيضا في الحال أن الاصطدام لم يكن كبيرا، فلم يكن قد حان الوقت الذي يمكن أن يحدث فيه له شيء. لا انجاز مبكر. لا رحيل مبكر. لا مأساة ينفطر لها القلب. بعد بضع ساعات أمكن متابعة السفر، كان الجميع مرتاحا كما بعد نوبة قلبية خفيفة. لم يُصَب أحد بجروح، الأضرار طفيفة. حاول أن يتذكر الحلم عن المدينة الذي أحدثه اصطدام القطارين أو أنه سبق الرجة، وشعر كما لو وجب عليه الآن ألا يرى المدينة ثانية، ولكنه سيتذكر منذ الآن وإلى الأبد كيف كانت وكيف عاش فيها.

مدينة دون ضمان!

لا تدعني أتحدث عن مدينة ما، وإنما عن المدينة الوحيدة التي

دخلت في شبكتها مخاوفي وآمالي خلال سنوات كثيرة. لا زلت أراها مثل صيادة سمك كبيرة مُهمِلة تجلس عند التيار الكبير الرصين وتسحب فريستها الفضية العفنة. فضي هو الخوف، عَفِن هو الأمل.

عند الماء الأسود للدانوب والسماء الكستنائية فوق قباب خضر بلون الفطر:

دعوني أحضر شيئا من عقلها من الغبار وأسلم لا عقلها للغبار!

ولتأت الرياح بعد ذلك وتكنس قلبا كان هنا معتدا بنفسه ومهانا!

مدينة بضاعة الشواطئ!

حيث يجرف اليها الماء بلدانا وبضائع من بلدان أخرى: أغطية السلوفاكيين للمناضد، المطرزة بغرزة الصليب و شوارب سكان مونتينيغرو التي بلون القار، سلال البلغاريين للبيض، ولكنة معاندة من هنغاريا.

مدينة قمر الاتراك! مدينة المتاريس!

حجارة مكسرة بهذه الكثرة، جدران مجوفة بهذه الكثرة توجد هنا، حتى أن المرء يسمعها تهمس من زمان بعيد، من مسافة بعيدة.

آه يا جميع الليالي، التي حلت في فيينا، ليالي مرة كثيرة! وكل الأيام التي ألقيت إليك مع الأزيز المنبعث من المدارس ومستشفيات المجانين، دورالعجزة وغرف المرضى، هُوّيت قليلا وبُيِّضت نادرا، كل الأيام ترف عليها زهور الكستناء شديدة الخجل! آه، جميع النوافذ، التي ما فُتحت أبدا، كل الأبواب، كما لو كان لا يمكن الخروج من باب، كما لو لم تكن السماء موجودة!

مدينة أخيرة! كما لو لم يكن ثمة رصيف للخروج!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مدينة مستشارين منسحبة في الدواوين. ما من كلمة شديدة في الغرف الأمامية، دائما مكدِّرة. (ماطل، لا ترفض).

إنه السؤال عما إذا كان على المرء أن يحب ما لا يريد أن يحب، لكن المدينة جميلة وقد صعد شاعر متكلف إلى برج سانت شتيفان ومجدها.

كل شيء هو مسألة تنازل، مجاراة. لكن البعض شرب مُصرّا كأس السم.

النميمة البغيضة متحالفة مع القلب الرقيق.

لكن للبعض قلبا بعضلات وحشية متليِّفة وخطابا كان يليق بروما. كانوا عدوانيين، مكروهين ووحيدين. لقد فكروا بدقة، حافظوا على نقائهم واحتفظوا بالعذابات فيما بينهم.

توفرت للبعض كلمات أرسلوها مثل الحباحب في الليل القادم وعبرالحدود. وكان لواحد جبين التهب أزرق وتراجيديا بين أزمنة البكم.

مدينة اكوام الحطب التي ترمى فيها أروع الموسيقى في النار، يُبصق عليها ويشتم فيها ما يبدر عن الكفار الصادقين والمنتحرين عديمي الصبر، المكتشفين الجذريين وكل ما ينتسب الى العقل الأكثر استقامة.

مدينة الصمت! مفتشة خرساء لملاحقة الملحدين بابتسامة غير ملزمة.

– لكن النحيب الصادر عن حجارة الرصيف المتفككة، حين يترنح فوقها أحد ثملا، شابا، مبتذلا من الصمت، مقتولا من الابتسام. إلى أين يمضي المرء بصرخة متعالية من مأساة؟!

مدينة الممثلين الهزليين! مدينة الملائكة الماجنة وحفنة جان حانَ وقت رهنها.

مدينة خجول في حديث بين شخصين، برغم خجول في حديث الغد.

مدينة المنكتين، المتزلفين، الشركاء في الجريمة. (يُضَحّى بحقيقة من أجل طرفة، وما قيل بشكل منمق فنصفه كذبة)

مدينة الطاعون ذات رائحة الموت!

عند الماء الأسود للدانوب والزيت المتسخ في المدى:

دعوني أفكر في بريق يوم شهدته أيضا، أخضر وأبيض ويقظا، بعد مطر ساقط، حين غُسِلت المدينة ونظفت،

حين تفرعت الشوارع من مركزها، من قلبها القوي، مّنظَّفة،

حين شرع الأطفال يتمرنون على مقطوعة موسيقية جديدة في جميع الطوابق،

حين عادت قطارات الشوارع من المقبرة المركزية بجميع الأكاليل وباقات زهرة النجمة من العام الماضي،

من الموت، من النسيان!

صمت عن نهاية الرحلة. إنه لم ينهها، وإنما أراد أن يختفي في النهاية، دون أثر، لا يمكن العثور عليه. لقد وجد أخيرا الوسيلة لأن يُعطَى مهمة في السر، كانت ستوصله إلى اندونيسيا. في اندونيسيا اندلعت الحرب حين أراد أن يقطع تذاكر الطائرة. أصبحت المهمة لاغية، وهو لا يريد أن يسعى من أجل أخرى، – من أجل أن يصل إلى بلد بعيد آخر – ، اعتبرها إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يذهب. بقي في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

روما. فكر كما يلي: الذهاب معها، تلك التي لا يجرؤ على ذكر اسمها. يهرب معها، لا يعود أبدا إلى أوروبا، يعيش معها ببساطة حيثما أشرقت الشمس ، حيثما وجدت ثمار، يعيش مع جسدها، دون علاقة أخرى وبعيدا عن كل ما كان حتى الآن. يعيش في شعرها، في زاوية فمها، في حضنها.

لقد أحب المطلق دائما والانطلاق إلى هناك، وقد كانت "هي" الأنسان الأول، بقدر ما يتعلق الأمر بالآخر، الذي أيقظ فيه رغبة أن ينطلق وأن يأخذه معه إلى هناك. في جميع اللحظات، إذ طافت بذهنه هذه الغاية، حيث كانت قريبة المنال، وقع فريسة الحمى، لم يعد قادرا على الكلام، تحرق إلى أن يجد اللغة لذلك. تحرق إلى أن يستطيع أن يخطو خطوة إلى هناك، إلى حيث توجد بالنسبة له هذه الغاية وأراد أن يتصرف بعد ذلك دون مراعاة.

ولكن ثمة من دخل عليه دائما، جاءه برسالة، ذكره منذرا بواجب كان قد أخذه على عاتقه سابقا، بمريض، بقريب، بمسافر أو بموعد لعمل. أو تعلق به أحد في اللحظة التي أراد فيها أن يلقي بجميع القيود مثل غريق.

"دعني في سلام، دعني في هدوء!" قال ذلك ومضى إلى النافذة، كما لو كان ثمة ما يستحق أن يرى في الخارج.

"لكن يجب أن نحسم الأمر هذا اليوم. من الذي بدأ يومذاك؟ من الذي قال أولا...؟"

" لا أدري، ما الذي كنت قد قلته. دعيني أخيرا في هدوء!"

"ولماذا أتيت إلى البيت متأخرا، لماذا تقدمت من الباب بهدوء؟ ألم يكن لديك شيء تريد أن تخفيه؟ أو ربما أردت أن تخفي نفسك؟"

"لم أرد إخفاء شيء. دعيني!"

"ألا ترى أنني أموت، أنني أبكي؟"

"حسنا، أنت تبكين، أنت تموتين. لماذا في الواقع؟"

"إنك فظيع وأنت لا تعرف ما تقول."

كلا، إنه لا يعرف هذا. لقد التمس كثيرا السلام، ولكن أيضا كثيرا جدا، دون أن يعرف لماذا، فقط ليستطيع أخيرا أن يستلقي، ليستطيع أن يطفئ الضوء، أن يوجه نظره في الظلام إلى ذلك البعيد، الذي صرفه المرء عنه.

دعوني في سلام، دعوني هكذا مرة في سلام! يريد أن يسمح له أن يفكر في ذلك على الأقل، لماذا تخلى عن أن يختفي، أن يجعل نفسه غير مرئي. إنه لا يعرف. ولكن سيتضح له الأمر.

مثل جميع المخلوقات لا ينتهي إلى نتيجة. لا يريد أن يعيش مثل أي شخص ولا مثل شخص متفرد. يريد أن يجاري الوقت ويقف ضده. يستهويه أن يشيد بوضع قديم مريح، أن يدافع عن جمال قديم، عن رق، عن عمود. ولكن يستهويه أيضا أن يستخدم الأشياء الحالية ضد القديمة، مفاعلا، مولدة طاقة، مادة صناعية. يريد الجبهات ولا يريدها. يميل إلى فهم الضعف، الضلال والغباء، ويريد أن يكافحها، أن يشجبها. يتحمل ولا يتحمل. يكره ولا يكره. لا يستطيع أن يتحمل ولا يستطيع أن يكره.

هذا أيضا سبب لأن يغيب.

في مذكراته لهذه السنة كُتِبت هذه الجمل:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"أحب الحرية، التي تنتهي حقا في كل ما هو ثابت، وأرغب في أراض سود وكوارث من ضوء. ولكنها هناك أيضا ستنتهي، أعرف ذلك."

"وإذ لا توجد ممنوعات طبيعية وتكليفات طبيعية، أي أنه ليس فقط مسموحا به ما يعجب المرء وإنما أيضا ما لا يعجبه (ومن الذي يدري ،ما يُعجب!) ،فان عددا لا يحصى من القوانين والنظم الأخلاقية ممكن. لماذا نحدد أنفسنا ببضعة نظم مختلطة، لم يصبح أحد سعيدا بفضلها"

"في ميزانية البشرية للأخلاق، التي تدار مرة بشكل اقتصادي ومرة بشكل غير اقتصادي ثمة صلاح وفوضى في نفس الوقت. ترتمي الممنوعات دون تنظيم هنا وهناك مثل الكشف عن الحقائق."

"لماذا أفلحت بضعة أنظمة قليلة فقط في السيادة؟ لأننا نتمسك بإصرار بالعادات القديمة، بسبب الخوف من التفكير دون لافتات للممنوعات ولافتات للوصايا، خوفا من الحرية. الناس لا يحبون الحرية. خاصموها حيثما ظهرت.

"أحب الحرية، التي كان علي أنا أيضا أن أخونها ألف مرة. هذا العالم المهين هو نتيجة رفض متصل للحرية."

"الحرية التي أعنيها: السماح، لأن الله لم يجبر العالم على شيء ولم يكد يفعل شيئا من أجل أن يؤسسه مرة أخرى من جديد وينظمه من جديد. السماح بإلغاء جميع الأشكال، الأخلاقية أولا، لتستطيع بذلك جميع الأشكال الأخرى الانحلال. القضاء على كل عقيدة، وكل نوع من العقائد، للقضاء على أسباب كل الصراعات. التخلي عن كل نظرة موروثة وكل وضع موروث: عن الدول، الكنائس، المنظمات، أدوات السلطة، النقود، الأسلحة، التربية.

"الإضراب الكبير: توقف العالم القديم في اللحظة الراهنة. ترك العمل والتفكير من أجل العالم القديم. إقالة التاريخ، ليس لصالح الفوضى وإنما لصالح تأسيس جديد. . "

"أحكام مسبقة – أحكام عنصرية مسبقة، أحكام طبقية مسبقة، أحكام دينية مسبقة وكل الأحكام الأخرى – تبقى سبة، حتى حين تختفي من خلال التعليم والتبصر. إلغاء الظلم، الاضطهاد، كل تخفيف للتشدد، كل تحسين لوضع لا يزال يمسك بسبة الماضي. يحتفظ بالعار من خلال استمرار وجود الكلمات، يصبح من خلالها في كل وقت ممكنا. "

"ما من عالم جديد دون لغة جديدة. "

كان الربيع قد حل خلال ذلك. بركة ضوء تسبح في غرفته. في ساحة صغيرة أمام البيت يصيح الأطفال مبتهجين، أبواق السيارات، الطيور. يجب أن يرغم نفسه على متابعة كتابة الرسالة. " أيها السادة المحترمون. . . " لايكتب للسادة، الحقيقة هي أنه يكتب بسبب اللا مبالاة، الانهاك ولأنه لا يعرف ما هو أفضل، يريد الذهاب إلى كرويسكريشن. آه، ماذا يعني "الزحف إلى الصليب" ! لم تعد ثمة كلمات كبيرة وحسب! عائدا إلى عرضكم الودود . . . "أليس هو عرضا ودودا" سيكون مناسبا، ولا يوجد حقا سبب للاعتقاد أنه أفضل مما ينبغي لذلك.

"سأكون تحت تصرفكم في الأول من الشهر كما ترغبون. آمل. . . "

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنه لا يأمل شيئا على الإطلاق. إنه لا يفكر. سيكون لديه وقت كاف للتفكير في المكان الذي سيكون فيه والعمل الذي سيقوم به. إنه موافق على جميع الشروط ولا يضع هو شروطا. يغلق الرسالة بسرعة دون تردد ويرسلها. يحزم أشياءه القليلة، بضعة كتب، منافض السجاير، الأواني القليلة، يستدعي وكيل البيت يراجع معه المحتويات ويغادر الشقة التي لم يشعر فيها بأنه في منزله. ولكن لا يزال لديه وقت حتى الأول من هذا الشهر ويبدأ لذلك برحلة معقدة، ببطء واستمتاع، عبر الأرياف الايطالية. تنتابه في جنوا الرغبة في التجول كما فعل في شبابه، كما في فترة ما بعد الأسر، حين بحث، سائرا على القدمين، عن طريق العودة من الحرب التي سافر إليها بقطار سريع. يرسل حقيبته قبله ويمضي في الريف، بين حقول الرز المستيقظة، نحو الشمال، ولأنه يكاد يموت تعبا في المساء الثاني من الإجهاد غير المعتاد يفعل ما لم يفعله منذ زمن طويل. يقف على جانب شارع السيارات إلى ميلانو ويحاول أن يوقف سيارة. يحل الظلام ، لكن أحدا لا يريد أخذه معه، حتى يشير مرة أخرى من بعيد إلى سيارة وقد فقد الأمل. تقف هذه السيارة، بهدوء، دون صوت تقريبا. يبلِّغ الرجل الجالس أمام المقود والذي كان وحده، رغبته محرجا، يشعر أنه متسخ مثل متشرد ويجلس لذلك وجلا إلى جانبه. يجلس طويلا صامتا ويختلس النظر أحيانا إلى الرجل من الجانب. لا بد أن يكون في مثل عمره. الوجه يعجبه، تعجبه اليدان الموضوعتان على المقود بارتياح. تمضي نظرته أبعد وتستقر على عداد السرعة، حيث ترتفع الأبرة بسرعة من ١٠٠ إلى ١٢٠ ثم إلى ١٤٠. لا يجرؤ على القول أنه يفضل السير ببطء، وأنه

أصبح فجأة يخاف كل سرعة. إنه ليس في عجلة للوصول إلى حياة منظمة.

يقول الرجل الشاب فجأة: "إنني عادة لا أحمل أحدا معي. ثم وكأنه يريد أن يعتذر عن سياقته: "يجب أن أكون قبل منتصف الليل في مركز المدينة."

ينظر ثانية الى الرجل الذي لا يلتفت، ينظر إلى الأمام حيث تفكك الأضوية الكشافة العقدة السوداء للغابة، أعمدة، أسوارا وأدغالا. يشعر أنه الآن أكثر هدوءً وللغرابة مرتاح، لكنه يود أن يتكلم ويشعر أن عيني الرجل فاتحتي اللون اللتين مرتا عليه بسرعة وحسب موجهتان إليه ثانية.

نعم، لا بد أن تكونا فاتحتي اللون، أرادها هكذا، وأراد أن يتكلم ويسأل الرجل مثلا عما إذا كانت هذه السنة صعبة له أيضا وما العمل، وكيف ينظر المرء إلى كل الأشياء. بدأ يُجري هذا الحديث مع الرجل في سره، بينما اجتمعا جالسين على المقاعد الأمامية المنخفضة مثل تلميذين يتلقيان درسا، محمولين من الليل، ليل كبير بدت فيه جميع الأشياء كبيرة وغريبة.

ظهرت أمامهما شاحنة، اقتربا منها بسرعة، انعطفا في قوس خارجا، ولكن حين كانا بمحاذاتها، انعطفت الشاحنة أيضا خارجا لتعرج على طريق جانبي.

طارا أمتارا قليلة أمام جدار واصطدما به. حين استعاد وعيه لاحظ أنه قد رُفِع، فقد الوعي ثانية في الحال، أحس أحيانا برجّات خفيفة، خمن للحظات ما حدث له: لا بد أنه كان في مستشفى، على سرير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

متنقل، أعطيت له إبرة، تحدث المرء عنه كما لو لم يكن موجودا. لم ينقشع الظلام في رأسه إلا حين كان في غرفة العمليات. كانت الاستعدادات على قدم وساق، كان طبيبان يلبسان كمامتين يجهدان نفسيهما أمام منضدة، اقتربت طبيبة منه، أمسكت بذراعه، مسحت عليها، شعر بالدغدغة قليلا، كان ذلك مريحا. فجأة تذكر أن الأمر جاد، وفكر بهدوء تماما أنه لن يستيقظ إذا ما أغرقوه في هذا النوم. أراد أن يقول شيئا، بحث بلسانه عن صوت وكان سعيدا حين أخرج بضع كلمات معروفة لديه. طلب ورقة وقلم رصاص. أتته ممرضة بهما، وأمسك الان بقلم الرصاص بينما بدأ التخدير يصنع مفعوله ببطء، وضعه على الورقة التي أمسكت الممرضة تحتها بما يسندها. كتب بخط متقطع حذرا: "والديّ العزيزين..." ثم شطب الكلمتين بسرعة وكتب: "حبيبتي..." توقف وفكر متعبا. أعاد الورقة وقد كورها إلى الممرضة وهز رأسه، ليُفهِمها أن لا فائدة في ذلك. إذا لم يستيقظ فإن مثل هذه الرسائل أيضا لا يعود لها معنى. استلقى بأجفان ثقيلة هنا وانتظر، واهنا تماما، فقدانَ الوعي.

لقد حطمت هذه السنة عظامه. إنه يستلقي ببضع ندبات محتقنة بلون أزرق- أحمر فني في المستشفى ولا يعد الأيام، إلى أن ينتزع عنه درع الجبس الذي يأمل تحته بالشفاء. الشخص المجهول - لقد عرف هذا الان - كان قد مات في الحال. إنه يفكر فيه أحيانا ويحدق في سقف الغرفة. يفكر فيه كما يفكر في شخص مات بدلا منه، ويراه أمامه بهذا التوتر الكبير في الوجه، اليدين الشابتين المثبتتين على المقود، يراه في منتصف ظلام العالم يسرع ويحترق هناك.

لقد حل أيار. تُستبدل الزهور في غرفته يوميا بأخرى نضرة وأزهى لونا. تسدل الستائر اللفافة بضع ساعات في الظهيرة، ويحافظ على العطر في الغرفة.

لو استطاع أن يرى الآن وجهه، لرأى وجه إنسان شاب، ولن يشك أيضا في أنه شاب. إذ أنه أحس فقط أنه عجوز جدا، حين كان أصغر سنا بكثير، كان حزينا، طوى كتفيه لأن أفكاره وجسده أقلقته كثيرا. حين كان فتيا جدا، تمنى أن يموت موتا مبكرا، لم يرد أن يعيش حتى ثلاثين سنة. لكنه يتمنى الآن لنفسه الحياة. يومذاك تأرجحت في رأسه علامات الوقف من أجل العالم فقط، ولكن الآن تُقبل عليه الجمل الأولى التي يأتي بها العالم. كان قد اعتقد يومذاك أنه يستطيع أن يفكر في كل شيء إلى النهاية، ولم يَكد يلاحظ أنه لم يخطُ سوى الخطوات الأولى إلى حقيقة، لا تدع المرء يكتشفها حالا وإلى النهاية والتي حجبت عنه الكثير.

بقي زمنا طويلا أيضا لا يعرف ما كان عليه أن يعتقده وما إذا لم يكن شائنا على الإطلاق أن يعتقد شيئا. الآن بدأ يؤمن بنفسه وهو يفعل شيئا أو يعبرعن نفسه. وثق بنفسه. بالأشياء التي لم يكن عليه أن يقدم لها البراهين، للمسامات في جلده، لطعم البحر المالح، للهواء المثمر، وببساطة وثق أيضا بكل شيء لم يكن عاما.

حين نظر أول مرة قبل خروجه من المستشفى بوقت قصير في المرآة، إذ أراد أن يمشط شعره بنفسه، ورأى وقد اعتدل في سريره نفسه مألوفا وفي نفس الوقت أكثر شفافية بعض الشيء أمام كومة الوسائد خلفه ، أكتشف وسط الشعر الكستنائي الملتصق شيئا أبيض لامعا. تحسسه،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قَرّب المرآة: شعرة بيضاء! دق قلبه بعنف. نظر إلى الشعرة ببلاهة وثبات.

في اليوم التالي تناول المرآة ثانية، خاف أن يجد مزيدا من الشعرات البيض، ولكن كانت هناك الواحدة فقط، وبقي الأمر كذلك.

أخيرا قال في نفسه: إني أعيش، وأرغب أن أعيش طويلا. الشعرة البيضاء، هذا البرهان الواضح للألم وللشيخوخة الأولى، كيف استطاعت أن تُدخل فيّ الذعر؟ ينبغي أن تبقى، وإذا ما كانت قد سقطت بعد بضعة أيام، ولم تظهر واحدة بسرعة سأحتفظ بمذاقها ولا أشعر بالخوف أبدا من التحول الذي أعيشه بكل جوارحي.

إنني أعيش!

سيشفى عما قريب.

سيكون قريبا في الثلاثين. سيأتي اليوم، ولكن لن يضرب أحد على الصنج ويعلن عنه. كلا، لن يأتي اليوم – كان قد أتى، متضمّنا في كل أيام هذه السنة التي تجاوزها بجهد ومشقة وللضرورة. إنه مهتم بحيوية بما سيأتي، يفكر في عمل ويتمنى أن يستطيع الخروج عبر البوابة في الأسفل، بعيدا عن المصابين، الضعفاء والمحتضرين.

أقول لك: إنهض واذهب! لم يكسر لك عظم.

* قميص القسر هي رداء بأكمام طويلة كان يصنع من قماش أشرعة السفن، لإلباسه للمجانين لتقييد حركتهم، حيث يمكن عقد الكمّين خلف الظهر واستخدامها كقيد.

كل شيء

حين نجلس الى المائدة كأننا متحجرون، أو نلتقي مساء عند باب المنزل لأن كلانا فكر في نفس الوقت في إقفاله، أشعر أن حزننا مثل قوس يصل من إحدى نهايتي العالم إلى النهاية الأخرى، – من حنا إلي – ، ويُعد أمام القوس المتوتر سهما يجب أن يصيب السماء الساكنة في القلب. حين نجتاز المدخل عائدين تتقدمني هي خطوتين، تمضي إلى غرفة النوم، دون أن تقول "ليلة سعيدة" وأهرب أنا الى الغرفة، الى منضدة الكتابة، لأحدق أمامي، رأسها المطأطئ أمام عيني وصمتها في أذني. أتراها تستلقي وتحاول النوم أم أنها يقظة تنتظر، ماذا تنتظر؟ فهي لا تنتظرني.

حين تزوجت حنا، لم يحدث ذلك من أجلها بقدر ما كان من أجل الطفل الذي تنتظره. لم يكن أمامي خيار. لم يكن علي أن أتخذ قرارا. كنت متأثرا لأن شيئا يتهيأ، كان جديدا، وقد انحدر منا، ولأن العالم كما بدا لي يزداد، مثل القمر الذي ينبغي على المرء أن ينحني أمامه ثلاث مرات حين يظهر من جديد ويقف رقيقا وشفاف اللون في بداية مساره. كان ثمة لحظات من الغياب لم أكن قد عرفتها سابقا. حتى في المكتب – رغم أن لدي أكثر مما ينبغي لأعمله – أو خلال مؤتمر، كنت أنسحب فجأة إلى هذه الحالة، التي كرست فيها نفسي للطفل فقط، لهذا المجهول، الكائن النمطي، وأمضي في مواجهته بكل أفكاري حتى الجسد الدافئ عديم الضوء الذي يستلقي فيه.

غيّرَنا الطفل الذي كنا ننتظره، أصبحنا لانكاد نخرج وأهملنا أصدقاءنا، بحثنا عن منزل أوسع، رتبنا أمورنا بصورة أفضل وبشكل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نهائي. ولكن من أجل الطفل الذي انتظرته بدأ كل شيء يتغير بالنسبة لي. خطرت لي أفكار دون توقع، كما يصل المرء ألغاما، لها قوة تفجير كفيلة بأن تجعلني أتراجع خائفا، لكني تابعت السير دون إحساس بالخطر.

أساءت جنا فهمي. لأنني لم أستطع أن أقرر إن كان ينبغي أن تكون لعربة الطفل عجلات كبيرة أم صغيرة، بدوتُ غير مكترث. (لا أعرف بالفعل. كما تريدين تماما. أجل. إني أسمع.) حين وقفت معها في المحلات التجارية حيث بحثَتْ عن قبعات، جاكيتات وحفاظات، بين الوردي والأزرق، ترددتْ بين الصوف الاصطناعي والصوف الحقيقي، اتهمتني بأني غير مهتم بالأمر. ولكني كنت مغاليا في اهتمامي.

كيف علي أن أعبر عما يدور في داخلي؟ كان حالي مثل حال انسان بدائي يجري تنويره فجأة بأن العالم الذي يتحرك فيه، بين الموقد والمأوى، بين شروق الشمس وغروبها، بين الصيد وتناول الطعام، هو أيضا العالم الذي عمره ملايين السنين والذي سينتهي، الذي يملك مكانا ضئيلا في المنظومة الشمسية، الذي يدور بسرعة كبيرة حول نفسه وحول الشمس في نفس الوقت. لقد رأيت نفسي دفعة واحدة ضمن علاقات جديدة، أنا والطفل الذي سيأتي دوره في الحياة في وقت معين، بداية أو وسط نوفمبر، تماما كما كان الحال معي مرة، تماما كما كان الجميع قبلي.

يجب على المرء فقط أن يتصور حقا. هذا الأصل كاملا! مثل الأغنام السوداء والبيضاء قبل النوم. (أسود، أبيض، أسود، أبيض وهكذا.) تصورا يجعل المرء بليدا عما قريب، غير يقظ، ويقظا بشكل يائس بعد وقت قصير. متبعا هذه الوصفة لم أستطع النوم أبدا. رغم أن حنا التي حصلت عليها من أمها تقسم أنها أكثر تهدئة من الأقراص المنومة.

ربما كان مهدئا للكثيرين، أن يفكروا في هذه السلسلة: أنجب سام أرفكشاد، حين أصبح ارفشكاد في الخامسة والثلاثين أنجب شالحا، وشالح أنجب عابرا، وعابر فالجا، حين كان فالج في الثلاثين أنجب رعوا، رعو انجب سروجا، وسروج ناحورا، وكل واحد أنجب بنين وبنات كثرا بعد ذلك. وأنجب الأبناء دائما أبناء، فأنجب ناحور تارحا، وتارح أبراما وناحورا وهاران، جربت أن أفكر في هذه العملية عدة مرات، ليس قدما فقط وإنما رجوعا حتى آدم وحواء اللذين لا نكاد ننحدر منهما، أو حتى الانسان الأول الذي ربما انحدرنا منه، ولكن يوجد في كل حالة عتمة تضيع فيها السلسلة. لذلك فانه أيضا من غير المجدي أن يتمسك المرء بآدم وحواء أو بنسختين أخريين. فقط حين لا يريد المرء التشبث والأفضل من ذلك أن يسأل، لأي غرض وقف كل واحد في الدور، لا يعرف المرء كيف يتعامل مع السلسلة وماذا يفعل بكل الانجابات. لا شيء بالحياة الاولى والاخيرة. وإذ أن دور كل واحد يأتي مرة واحدة في اللعبة التي يجدها امامه، ويوقَف ليُدرك: تناسل وتربية، اقتصاد وسياسة، يحق له ان ينشغل بالمال والمشاعر، بالعمل والاختراع، وتبرير قواعد اللعبة التي تسمى التفكير.

وبما اننا نتكاثر بثقة، على المرء أن يكون قانعا. اللعبة تحتاج اللاعبين، (أم ان اللاعبين يحتاجون اللعبة؟) كنت قد وضعت بثقة أيضا في العالم، وها اني قد أتيت بطفل إلى العالم.

لقد ارتجفت الآن وانا أفكر في هذا.

بدأت أرى كل شيء من خلال الطفل، يدي اللتين ستلمسانه وتمسكان به مثلا، شقتنا في الطابق الثالث، زقاق كاندل، القضاء السابع، الشوارع طولا وعرضا في المدينة نزولا حتى براتاراون وأخيرا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العالم الواسع كله الذي سأوضحه له. ينبغي ان يسمع مني الأسماء: منضدة وسريرا، أنفا وقدما. أيضا كلمات مثل: عقل وإله وروح، كلمات هي في نظري فائضة، ولكن لا يستطيع المرء أن يحتفظ بها سرا، وفيما بعد كلمات معقدة مثل صدى، شرائح صور موجبة، يوم القيامة وعلم الفلك، علي أن أقوم بما يلزم ليعرف طفلي ما يعني كل شيء وكيف يستعمل كل شيء، قبضة الباب والدراجة، ماءالغرغرة والاستمارة، ثمة عاصفة في رأسي.

حين جاء الطفل لم يكن ثمة ما أفعله بالدرس الكبير. كان هناك، مصابا باليرقان، مجعدا، يستحق الشفقة، ولم أكن مهيأ لشيء واحد: أن يتوجب علي أن أعطيه اسما. اتفقت في عجالة مع حنا، وتركناهم يسجلون ثلاثة أسماء في السجل، اسم أبي، واسم والد حنا واسم جدي. لم يستخدم أي من الاسماء الثلاثة. في نهاية الاسبوع الاول دعي الطفل فيبس. لا أعرف كيف حصل ذلك. ربما كنت أتحمل في ذلك جزءا من الذنب. حيث انني جربت كما فعلت حنا، ما لا نهاية له في الاختراع والتركيب لمقاطع لا معنى لها، مناداته باسماء التدليل لأن الاسم الحقيقي لم يكن مناسبا للمخلوق الضئيل العاري. من ترجيع كلمات التحبب نشأ هذا الاسم الذي اغاظني مرارا على مرور السنوات. أحيانا القيت عبء ذلك على الطفل نفسه، كما لو كان قادرا على الدفاع عن نفسه، كما لو لم يكن كل ذلك صدفة. فيبس! سيكون علي أن استمر في تسميته هكذا، أن أجعل منه اضحوكة حتى بعد الموت ومن أنفسنا أيضا.

حين كان فيبس يستلقي في سريره الأزرق، يستيقظ أو ينام، ولم أكن أصلح إلا لمسح قطرات من اللعاب أو الحليب الحامض عن فمه، أن أرفعه حين يبكي، آملا أن اروح عنه، فكرت أول مرة، أن له هو الآخر

نيات ازائي، ولكنه يترك لي الوقت لأتبين ذلك، بالتأكيد يريد أن يترك لي الوقت، مثل روح تظهر للمرء ثم تعود الى الظلمة وتظهر ثانية، مرسلا نفس النظرات غير القابلة للتفسير. غالبا ما جلست الى جانب سريره، انحنيت ناظرا الى هذا الوجه قليل التعبير، الى هاتين العينين اللتين تنظران دون وجهة، ودرست ملامحه مثل خط وصلنا عبر الأجيال ولا توجد نقطة ينطلق منها المرء لفك رموزه. كنت سعيدا لملاحظة أن حنا تبقى بثبات على مقربة، تسقيه، تتركه ينام، توقظه، تغير أغطيته، تلفّ له حضائنه كما تقتضي التعليمات. كانت تمسح أنفه بعيدان صغيرة ملفوفة بالقطن وتثير غيمة من البودرة بين ساقيه الممتلئتين، كما لو كان ذلك سيعينها ويعينه إلى الأبد.

بعد عدة أسابيع حاولت أن تحمله على الابتسام للمرة الاولى، ولكنه حين فاجأنا بذلك بقيت تقلصات وجهه بالنسبة لي غامضة ولا شخصية، وأيضا حين وجه نظراته الينا تكرارا وبدقة أكبر أو مد ذراعيه الصغيرتين راودني الشك بأن ذلك غير مقصود وأننا بدأنا نبحث له عن الأسباب التي سيقبلها فيما بعد. ما كانت حنا وربما اي إنسان ليفهمني، ولكن في هذا الوقت بدأ قلقي. أخشى أن أكون في ذلك الوقت قد بدأت أبتعد عن حنا، أفصلها وأقصيها عن أفكاري الحقيقة. اكتشفتُ نقطة ضعف عندي – جعلني الطفل أكتشفها – و اكتشفتُ أن لدي شعورا بأنني أسير الى هزيمة. كان عمري ثلاثين سنة مثل حنا التي بدت رقيقة وشابة كما لم تكن أبدا. بالقدر الذي كان يوسع دائرته كنت اتراجع الى دائرتي. كنت أشعر بالحصار مع كل ابتسامة، كل تهليل، كل صرخة. لم تكن لدي القوة لأقضي على هذه الابتسامة، الزقزقة، أو الصرخة في مهدها. كان ذلك مهما.

الوقت الذي تَبقّى لي، مضى بسرعة. جلس فيبس معتدلا في العربة، ظهرت اسنانه الأولى، شكا كثيرا؛ بعد ذلك بوقت قصير مد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جسمه، وقف مترنحا، أكثر ثباتا بشكل ملحوظ، انزلق على ركبتيه خلال الغرفة، وذات يوم جاءت الكلمات الأولى. لم يعد وقفُ ذلك ممكنا، ولم أكن حتى ذلك الوقت أعرف ما ينبغي أن أفعله.

ماذا فقط؟ كنت قد ظننت سابقا، أن عليّ أن اعرفه على العالم. منذ اللغتين الصامتتين معه فقدت عقلي. وتعلمت شيئا مختلفا. ألم يكن بوسعي أن أخفي عنه اسماء الاشياء وأحجم عن تعليمه استخدام الحاجيات؟ كان الانسان الأول. به بدأ كل شيء، ولم يقل أحد أن كل شيء كان يمكن أن يكون مختلفا من خلاله. ألا ينبغي عليّ أن اتركه للعالم، صافيا ودون وعي؟ لم يكن علي أن أطلعه على الاغراض والاهداف، ولا على الطيب والشرير، على ما هو حقيقي وما يبدو كذلك. لماذا يتوجب علي أن اسحبه إليّ، أجعله يعرف ويعتقد، يفرح ويعاني! العالم هنا حيث نقف، هو أسوأ العوالم، ولم يفهمه أحد حتى اليوم، ولكن حيث يقف هو، لم يكن ثمة ما هو محسوم، ليس بعد. كم من الوقت سيدوم ذلك؟

وأدركت فجأة: ان الأمر كله هو مسألة اللغة، وليس فقط هذه اللغة الالمانية، التي خلقت مع غيرها في بابل، لتربك العالم. إذ تكمن تحتها لغة أخرى تشمل حتى الاشارات والنظرات، استخلاص الافكار وسير الشعور، وفيها كل شقائنا. كل شيء هوالسؤال، عما إذا كنت أستطيع أن أحمي الطفل من لغتنا، حتى يكون قد اسس لغة جديدة وافتتح زمنا جديدا.

كثيرا ما كنت أخرج من البيت وحدي مع فيبس، وحين كنت أجد فيه ما كانت حنا قد ارتكبته بحقه، ألوان الرقة، مداعبات والعابا، يصيبني الهلع. لقد أصبح يشبهنا. ولكن ليست حنا وأنا فقط، كلا، الناس بشكل عام. ولكن كانت هناك مع ذلك لحظات، كان يدير فيها

نفسه بنفسه، ثم راقبته بدأب. كانت جميع الطرق بالنسبة له متساوية. كل الكائنات متساوية. كنا حنا وأنا أقرب اليه بالتأكيد، إذ كان ثمة ما نفعله بقربه على الدوام. كان الأمر بالنسبة له متساويا. كم سيستمر ذلك؟

كان يخاف، ولكن ليس من انهيار جليد أو نذالة، ولكن من ورقة، تحركت على شجرة، من فراشة. أصابه الذباب بذعر لا حدود له. وقد فكرت: كيف سيستطيع العيش، حين تنحني شجرة بكاملها في الريح وأنا أتركه هكذا في جهله!

التقى بطفل من أطفال الجيران فوق السلم؛ أمسك به بفظاظة وسط وجهه، تراجع، وربما لم يعرف أن أمامه طفلا. سابقا كان يصرخ حين يشعر أنه ليس على ما يرام، ولكن حين صار يصرخ الآن فان الأمر يتعلق بأكثر من ذلك. تكرر ذلك كثيرا قبل النوم، وحين كان يُحمل، ليُؤتى به الى المائدة، أو حين تؤخذ لعبة منه. كان فيه غيظ هائل. كان يستطيع أن يستلقي على الأرض، ويتشبث بالسجادة ويصرخ حتى يصبح وجهه أزرق ويزبد فمه. كان يصرخ في النوم وكأن مصاص دماء قد جثم على صدره. هذه الصرخات عززت اعتقادي في انه كان لا يزال يملك الجرأة ليصرخ وأن صرخاته تأتي بأثر.

اوه ذات يوم!

استخدمت حنا لوما رقيقا ووصفته بأنه غير مهذب. ضمته اليها، قبلته أو نظرت اليه بجدية وعلمته ألا يُغضب أمه. كانت محاولة رائعة. وقفت منحنية بلا كلل على نهر بلا اسم وأرادت أن يعبر إليها، مضت صعودا وهبوطا على شاطئنا وأغرته بالشكولاته والبرتقال، الخذاريف والدببة.

وحين ألقت الاشجار ظلا، ظننت انني اسمع صوتا: علِّمه لغة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الظل! العالم تجربة، ويكفي أن تتكرر هذه التجربة دائما بنفس الطريقة وبنفس النتيجة. قم بمحاولة أخرى. دعه يمضِ الى الظل! كانت النتيجة حتى الآن: حياة في الذنب، في الحب واليأس. (كنت قد بدأت أفكر في كل شيء بشكل عام، ثم خطرت لي مثل هذه الكلمات.) لكني كنت أستطيع أن أوفر عليه الذنب والحب وذلك الوبال وأُطلقه لحياة أخرى.

نعم، تجولت معه يوم الأحد في غابة فيينا، وحين وصلنا الماء، قال صوت في داخلي: علمه لغة الماء! مضى فوق الصخور. فوق الجذور. علمه لغة الصخر! إزرعه مجددا! سقطت أوراق الاشجار، فقد حل الخريف ثانية. علمه لغة أوراق الأشجار!

ولكن بما انني لم اكن اعرف أو أجد كلمة واحدة من مثل هذه اللغات، وكانت لدي لغتي وحسب ولم أستطع أن أتجاوز حدودها، حملته صامتا عبر الطرق صعودا وهبوطا ثم الى البيت ثانية، حيث تعلم أن يركب جملا ووقع في الفخ. لقد عبّر عن رغبات، نطق بالتماسات، أمر أو تكلم من أجل الكلام. في نزهات يوم الأحد التالية اقتلع أعشابا، التقط ديدانا، اصطاد خنافس. الآن لم تعد بالنسبة له متساوية، فحصها، قتلها لو لم آخذها من يده في الوقت المناسب. في البيت فكك كتبا وعلبا ولعبة الرجل المتحرك. جذب كل شيء اليه، عضه، تلمس كل شيء، ألقى به أو أخذه! اواه ذات يوم. سيعرف ذات يوم.

نبهتني حنا في هذا الوقت، حين كانت لا تزال أكثر قدرة على الابلاغ، إلى ما قاله فيبس، كانت مسحورة بنظراته البريئة، أحاديثه البريئة وأفعاله. أما أنا فلم أستطع مطلقا أن أكتشف في الطفل براءة من الوقت الذي لم يعد فيه عاجزا وأبكم كما كان في الاسابيع الأولى. ولم

يكن في ذلك الوقت بريئا حقا، ولكن غير قادر على التعبير، رزمة من اللحم الناعم والكتان بتنفس رقيق، ورأس رطب عملاق، مثل مانع صواعق يبطل رسالات العالم.

سمح لفيبس الذي صار أكبر أن يلعب مع أطفال آخرين في زقاق مسدود قرب البيت. مرة عند الظهر، رأيته وأنا عائد من البيت مع ثلاثة صبية صغار يتلقى بعلبة صفيح الماءَ الذي كان يجري على طول الحافة الحجرية. ثم وقف الأطفال في دائرة، تكلموا. بدا الأمر كاجتماع استشاري. (هكذا كان المهندسون يتشاورونْ، أين يبدأون الحفر، أين عليهم أن يقوموا بالغرزة) قرفصوا على الرصيف، وكان فيبس الذي أمسك بالصفيحة، يهم بافراغها حين نهضوا ثانية، تجاوزوا ثلاثة من حجارات الرصيف. ولكن لم يبدُ هذا المكان ايضا صالحا لما ينوون القيام به. نهضوا مرة اخرى. بدا الوضع متوترا. أي توتر بشري! لا بد أن شيئا ما قد حدث! ثم وجدوا المكان على بعد متر. قرفصوا ثانية، صمتوا، وأمال فيبس علبة الصفيح. جرى الماء القذر فوق الحجارة. حدقوا فيه، صامتين ومحتفلين. كان الأمر قد حدث، أُنجز. ربما كان ناجحا. لا بد ان يكون ناجحا. أن العالم يستطيع أن يعتمد على هؤلاء الرجال الصغار، الذين حققوا له التقدم. سيحققون له التقدم، أنا متأكد من هذا. مضيت الى البيت، الى فوق، والقيت نفسي على السرير في غرفة نومنا. كان قد جرى التقدم بالعالم، وجد المكان، الذي يدفع به منه الى الأمام، دائما في نفس الاتجاه. كنت قد أملت ألا يجد طفلي الاتجاه. ومرة منذ وقت طويل، خفت من أنه قد لا يستطيع حتى تدبير اموره. أنا الأحمق خفت من أنه لن يجد الاتجاه!

نهضت والقيت ملء يدي ماء باردا من الصنبور على وجهي عدة مرات. ما عدت أريد هذا الطفل. كرهته، لأنه فهم جيدا، لأنني رأيته يقتفي جميع الآثار.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تجولت ومددت كرهي إلى كلّ شيء كان الانسان مصدره، الى خطوط قطار الشوارع، أرقام البيوت، العناوين، تقسيم الوقت، كل هذه الكومة المتلبدة الناجحة التي تسمي نفسها نظاما، ضد رفع القمامة، فهارس المحاضرات، مكاتب الزواج، كل هذه المؤسسات التي تدعو للرثاء، التي لم يعد المرء يستطيع أن يضربها، التي لا يقف ضدها أحد أيضا، هذه الهياكل التي ضَحّيتُ لها، ولكن لست راغبا في أن أدع ابني يكون ضحية. كيف وصل طفلي إلى ذلك؟ إنه لم يؤسس العالم! صرخت في دوائر تسجيل النفوس والمدارس والثكنات: اعطوه فرصة! اعطوا طفلي فرصة واحدة قبل أن يفسد. غضبت من نفسي، لأنني أرغمت ابني على المجيء الى هذا العالم دون أن أفعل شيئا لتحريره. إنني مدين له بذلك، كان علي أن أتصرف، أن أغادر معه، أن أنسحب معه الى جزيرة. ولكن أين توجد هذه الجزيرة التي يستطيع منها انسان جديد أن يؤسس عالما جديدا؟ كنت منذ البدء سجينا مع الطفل ومحكوما عليه بالمشاركة في صنع العالم القديم. لذلك تخليت عن الطفل. ألغيته من محبتي. كان هذا الطفل قادرا على كل شيء، لم يكن قادرا فقط أن ينسحب، ليكسر الحلقة المفرغة.

ضيع فيبس السنوات حتى دخول المدرسة. لقد ضيعها بكل معنى الكلمة. لم أبخل عليه بألعاب، ولكن ليس تلك التي توجهه إلى ألعاب لاحقة. اختفاء واصطياد، احصاء وخسارة، لصوص وشرطة. أردت له ألعابا أخرى تماما، العابا نقية، حكايات أخرى غير الحكايات المعروفة. ولكن لم يخطر لي شيء، وكان يريد التقليد وحسب. لا يصدق المرء ولكن ليس ثمة مخرج للواحد منا. كل شيء ينقسم دائما إلى اعلى واسفل، طيب وشرير، مضيء ومظلم، الى وجه وقفا، صديق وعدو، وحيث تظهر في حكايات الحيوان حيوانات أخرى، تكتسب حالا صفات الانسان.

لأنني لم أعد أعرف، كيف ولا لأي قصد علي أن أعلمه، استسلمت. لاحظت حنا أنني لم أعد اهتم به. حاولنا مرة أن نتحدث في هذا فحدقت فيّ كما لو كنت غولا. لم أستطع أن أشرح كل شيء لأنها نهضت، قطعت عليّ الحديث وذهبت الى غرفة الطفل. كان الوقت مساء، ومنذ هذا المساء بدأت تصلي مع الطفل، ولم تكن قد خطرت لها هذه الفكرة، كما لم تخطر لي من قبل: انني متعبة، سأذهب لأرتاح. يا ربي، اجعلني ورعة. وما اشبه ذلك. لم أكترث بذلك أنا أيضا. لكنهما قد بلغا شوطا في برنامجهما. أعتقد أنها رغبت بهذا أن تضعه تحت الحماية. كانت ستفعل كل شيء، صليبا أو طلسما، تعويذة أوأي شيء آخر. كانت على حق في الأساس، حيث سيقع فيبس قريبا بين الذئاب. و سيعوي مع الذئاب. "أمر الله" أو ربما كانت الامكانية الوحيدة. لقد تخلينا عنه، كل على طريقته.

حين كان فيبس يعود من المدرسة بنتيجة سيئة، لم أكن أقول كلمة، لكني أيضا لم أكن أعزّيه. بينما كانت حنا تتعذب سرا. تجلس بانتظام بعد الظهر وتساعده في واجباته. تستمع اليه. كانت تقوم بعملها بأفضل ما يمكن للمرء أن يفعله. لكني لم أكن أومن بقضية صالحة. كان الأمر بالنسبة لي سيان، أن يذهب فيبس فيما بعد الى الثانوية أم لا، أن يصبح منه شيء صالح أم لا. يريد العامل أن يرى ابنه طبيبا، والطبيب ابنه طبيبا على الأقل. لا أفهم هذا. لم أرد أن يكون فيبس أذكى أو أن يعرف أحسن منا. لم أرد أيضا أن أكون محبوبا منه، لم يكن بحاجة الى طاعتي، أن يكون طوع رغبتي. كلا، أردت ... أجل كان عليه فقط أن يبدأ من جديد، أن يريني باشارة واحدة، أن ليس عليه أن يفهم إشاراتنا. لم أر منه واحدة. كنت قد ولدت من جديد ولكن لم يكن كذلك. أجل كنت أنا ذلك، كنت الانسان الاول وقد ضيعت كل شيء، لم أفعل شيئا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أتمنّ لفيبس شيئا، أي شيء على الاطلاق. تابعت مراقبته وحسب. لا أدري إذا كان يحق للمرء أن يراقب ابنه هكذا، كما يراقب الباحث "حالة". تأملت هذه الحالة اليائسة الانسان. هذا الطفل الذي لم استطع أن أحبه، كما أحببتُ حنا، التي لم اتخلَّ عنها تماما، لأنها لم تستطع أن تخيب ظني. كانت من ذلك النوع من الناس مثلي، حين التقيت بها. قوام حسن، ذات خبرة، متميزة قليلا وليست كذلك، إمرأة، ومن ثم امرأتي. حاكمت هذا الطفل ونفسي، حاكمته لأنه جعل من توقعي الكبير هباء، وحاكمت نفسي لأنني لم إستطع أن امهّد له الأرض. كنت قد توقعت ان هذا الطفل، لأنه كان طفلا، نعم كنت قد توقعت أن يخلص العالم. يبدو ذلك مثل كفر، كنت قد تصرفت أيضا مع الطفل بشكل منكر، ولكن ما أملته ليس كفرا. كنت فقط غير مهيأ للطفل، مثل كل من سبقني. لم أفكر في ذلك حين أحطتُ حنا بذراعي، حين كنت قد هدأت في الحضن المظلم، – لم أكن قادرا على التفكير. كان أمرا جيدا أن أتزوج حنا، ليس فقط من أجل الطفل، ولكني لم أعد بعد ذلك سعيدا معها أبدا، وإنما كنت حريصا ألا يصبح لها طفل آخر. كانت ترغب في ذلك، كان لدي سبب لهذا الافتراض. رغم أنها لم تعد الآن تتحدث عن الأمر، أو تفعل شيئا من هذا. ربما يميل المرء الى الاعتقاد أنها الآن أحرى بالتفكير في طفل آخر، إلا أنها قد تحجرت. إنها لا تتركني ولا تأتي إلي. تتشاجر معي، كما لا يجوز أن يتشاجر المرء مع إنسان، لأنه ليس سيدا على ما لا يفهم مثل الموت والحياة. كان بودها يومها أن تربي قطيعا كاملا من الصغار، وهذا ما منعت وقوعه. كانت كل الظروف في نظرها مناسبة، ولم يكن أي منها كذلك بالنسبة لي. شرحت لي مرة حين تشاجرنا كل ما تريد أن تفعله وتحصل عليه لفيبس. كل شيء: غرفة مضيئة، فيتامينات أكثر، بدلة بحارة، مزيد من الحب، كل الحب، أرادت أن تُنشئ خزانا من الحب

يكفي مدى الحياة، بسبب الخارج، بسبب الناس... تأهيل مدرسي جيد، لغات أجنبية، الانتباه إلى مواهبه. – بكت وانزعجت لانني ضحكت من ذلك. أعتقد أنها لم تفكر لحظة أن فيبس سيكون واحدا من الناس في "الخارج"، أنه مثلهم يمكن ان يجرح، يهين، يحابي أو يقتل، أنه سيكون قادرا على النذالة وكان لدي سبب لهذا الافتراض. لأن الشر كما نسميه، يكمن في الطفل مثل دمل. لم أكن بحاجة في ذلك أبدا الى التفكير في قصة السكين. لقد بدأ الأمر قبل ذلك بوقت طويل، حين كان له من العمر ثلاث سنوات أو أربع. توصلت الى ذلك، كيف انه تعامل غاضبا زاعقا، لقد سقط برج من قطع البناء. توقف فجأة عن العويل وقال بصوت واطئ ومُؤكِّد: "سأحرق منزلكم. أدمر كل شيء. سأدمركم جميعا." رفعته ووضعته على ركبتي، مسدته، وعدته أن أعيد بناء البرج. كرر تهديداته. كانت حنا التي دخلت علينا لأول مرة غير واثقة. ردته وكانت في ذلك على حق، وسألته من قال له مثل هذه الاشياء. أجاب باصرار "لا أحد."

ثم دفع فتاة صغيرة، كانت تسكن في البيت، على السلم إلى الاسفل، غير أنه كان خائفا حقا بعد ذلك، بكى ووعد أنه لن يكرر فعلته، لكنه فعل ذلك ثانية. طيلة فترة من الزمن كان يضرب حنا في كل مناسبة. هذا أيضا انتهى.

إنني أنسى بالطبع، لألوم نفسي، كم قال من الاشياء الجميلة، كم كان قادرا على أن يكون رقيقا، كيف كان يفيق متوردا في الصباح. لقد لاحظت هذا كله أيضا، حاولت غالبا أن أحمله سريعا لأقبله، كما كانت تفعل حنا. لكني لم أرد أن أُهدئ نفسي بذلك وأضللها. كنت حذرا. حيث لم يكن ما أَملته أمرا منكرا. لم أكن أنوي لطفلي شيئا كبيرا، لكن رغبت في هذا القليل، هذا الانحراف الصغير. حين يدعى طفل فيبس بالطبع... أينبغي أن يشرف اسمه على هذا النحو؟ يأتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويذهب باسم كلب مدلل. يضيّع أحد عشر سنة في الترويض، (الأكل باليد الجميلة. المشي معتدلا. التلويح. عدم الكلام بفم ملئ.)

منذ أن ذهب الى المدرسة، كنت أقضي من الوقت خارج البيت أكثر مما أقضيه في البيت. كنت أذهب للعب الشطرنج في المقهى أو أغلق علي باب غرفتي متذرعا بالعمل لأقرأ. تعرفت على بيتي، بائعة في شارع ماريا هيلفر، أتيتها بجوارب، بطاقات سينما، أو شيئا للأكل، واعتادت علي. كانت قليلة الكلام، دون مطالب، مطيعة وتحب الأكل إلى حد كبير رغم عدم وجود رغبات لديها، تقضي بها المساءات التي لا تعمل فيها. في الواقع ذهبت إليها كثيرا خلال سنة، استلقيت الى جانبها على السرير في غرفتها المؤثثة، حيث كانت تقرأ مجلة مصورة بينما كنت أشرب كأسا من النبيذ، واستجابت لظنوني دون استغراب. كان ذلك في زمن الحيرة الكبيرة، بسبب الطفل. لم أنم مع بيتي أبدا. على العكس، كنت أبحث عن أرضاء ذاتي، بعد التحرر الخجول المستكره من المرأة والجنس. كي لا أصبح أسيرا، من أجل أن أبقى مستقلا. لم أعد أريد النوم الى جانب حنا، فقد أذعنت لها.

رغم أنني لم أبذل جهدا، لأبرر بقائي في الخارج مساء، بدا لي كما لو أن حنا عاشت دون شك، ذات يوم اكتشفتُ أن الأمر كان غير ذلك. لقد رأتني مرة مع بيتي في مقهى الزا هوف، حيث كنا نلتقي غالبا بعد اغلاق الدكان، ثم بعد ذلك بيومين مباشرة مرة أخرى حين وقفت في الصف أمام سينما كوزمو لشراء بطاقات. تصرفت حنا بشكل غير معتاد جدا، تجاوزتني بنظراتها، كما لو كنت غريبا، فلم أعرف ما أفعل. أومأت اليها برأسي وكأنني مشلول، تقدمت الى الامام نحو الشباك متحسسا يد بيتي في يدي ودخلت مهما بدا لي الأمر غير قابل للتصديق فيما بعد إلى السينما، بعد العرض، بينما كنت أستعد

للاتهامات واتدرب على الدفاع، استأجرت سيارة تاكسي للطريق القصير الى البيت، كما لو أنني أستطيع أن أصلح أو أمنع شيئا. ولما لم تنبس حنا بكلمة واحدة، انطلقت مرددا نصي الذي كنت قد أعددته. صمتت بإصرار، كما لو أني تكلمت في أمور لا تهمها. أخيرا فتحت فمها وقالت بحياء، علي أن أفكر في الطفل "من أجل فيبس..."، ترددت هذه الكلمة! كنت قد هزمت، بسبب حرجها، طلبت منها الصفح، ركعت أمامها، وعدتها الا أكرر ذلك، ولم أر بيتي بعد ذلك حقا. لا أدري لماذا كتبت لها مع ذلك رسالتين لم تعلق عليهما أهمية بالتأكيد. لم يأتِ جواب، ولم أنتظر أيضا جوابا. كما لو كنت أريد ارسال هاتين الرسالتين إلى نفسي أو الى حنا، أذللت فيها نفسي كما لم أفعل أزاء إنسان آخر. أحيانا خفت أن أتعرض من قبل بيتي للإبتزاز. كيف الابتزاز؟ أرسلت لها نقودا، لماذا في الواقع، ألأن حنا عرفت بها؟

هذا الاضطراب، هذا الجدب.

شعرت أنني محيت كرجل، انني عنين. تمنيت أن أبقى كذلك. لو كان ثمة حساب، لانتهى لصالحي. الخروج من الجنس، الوصول الى النهاية، نهاية، ينبغي الوصول اليها.

لكن كل ما حدث لا يتعلق بي أو بحنا أو فيبس، وإنما يتعلق بأب وابن، بذنب وموت.

قرأت مرة هذه الجملة في كتاب: "ليس من طبع السماء أن ترفع رأسها" إنه لأمر جيد لو عرف الجميع بهذه الجملة التي تتحدث عن شقاوة السماء، اوه كلا، انه حقا ليس من طبيعتها أن تنظر الى أسفل، أن تعطي للحيارى تحتها إشارة. على الأقل ليس هناك حيث تحدث دراما، تمثل فيها هذه السماء هي أيضا. أب وابن. الابن- الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعطيه، هذا ما لايمكن إدراكه. تخطر لي الآن مثل هذه الكلمات حيث لا توجد كلمة لمثل هذه القضية المظلمة، كلما يفكر المرء، يفقد رشده. قضية مظلمة: حيث كانت هناك حيامني، غير القابلة للتعريف، والغامضة بالنسبة لي، وثم دم حنا الذي تغذى فيه الطفل والذي رافق الولادة، كل هذا معا قضية مظلمة. وانتهى بالدم، بدمه، دم الطفولة الضاج المضيء الذي سال من جرة في الرأس. لم يستطع أن يقول شيئا حين كان ملقى هناك على نتوء صخرة الهاوية، قال فقط للتلميذ الذي وصل اليه أولا : "أنت" أراد أن يرفع يده، أن يطلب منه فعل شيء أو يتشبث به. لكن اليد لم ترتفع أبعد. وأخيرا همس، حين انحنى المعلم فوقه بعد ذلك بلحظات:

"أريد أن أذهب إلى البيت."

حاشا أن أعتقد بسبب هذه الجملة بأنه أرادني أو أراد حنا. يريد المرء الذهاب إلى البيت في الواقع حين يشعر أنه يموت، وكان يشعر بذلك. كان طفلا، لم تكن لديه رسالات كبيرة يبلغها. إذ كان فيبس طفلا عاديا جدا في الواقع. ما كان يمكن أن يعترض طريقه شيء في أفكاره الأخيرة. بحث الأطفال الآخرون والمعلم عن عصي، صنعوا منها نقالة، حملوه الى قرية في منطقة مرتفعة. في الطريق، بعد الخطوات الاولى مباشرة تقريبا كان قد مات. ذهب إلى هناك؟ فارق؟ كتبنا في النعي "انتُزع منا طفلنا الوحيد من خلال حادث.." في المطبعة سأل الرجل الذي تلقى الطلب عما إذا كنا لا نريد أن نكتب "طفلنا الوحيد المحبوب" لكن حنا التي كانت على الهاتف قالت لا، مفهوم محبوب و محبوب قلبيا، لم يعد الأمر مهما أيضا، كان حمقا أن أريد معانقتها لهذه المعلومة، كانت عاطفتي ازاءها منخفضة الى هذا الحد.. دفعتني عنها. هل كانت تحس بوجودي على الاطلاق؟ ماذا تأخذ عليّ بحق العالم؟

تتصرف حنا التي قامت وحدها برعايته منذ وقت طويل، بشكل يجعل المرء لا يكاد يعرفها، كما لو أن المصباح الكشاف الذي أضاءها حين وقفت مع فيبس وكانت من خلال فيبس مركز الاهتمام لن يسقط عليها بعد الآن. لم يعد يمكن أن يقال لها شيء حول نفسها، كما لو لم تكن لديها صفات وملامح. كانت في الماضي فرحة وحيوية، خوافة، رقيقة وحازمة، مستعدة دائما لتوجيه الطفل، لتركه يمضي، ثم تسحبه قريبا اليها ثانية. بعد حادث السكين مثلا كانت تعيش أجمل الأوقات، توهجت من السماحة والرجاحة. كان يحق لها أن تعترف بصلتها بالطفل وبأخطائه، تحملت المسؤولية عن كل شيء أمام كل مرجع. كان في السنة الثالثة في المدرسة. هاجم فيبس تلميذا معه بسكين جيب، أراد أن يدخلها في صدره، انزلقت، وأصابت الطفل في ذراعه. دُعينا الى المدرسة، وكان لي حديث مخجل مع المدير والمعلمين وأبوي الطفل المجروح – مخجل، لأني لم أشك في أن فيبس كان قادرا على ذلك وأكثر من ذلك تماما. ولكن لم يكن لي أن أقول ما فكرت فيه – مخجل، لأن وجهات النظر التي أرغمت عليها لم تكن تهمني على الاطلاق. ما كان علينا أن نفعله مع فيبس ظل غير واضح للكل. نشج، معاندا حينا ويائسا حينا، وحين كانت النهاية ممكنة، ندم على ما حدث. رغم ذلك لم ننجح في أن نحمله على الذهاب الى الطفل والاعتذار له. أرغمناه وذهبنا ثلاثتنا الى المستشفى. لكني أعتقد أن فيبس الذي لم يكن لديه شيء ضد الطفل حين هدده بدأ منذ هذه اللحظة يكرهه، حين كان عليه أن يقول كلامه. لم يكن فيه غضب أطفال، وإنما كراهية ناضجة، دقيقة، مسيطر عليها بشكل كبير. نجح في شعور صعب، لم يدع أحد يحدسه، وكان كما لو أنه قد هُزم ليصبح انسانا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حين أفكر في الرحلة المدرسية التي انتهى بها كل شيء تخطر لي دائما قصة السكين، كما لو كانتا مرتبطتين ببعضهما من بعيد، بسبب الصدمة التي ذكرتني ثانية بوجود طفلي. حيث بدت لي سنوات المدرسة القليلة هذه بصرف النظر عن ذلك فارغة في الذاكرة، لأنني لم انتبه الى نموه، إلى تطور وعيه، ومشاعره. لا بد أنه كان مثل كل الأطفال في هذه السن: جامح ورقيق، ضاج وصامت – بكل التمايز بالنسبة لحنا، بكل ما هو فريد بالنسبة لحنا.

اتصل مدير المدرسة بي في المكتب هاتفيا، لم يحدث هذا أبدا من قبل. فحتى حين وقعت قصة السكين، جرى الاتصال بالمنزل، وقد ابلغتني حنا أولا. التقيت الرجل بعد نصف ساعة في قاعة الشركة. ذهبنا الى المقهى في الطرف الآخر من الشارع. كان قد حاول أن يقول ما كان عليه قوله في قاعة الشركة أولا، ثم في الشارع، لكنه أحس في المقهى أيضا أنه ليس في المكان الصحيح. ربما لا يكون ثمة مكان صحيح لابلاغ خبر موت طفل.

لم يكن ذنب المعلمين، قال.

أومأت برأسي. كنت موافقا على ذلك.

كان الطريق جيدا، لكن فيبس خرج عن الصف، بدافع جرأة زائدة أو فضول، ربما لأنه أراد أن يبحث عن عصا.

بدأ المدير يتلعثم.

انزلق فيبس على صخرة ووقع على التي تحتها.

كان جرح الرأس بحد ذاته ليس خطرا، لكن الطبيب وجد تفسير الموت المفاجيء، احتقان ، أعرف في الظاهر. . .

أومأت برأسي. احتقان؟ لم أكن أعرف ما هذا.

المدرسة تشعر بالمصاب، قال المدير، كلفت لجنة تحقيق، أبلغت

الشرطة. . . لم أفكر في فيبس وإنما في المعلم الذي شعرت بالاسف من أجله، وأفهمته انه لا ينبغي الخوف من جهتي.

ليس لأحد ذنب، لا أحد.

نهضت قبل أن نستطيع أن نطلب شيئا، وضعت شلنا على المائدة، وافترقنا. عدت إلى المكتب ثم خرجت ثانية مباشرة الى المقهى. لأشرب قهوة رغم أنني كنت افضل أن اشرب كونياك أو عرقا. لم أجرؤ على شرب الكونياك. كان الظهر قد حل، وكان علي أن أذهب إلى البيت وأبلغ حنا. لا أدري كيف استطعت ذلك وماذا قلت. حين خلفنا باب الشقة ومضينا عبر المدخل، لا بد أنها كانت قد فهمت. مضى الأمر بسرعة، كان عليّ أن أحملها الى السرير، وأستدعي الطبيب. كانت دون وعي، وظلت تصرخ حتى أغمي عليها. كانت تصرخ بشكل مرعب كما يحدث لدى الولادة، وخفت عليها ثانية مثلما فعلت يومذاك. أردت فقط ألا يحدث شيء لحنا. فكرت دائما: حنا! لم أفكر في الطفل أبدا.

في الأيام التالية أنجزت جميع الأشياء وحدي. في المقبرة – كان علي أن أكتم عن حنا موعد الدفن – ألقى المدير كلمة. كان يوما جميلا، هبت ريح خفيفة، ارتفعت شرائط الاكليل كما في مناسبة احتفال. تابع المدير كلامه. رأيت الصف كاملا أول مرة، الأطفال الذين أمضى فيبس معهم نصف يومه تقريبا، مجموعة صبية صغار ينظرون أمامهم متبلدين، وعرفت فيهم واحدا أراد فيبس أن يطعنه. ثمة برد في الروح، يجعل الأقرب والأبعد بعيدين عنا.

ابتعد القبر مع الملتفين حوله والأكاليل. رأيت المقبرة المركزية بأكملها بعيدة خارجا في الافق. تمضي الى الشرق، وحين ضغط المرء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على يدي شعرت فقط بضغط على ضغط، ورأيت الوجوه هناك في الخارج، بوضوح وكما يراهم المرء عن قرب، ولكن بعيدة، بعيدة جدا.

تعلم أنت لغة الظل! تعلم أنت نفسك.

ولكن الآن، منذ أن انتهى كل شيء ولم تعد حنا تجلس ساعات طويلة في غرفته وإنما سمحت لي أن أغلق الباب التي طالما مر منها، أتحدث أحيانا معه باللغة التي لا استطيع اعتبارها جيدة.

يا صبيي الجامح، يا قلبي.

إنني مستعد أن أحمله على ظهري، وأعده بنفاخة زرقاء، رحلة بالقارب في الدانوب القديم، وطوابع بريد. أنفخ على ركبته حين يكون قد أصيب، وأساعده في عملية حساب نهائي.

إذا كنت لا أستطيع بذلك أن أعيده حيا، فإن الوقت ليس متأخرا للتفكير: انني قبِلته، هذا الابن. لم أستطع أن أكون ودودا معه، أنني مضيت معه أبعد مما ينبغي.

لا تمض أبعد مما ينبغي، تعلم أولا التقدم. تعلم أنت.

ولكن على المرء أن يستطيع أولا تمزيق قوس الحزن، الذي يتصل من رجل إلى أمرأة. هذا البعد مُقاسا بالصمت، كيف سيتقلص؟ إذ يصبح ما هو بالنسبة لي حقل ألغام حديقة لحنا في كل وقت.

لم أعد أفكر، إنما أريد أن أنهض، أعبر الممر المظلم وأصل حنا دون أن يكون عليّ أن أقول كلمة. لا أرى بالتالي، لا يديّ اللتين ستمسكان بها ولا فمي الذي أستطيع أن أغلقه على فمها. إنه ليس مهما بأي صوت قبل كل كلمة أجيء اليها، بأي دفء من التعاطف. ليس من أجل استعادتها ذهبت، وإنما لاسنادها في العالم وبهذا تسندني هي في العالم. من خلال الاتحاد، رقيقا ومظلما. إذا ولد أطفال بعد هذا العناق، حسنا، فليأتوا، أن يكونوا هنا، أن يكبروا، أن يكونوا مثل كل

الآخرين. سألتهمهم مثل كرونوس، أضربهم مثل أب كبير فظيع، أدللهم، هذه الحيوانات المقدسة، أتركهم يخدعونني، مثل لير. سأربيهم، كما يتطلب الوقت، نصف للتعامل الذئبي ونصف باتجاه فكرة التقاليد – ولن أعطيهم شيئا في الطريق. مثل رجل من عصري: لا ملك، لا نصائح طيبة.

لكن لا أدري ما إذا كانت حنا لا تزال يقظة.

لم أعد أفكر. اللحم الذي يدفن تحت ضحكات الليل الكبيرة شعورا حقيقا قوي ومظلم.

لا أدري إذا كانت حنا لا تزال يقظة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بين قتلة ومجانين

يكون الرجال في الطريق إلى أنفسهم، حين يكونون مع بعضهم مساء يشربون ويتحدثون ويتبادلون الآراء. حين يتحدثون بلا هدف، يكونون في أثر أنفسهم، حين يرون وترتفع آراؤهم مع دخان الغليون والسجاير والسيجار وحين يصبح العالم دخانا وجنونا في المطاعم القروية، في الغرف الخاصة، في الغرف الخلفية للمطاعم الكبيرة، وفي سراديب شرب النبيذ في المدن الكبرى.

نحن في فيينا، بعد أكثر من عشر سنوات من الحرب. "بعد الحرب" هذا هو التقويم. نحن في فيينا مساء، ننتشر في المقاهي والمطاعم. نأتي مباشرة من مكاتب التحرير ومباني المكاتب. من العيادة ومن المرسم ونلتقي، نلتصق بالأثر، نلاحق مثل وحش أفضلَ ما فقدناه، مرتبكين ووسط الضحكات. في فترات الاستراحة، حين لا تخطر لأحد طرفة أو قصة لا بد أن تُحكى، حين لا يعترض أحد الصمت وينغلق كل على نفسه، يسمع المرء بين حين وآخر الوحش الأزرق يشكو – مرة أخرى، على الدوام.

أتيت في المساء مع مالر الى "غرونكَلر" في داخل المدينة الى حلقة الرجال. كانت الحانات الآن حيث حل المساء على العالم مكتظة في كل مكان، وكان الرجال يتحدثون ويتبادلون آراءهم ويروون كيف أن الضالين والصابرين، كيف أن العمالقة وأنصاف الآلهة في التاريخ وفي القصص، ركبوا إلى بلاد الليل، جلسوا حول النار، النار المفتوحة المشتركة، التي أضرموها في الليل وفي الصحراء التي كانوا فيها. نسوا المهن والعوائل. لم يُرِد أحد أن يفكر في ان النساء كن الآن في البيت

ينفضن الأسرّة ويخلدن الى الراحة، لأنهن لا يعرفن ما يصنعن بالليل. حافيات أو في أحذية البيت، بشعر محلول ووجوه متعبة يتنقلن في البيت، يغلقن مفتاح الغاز وينظرن مذعورات تحت السرير وفي الصناديق، يُطَمئِنّ الأطفال بكلمات متناثرة أو يجلسن الى الراديو متبرمات، ليضطجعن بعد ذلك مع أفكار الانتقام في البيت الموحش. بمشاعر الضحية، كانت النساء يستلقين هنا بعيون مفتوحة في الظلام، ممتلئات يأسا وشرا. كن يصفين حسابهن مع الزواج، مع السنوات ومصروف البيت، يضللن، يزوِّرن ويختلسن. أخيرا يغلقن عيونهن، يتعلقن بحلم يقظة، يسلمن أنفسهن لأفكار جامحة خادعة حتى ينمن مع لوم كبير أخير. وفي الحلم الأول يقتلن أزواجهن، يجعلنهم يموتون في حوادث سيارات، بنوبات قلبية والتهابات رئوية، يجعلنهم يموتون بسرعة أو ببطء وبؤس، حسب حجم المأخذ، وتحت الأجفان الرقيقة المغلقة تنبثق دموعهن من الألم والحسرة على موت رجالهن. يبكين أزواجهن الذين سافروا أو ركبوا الفرس ولم يعودوا إلى البيت ويبكين في الآخر أنفسهن. يبلغن دموعهن الأكثر صدقا.

لكننا كنا بعيدين، الكورونا، فرقة المغنين، أصدقاء المدرسة، الاتحاديين، مجموعات، جمعيات، الندوة وحلقة الرجال. طلبنا نبيذنا، وضعنا أكياس التبغ أمامنا على الموائد، وكنا في مأمن من تأوههن ودموعهن. لم نمت، وانما تجددت حيويتنا، تحدثنا وكونا آراءنا. بعد ذلك بوقت طويل فقط، حوالي الصباح سنمسح وجوه النساء المبتلة في الظلام ونُهينهن ثانية بتنفسنا، بأبخرة الخمر الحامضة القوية وأبخرة البيرة، أو نأمل بالحاح أن يكن قد نمن ولن يتوجب قول كلمة في قبر غرفة النوم، سجننا، الذي كنا نعود اليه كل مرة منهكين ومسالمين كما لو كنا قد أعطينا كلمة شرف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنا بعيدين جدا. كنا في المساء كما في كل يوم جمعة معا: هادرر، بيرتوني، هوتر، رانتسكي، فريدل، مالر وأنا. كلا، لم يحضر هيرتس، كان هذا الاسبوع في لندن من أجل أن يعد لرجوعه النهائي إلى فيينا. غاب أيضا شتيغل الذي كان مريضا مرة أخرى. قال مالر: " نحن اليوم ثلاثة يهود فقط" ونظر إلى فريدل وإليّ. حدق فريدل فيه غير متفهم بعينيه الكرويتين الدامعتين وضغط يديه أحداهما بالأخرى، لأنه ظن أنه ليس يهوديا، وأن مالر لم يكن كذلك أيضا، أبوه ربما، جده، – لم يكن فريدل يعرف ذلك بالضبط. لكن مالر إتخذ سحنة متعالية. سترون، قال وجهه. وقال: أنا لا أخطئ أبدا.

كان يوم جمعة أسود. أدخل هادرر الكلمة الكبيرة. هذا يعني أن الضال والصابر فيه قد صمت وتكلم العملاق الذي ما كان عليه بعد الآن أن يتواضع ويتباهى بالضربات التي توجب عليه أن يتحملها، وأنما بتلك التي وجهها. في هذه الجمعة تحول الحديث، ربما لغياب هيرتس وشتيغل ولأن فريدل ومالر وأنا لم نَبدُ كعائق لأحد، ولكن ربما فقط لأنه كان على الحديث أن يكون مرة صادقا، لأن الدخان والجنون يجعلان كل شيء يتحدث.

أصبح الليل الآن ساحة معركة، غزوة، مرحلة، حالة طوارىء، وقد صال المرء وجال في هذه الليلة. غطس هادرر وهوتر في ذكريات الحرب، نبشوا في الذكريات، في بعض الظلمات التي لم يضحِّ أحد بها تماما، حتى وصلا مرحلة تغيرت فيها هيأتهما ولبسا الزي العسكري ثانية، حتى كانا هناك، حيث قاد كل منهما ثانية، كلاهما كضابط، وعقدا الصلة مع الاركان، الى حيث طارا بـ "يو ٥٤" إلى فورانيش، ولكنهما بعد ذلك لم يستطعا فجأة أن يتفقا على ما كلفهما الجنرال مانشتاين أن يحافظا عليه في شتاء ١٩٤٢، ولم يتفقا سواء كان ذلك سيتسبب في

عزل الجيش السادس أم لا، سواء كان الذنب ذنب خطط التقدم أم لا، ثم وجدا نفسيهما لاحقا في كريتا، ولكن في باريس كانت فرنسية صغيرة قد قالت لهوتر أنها تفضل النمساويين على الالمان، وحين جاء اليوم في النرويج، وحين أحاطهما الأنصار في صربيا كان الوقت قد حل – طلبا اللتر الثاني من النبيذ، وطلبنا نحن أيضا لترا آخر، حيث بدأ مالر يروي لنا بعض المكائد من غرفة الأطباء.

شربنا النبيذ البرغلندي ونبيذ غومبولدكيرشن. شربنا في فيينا، وكان ثمة وقت طويل حتى انتهاء الليل بالنسبة لنا.

في هذا المساء حيث كسب الانصاراحترام هادرر وحُكِم عليهم من قبله بشكل عرضي حكما قاسيا (إذ لم يصبح واضحا أبداً، كيف فكر هادرر حول ذلك وحول أشياء أخرى، وقال لي وجه مالر مرة أخرى: أنا لا أخطئ !)، حين كانت الراهبات السلافيات الميتات مرميات في الغابة أمام فيلدس وكان على هادرر الذي حارمن صمت مالر، أن يترك الراهبات مرميات ويتوقف عن الكلام، تقدم رجل عجوز كنا نعرفه منذ وقت طويل من مائدتنا. كان هذا جوالا، قذرا، انسانا قزميا بدفتر رسم، أقحم نفسه، ليرسم الضيوف لقاء عدة شلنات. لم نكن نريد أن يزعجنا أحد وخاصة أن نُرسَم. ولكن بسبب الحرج الذي حصل طلب هادرر من العجوز بسخاء أن يرسمنا، أن يرينا قدراته. أخرج كل منا بعض الشلنات من المحفظة، وضعناها معا في كومة ودفعنا النقود إليه. لكنه لم ينتبه للنقود. وقف هناك مسندا الدفتر على ساعده الأيسر المطوي، برأس مدفوع الى الوراء، خطط بقلم الرصاص الغليظ على الورقة بسرعة أضحكتنا، بدت حركاته مثل حركات ممثل في فلم صامت، هزلية، شديدة السرعة. ولما كنت الأقرب اليه ناولني الورقة الاولى مع انحناءة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان قد رسم هادرر:

بندبات في الوجة الصغير. بجلد مشدود على الجمجمة. كان التعبير متقلص العضلات، متصنعا على الدوام. الشعر مقسوم بشكل دقيق. نظرة أراد أن تكون ثاقبة آسرة ولم تكن كذلك تماما.

كان هادرر رئيس قسم في الاذاعة وكان قد كتب مسرحيات مغالية في الطول كانت جميع المسارح الكبيرة تقدمها بنواقص وتلاقي استحسانا غير محدود من جميع النقاد. تركناها جميعا جزءا فجزءا باهداء بخط اليد في البيت. "الى صديقي الموقر..." كنا جميعا أصدقاءه الموقرين – عدا فريدل وأنا، لأننا كنا لا نزال شبانا، ولذلك كان يمكن أن نكون "الاصدقاء الاعزاء" فقط أو "الأصدقاء الأعزاء الشبان الموهوبين". لم يقبل من فريدل ومني نصا للإذاعة أبدا، ولكنه أوصى بنا في أماكن ومكاتب تحرير أخرى، وكان يحس أنه مشجعنا، نحن وحوالي عشرين شابا آخر، دون أن يصبح واضحا أبدا أين يكمن هذا التشجيع وعن أية نتائج أسفرت هذه الحظوة. لم يكن ذنبه بالطبع، أن يكون عليه أن يعزينا وأن يمطرنا بالثناء، وإنما ذنب تلك "الحقيبة"، حسب تعبيره، ذنب تلك "العصابة من لصوص النهار" في كل مكان، المستشارين والعناصر الشائخة المعيقة في الوزارات، دوائر الثقافة وفي الاذاعة. كان يتقاضى هناك أعلى راتب ممكن، حصل في فترات مناسبة على جميع التكريمات، الجوائز وحتى الميداليات، التي كان البلد والمدينة يمنحانها، كان يلقي الكلمات في المناسبات الكبيرة واعتُبر رجلا صالحا للتمثيل، واعتبر رغم ذلك واحدا من الرجال الأكثر صراحة واستقلالا. كان يشتم كل شيء، هذا يعني انه كان يشتم دائما الجهة الاخرى بحيث تفرح أحدى الجهتين، وفي مرة أخرى الثانية، لأن الواحدة أصبحت الآن الأخرى. ولنكن دقيقين فانه ببساطة سمى

الأشياء بأسمائها، ولحسن الحظ نادرا الناس، حيث لم يشعر أحد أبدا أنه المعني بشكل خاص.

بدا في الصورة التي خططها الرسام المتسول على الورق كموت خبيث أو مثل واحد من تلك الأقنعة التي يتخذها الممثلون أحيانا لمافيستو أو جاكو. ناولت الورقة الى الذي بعدي مترددا. حين وصلت الى هادرر، راقبته بدقة، وكان علي أن أعترف، انني فوجئت. لم يبدُ ولو للحظة واحدة انه شعر بالصدمة أو الاهانة، أظهر تفوقا، صفق بيديه، ربما ثلاث مرات أكثر مما ينبغي – لكنه صفق، امتدح دائما أكثر مما ينبغي – وصاح عدة مرات "برافو". بهذه الـ"برافو" عبر أيضا عن أنه كان هنا الرجل العظيم الوحيد، الذي يمنح الثناء، وقد أحنى العجوز أيضا رأسه بإجلال ولم يكد ينظر لأنه كان في عجلة لينتهي من رأس بيرتوني.

كان برتوني قد رسم على هذا النحو:

بوجه رياضي جميل، يحق للمرء أن يخمن سمرة الشمس فيه، بعيون متظاهرة بالتقوى، قضت على الانطباع بجاذبية معافاة. باليد المنثنية أمام الفم، بدا وكأنه يخاف أن يقول شيئا بصوت أعلى مما ينبغي، كما لو أن كلمة غير متأنية أفلتت منه.

كان بيرتوني يعمل في "تاغبلات". كان منذ سنوات يشعر بالخجل من الانحدار المستمر في مستوى موضوعاته الثقافية، وهو الآن يضحك بسوداوية أكبرحين ينبهه أحد إلى شطط، إلى خطأ، نقص الموضوعات الجيدة أو المعلومات الصحيحة. ماذا يريدون – في هذه الأوقات! كان ابتسامته تقول. لم يكن يستطيع وحده وقف الانحدار، رغم أنه كان يعرف كيف ينبغي أن تبدو جريدة جيدة. أجل، كان يعرف. عرف ذلك سابقا، ولهذا كان يحبذ الكلام عن الصحف القديمة، عن الفترات العظيمة لصحافة فيينا وكيف عمل في عهد ملوكه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاسطوريين وتعلم منهم. كان يعرف جميع القصص، بجميع الفضائح لما قبل عشرين سنة، كان فقط فترة في البلاد، واستطاع أن يجعل هذه الفترة حية وأن يروي عنها دون أن يترك شيئا. وكان يحب الحديث أيضا عن الفترة المظلمة بعدها، كيف أنه وبعض الصحفيين الآخرين تدبروا أمورهم في السنوات الأولى بعد ١٩٣٨، ما الذي فكروا به وتحدثوا فيه سرا ولمحوا إليه، أي خطر كان يحيق بهم، قبل أن يلبسوا الزي العسكري أيضا وهو لا يزال الآن يجلس متنكرا، يضحك، كان عاجزا عن نسيان الكثير. كان يطلق جمله حذرا. أما ما كان يفكر فيه فلم يعرفه أحد. أصبح التلميح لديه طبعا، كان يفعل ذلك وكأن شرطة الدولة السرية تسمعه، لقد ولدت منها شرطة أبدية كان على بيرتوني أن يختبئ منها. لم يستطع شتيغل أيضا أن يعيد اليه الشعور بالأمان. كان يعرف شتيغل قبل أن يهاجر معرفة جيدة، أصبح صديق شتيغل الحميم ثانية، ليس فقط لأنه كفله بعد ١٩٤٥ مباشرة وأعاده إلى الـ"تاغبلات"، وإنما لأنهما كانا يستطيعان أن يتفاهما حول بعض الأشياء بشكل أفضل مما مع الآخرين خاصة عندما يجري الحديث عن "يومذاك" عندها كانت تستعمل لغة لا بد أن يكون بيرتوني قد استنسخها في فترة ما سابقة، وليس لديه الآن غيرها، وكان سعيدا أن يستطيع التحدث بها مع أحد – لغة سهلة، سريعة، مرحة لا تتلاءم حقا مع مظهره وسلوكه. لغة تلميح أصبح لديه مضاعفا. لم يكن يلمح مثل شتيغل بشيء ليوضح واقعة، ولكنه كان يلمح متجاوزا المسألة، يدخل يائسا ما هو تقريبي.

وضع الرسام الورقة أمامي ثانية، انحنى عليها مالر، نظر اليها برهة وضحك بغطرسة. ناولتها الذي بعدي مبتسما. لم يقل بيرتوني "برافو" لأن هادرر سبقه وفوّت عليه الفرصة، في أن يعبر عن رأيه. نظر إلى

صورته متألما ومفكرا. قال مالر لبرتوني من فوق المائدة بعد أن هدأ هادرر: أنت إنسان جميل، هل عرفت ذلك؟"

وعلى هذا النحو بدا رانتسكي:

بوجه متعجل، الوجه الذي يحاول أن يكون جميلا، الذي أراد أن يومئ قبل أن ينتظر أحدٌ تأييدا منه. حتى أذناه وأجفانه كانت تومئ في الصورة. كان رانتسكي، وهو ما يستطيع المرء أن يكون متأكدا منه، قد أيد. كان الجميع يصمت حين يمس رانتسكي الماضي بكلمة، إذ لم يكن ثمة معنى لأن يكون المرء صريحا مع رانتسكي. كان أفضل للمرء أن ينسى هذا وينساه حين كان يجلس إلى المائدة، كان المرء يحتمله بصمت. أحيانا كان يوميء برأسه، منسيا من الجميع. كان حقا قد بقي سنتين بعد ١٩٤٥ دون مدخول وربما كان في السجن، لكنه الآن استاذ في الجامعة ثانية. كان قد أعاد في كتابه "تاريخ النمسا" كتابة جميع الصفحات التي تمس التاريخ الحديث ونشره مجددا. حين أردت مرة أن استجوب مالر حول رانتسكي قال لي مالر باختصار: "الكل يعرف أنه فعل ذلك بدافع الانتهازية، وانه غير قادر على التعلم، لكنه نفسه يعرف هذا. لهذا لا يقوله له أحد. ولكن لا بد أن يقوله المرء له مع ذلك. "قاله مالر على اية حال بسحنته كل مرة أو عندما كان يجيبه أو يقول له مرة وحسب: "إسمع..." وتوصل بذلك الى أن تبدأ أجفان رانتسكي بالخفقان. نعم جعله يرتجف كل مرة عند التحية وعند أي مصافحة سطحية سريعة. ثم أصبح مالر أكثر قسوة حين كان لا يقول شيئا أو كان يعدل ربطة العنق، ينظر الى أحد ويجعله يفهم أنه يتذكر كل شيء في نفس الوقت. كان له ذاكرة ملاك لا يعرف الرحمة، كان يتذكر في كل وقت، كان لديه ببساطة ذاكرة، ليس كراهية، ولكن هذه القدرة اللا بشرية، أن يحتفظ بكل شيء وأن يجعل الآخر يعرف أنه يعرف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان هوتر قد رسم أخيرا على هذا النحو:

مثل باراباس، لو بدا لباراباس أمرا بديهيا أن يخلي سبيله. بالطمأنينة الطفولية والانتصار على الوجه المدور الماكر.

كان هوتر مخلى السبيل دون حياء، دون ضمير. كان الكل يحبه، أنا أيضا، وربما حتى مالر. أخلوا سبيل هذا، كنا نقول نحن أيضا. كنا مع الزمن قد بلغنا درجة أن نقول على الدوام: أخلوا سبيل هذا. نجح هوتر في كل شيء. نجح حتى في ألا يؤاخذه المرء على نجاحه. كان ممولا، وقد موّل كل ما يخطر على البال، شركة أفلام، صحفا، مجلات مصورة ومؤخرا لجنة اتخذت اسم "الثقافة والحرية"، كسبه إليها هادرر. كان يجلس كل يوم مع ناس آخرين على مائدة أخرى في المدينة. مع مديري المسارح والممثلين، مع رجال الأعمال ومستشاري الوزارات. نشر كتبا، لكنه لم يقرأ كتابا أبدا، كما أنه لم يرَ أيا من الأفلام التي مولها، لم يكن يذهب أيضا الى المسرح، لكنه كان يأتي بعد العرض الى موائد المسرح. لأنه أحب بصدق العالم الذي يُتَحدث فيه حول كل ذلك والذي يجري فيه الاعداد لشيء. كان يحب عالم التحضيرات، عالم الآراء حول كل شيء، الحساب، المكائد، المغامرات، خلط الأوراق. كان يحب النظر الى الآخرين حين يخلطون وكان يشاركهم حين تكون أوراقهم رديئة، يتدخل، أو يراقب، كيف تستخدم الأوراق الرابحة ويتدخل ثانية. استمتع بكل شيء، واستمتع بأصدقائه، القدامى والجدد، الضعفاء والاقوياء. كان يضحك بينما كان رانتسكي يبتسم (كان رانتسكي يشق طريقه بالابتسام، ويبتسم غالبا فقط حين يقتل أحد من الحلقة، غائب، يتوجب عليه أن يلتقي به في الغد، لكنه كان يبتسم بتهذيب وبايحاء مزدوج، فيستطيع أن يقول انه لم يوافق وأنما ابتسم تحفظا فقط، صمت وفكر في نفسه وشؤونه). كان هوتر يضحك بصوت عال، حين يقتل أحد، وكان

أكثر من ذلك قادرا دون أن يفكر في شيء أن يتحدث عن ذلك للآخرين. أو كان يغضب ويدافع عن غائب ولا يدعه يقتل، يدفع الآخرين الى التراجع، ينقذ المهدد ويشارك بعد ذلك فورا دون تكلف في القتل التالي، حين تكون له رغبة في ذلك. كان تلقائيا، يمكن أن يستثار حقا، وكان أبعد ما يكون عن كل ما يتصف بالتفكير والموازنة. انحسرت الآن حماسة هادرر للرسام. أراد أن يعود للحديث، وحين رفض مالر أن يرسم، كان شاكرا له وأشار للرجل العجوز أن يمضي، فسحب هذا نقوده قبل أن ينحني للمرة الأخيرة أمام الرجل العظيم الذي لا بد أن يكون قد تعرف عليه.

آمل متفائلا أن يمضي الحديث الى الانتخابات التالية أو إلى وظائف مديري المسرح الشاغرة التي مدتنا بمادة للحديث طيلة ثلاثة أسابيع. ولكن كل شيء في هذه الجمعة كان مختلفا، لم يكف الآخرون عن الحديث عن الحرب التي وجدوا أنفسهم فيها، لم يخرج أحد من قوة الامتصاص. غرغروا في المستنقع، ارتفعت أصواتهم أكثر وأكثر وجعلوا من غير الممكن لنا في طرف المائدة أن ننتقل الى حديث آخر. كنا مرغمين أن نصغي وأن نحدق أمامنا، أن نفتت الخبز على المائدة، وبين آونة وأخرى تبادلتُ النظرة مع مالر الذي دفع دخان سيجارته ببطء شديد من الفم، نفخه حلقات وبدا منصرفا كليا للعبة الدخان هذه. كان قد ألقى برأسه قليلا الى الوراء مرخيا ربطة عنقه.

سمعت هادرر يقول: "من خلال الحرب، من خلال هذه التجربة اقترب المرء من العدو"

"ممن؟" متلعثما حاول فريدل أن يتدخل. "البوليفيين؟" قال هادرر مترددا، لم يكن يعرف ماذا كان فريدل يعني، وحاولت أنا أن أتذكر ما إذا كانوا يومذاك في حالة حرب مع بوليفيا أيضا. ضحك مالر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضحكة دون صوت، بدا كما لو انه يريد بذلك اعادة حلقة الدخان التي انطلقت إلى فمه.

أوضح بيرتوني بسرعة: "الانكليز، الامريكيين، الفرنسيين."

كان هادرر قد استرد هدوءه وقاطعه بحيوية: "ولكن هؤلاء لم يكونوا بالنسبة لي أبدا أعداء، أرجوك! أنا أتحدث ببساطة عن الخبرات. لم ارد ان أتحدث عن شيء آخر. يمكن أن نتكلم بشكل آخر. نتحدث، نكتب أيضا، لأننا نملكها. فكر في المحايدين وحسب، الذين تنقصهم هذه الخبرات المريرة ومن وقت طويل." وضع يده على عينه "لا أريد أن أفتقد شيئا، ليس هذه السنة، ليست هذه الخبرات."

قال فريدل مثل تلميذ عنيد ولكن بصوت واطئ جدا: "لكن أنا. إنني أستطيع أن أفتقدها."

نظر اليه هادرر بعدم وضوح، لم يظهر انه كان غاضبا، وانما أراد أن يستعلم ما أمكن عن الموعظة التي شرعت تعجب الكل. لكن هوتر دق بمرفقه في هذه اللحظة على المائدة وسأل بصوت عال لدرجة أخرجت هادرر عن طوره. "نعم، كيف يكون ذلك في الواقع؟" الا يستطيع المرء أن يقول أن الثقافة ممكنة فقط من خلال الحرب، الصراع، التوتر. . . الخبرات – أعني الثقافة، كيف يكون ذلك؟"

قام هادرر باستراحة، أنذر هوتر أولا، أنب عدا ذلك فريدل وتحدث بشكل مفاجئ عن الحرب العالمية الاولى، ليتجنب الثانية. كان الحديث عن معركة ايزونتسو، تبادل هادرر ورانتسكي أحداثا شهدوها في الكتيبة ورعدوا ضد الايطاليين، ثم ليس ضد الايطاليين المعادين، وانما ضد الحلفاء في الحرب الأخيرة، تحدثوا عن "الطعنة من الخلف"، عن "القيادة التي لا يوثق بها"، لكنهم فضلوا العودة الى ايزونتسو واستلقوا أولا في الستار الناري في البال الصغير. استغل

بيرتوني اللحظة التي رفع فيها هادرر قدحه عطشانا الى فمه وبدأ دون هوادة برواية قصة غير معقولة ومتشابكة من الحرب العالمية الثانية. عن تكليفه هو وعالم لغة ألماني في فرنسا بإنشاء مبغى، سوء الحظ في ذلك أن لا تكون ثمة نهاية، وقد ضاع بيرتوني في أمتع الاستطرادات. حتى فريدل اهتز فجأة من الضحك، لقد ادهشني، وأدهشني أكثر حين اجتهد فجأة أن يبدو مطلعا على العمليات، الرتب، المعلومات. فقد كان فريدل في سني وكان في أحسن الأحوال قد التحق بالجيش في السنة الأخيرة للحرب مغادرا قمطر المدرسة. ثم لاحظت أن فريدل كان ثملا، وكنت أعرف أن الوضع يصبح صعبا حين يكون قد ثمل، فيتكلم للسخرية فقط ويتدخل بسبب اليأس. وقد سمعت الآن أيضا السخرية في كلماته. ولكني كنت أيضا قد ارتبت فيه للحظة، لأنه عاد الى الآخرين، وضع نفسه في هذا العالم من السخرية، اختبارات الشجاعة، بطولة، طاعة وعصيان، عالم الرجال ذاك الذي كان فيه كل ما كان معمولا به عادة بعيدا، ما انطبق علينا في النهار، والذي لم يكن أحد فيه يعرف بما يتباهى ومم يخجل وما إذا كانت هذه الشهرة وهذا الخجل مطابقين لشيء ما في هذا العالم، الذي كنا مواطنين فيه.

وفكرت في قصة بيرتوني عن سرقة الخنازير في روسيا، وكنت أعرف أن بيرتوني لم يكن قادرا أن يختلس حتى قلم رصاص من مكتب التحرير. كان مستقيما الى هذه الدرجة. أو هادرر على سبيل المثال كان قد حصل على أعلى الجوائز وقد روى عدا ذلك أنه كلف من قبل هوتسندورف بمهمة تتطلب شجاعة كبيرة. ولكن هادرر، كان إذا ما تأمله المرء هنا، إنسانا غير قادر على عمل شجاع على الاطلاق، ولا يمكن أن يكون قد كان كذلك، على اية حال، ليس في هذا العالم. ربما كان كذلك في العالم الآخر، في ظل قانون آخر. ومالر وهو بارد الدم، لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعرف انسانا لا يخاف مثله، كان قد روى لي انه يومذاك، عام ١٩١٤ أو ١٩١٥ ، كانسان شاب في الاسعاف، أغمي عليه وتناول المورفين من أجل أن يكون قادرا على احتمال العمل في المستشفى العسكري. وقد قام بمحاولتين للانتحار وبقي حتى نهاية الحرب في مستشفى للأمراض العصبية. كان الجميع قد قام بعمليات في عالمين، وكانوا مختلفين في العالمين، أنا منفصلة وغير متحدة أبدا، لم يكن لهما أن تلتقيا. كان الجميع الآن ثملين يتبجحون وكان عليهم أن يعبروا المطهر الذي صرخت فيه أناهم المعذبة التي أرادوا أن تستبدل قريبا بأناهم المدنية، انا المحبة، الاجتماعية بالنساء والمهن، المنافسات والمحن من جميع الأنواع. وطاردوا الوحش الأزرق الذي انطلق من أحدى أناهم ولم يعد، وما دام لم يعد بقي العالم جنونا. لكزني فريدل، أراد أن ينهض، وقد جفلتُ حين رأيت وجهه اللامع المتورم. خرجت معه، بحثنا مرتين في الاتجاه الخطأ عن الحمام. في الممر فتحنا لنا طريقا خلال مجموعة من الرجال الذين تدافعوا الى داخل صالة السرداب الكبيرة. لم أكن قد شهدت مثل هذه الزحمة في "كرونن كَلَر" و هذه الوجوه أيضا لم أكن قد رأيتها هنا من قبل. كان الأمر ملفتا للنظر لدرجة انني سألت النادل ما الذي حدث هذا المساء. لم يكن يعرف بالضبط، ولكنه كان يعتقد أنه كان "لقاء رفاق"، لا تُعطى الغرف عادة لمثل هذه الاجتماعات، لكن العقيد فون فينكلر، أنا أعرف، المشهور، سيأتي أيضا ويحتفل مع الجماعة، هو يعتقد انه لقاء في ذكرى نارفيك.

في غرفة الحمام ساد صمت الموتى. استند فريدل الى حوض المغسلة، امسك بلفة المناشف وجعلها تدور دورة.

"هل تفهم" سأل، "لماذا نجلس معا؟"

صمتُ ورفعت مرفقي.

"أنك تفهم ما أعني." قال فريدل بالحاح.

"نعم، نعم" قلت. لكن فريدل تابع الكلام: "هل تفهم لماذا حتى هيرتس ورانيتسكي جلسا معا، لماذا لا يكرهه هيرتس كما يكره لانغر، الذي قد يكون أقل ذنبا وهو اليوم رجل ميت. رانتيسكي ليس رجلا ميتا. لماذا نجلس، أيها الرب في السماء، معا! لا أفهم هيرتس خاصة. لقد قتلوا زوجته، أمه..."

فكرت بجهد ثم قلت: "أفهم، أجل إنني أفهم."

قال فريدل: "لأنه نسي؟ أم لأنه منذ يوم ما يريد أن يطمر الموضوع."

قلت: "كلا، ليس هذا. لا علاقة للأمر بالنسيان. ولا بالعفو أيضا. ليس له علاقة بكل هذا."

قال فريدل: "لكن هيرتس قد ساعد رانتيسكي ثانية. وهما يجلسان الآن معا منذ ثلاث سنوات على الأقل، وهو يجلس مع هوتر وهادرر. إنه يعرف كل شيء عنهم جميعا."

قلت: "نحن أيضا نعرف. وماذا نفعل؟"

قال فريدل بحماسة أشد كما لو أن شيئا خطر له: "ولكن ما إذا كان رانتيسكي يكره هيرتس لأنه ساعده؟ ما رأيك؟ يبدو أنه يكرهه لذلك."

قلت: "لا، لا أعتقد هذا. هو يعني ان الأمر حسن كذلك ويخاف على الأكثر أن يكون ثمة ما هو في الخلفية، أن يأتي شيء ما لاحقا. إنه ليس مطمئنا. الآخرون لا يسألون طويلا، مثل هوتر، ويجدون طبيعيا أن يمضي الوقت وأن تتغير الأزمنة.

يومذاك، بعد ٤٥، ظننتُ أنا أيضا، أن العالم انفرز. والى الأبد، في الخير والشر، لكن العالم ينفرز الآن مرة أخرى وبشكل مختلف. لم يكد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرء يفهم، حدث الأمر بشكل غير ملحوظ، نحن الآن مخلوطون ثانية، من أجل أن يكون الفرز بشكل آخر ممكنا. الأشباح ثانية وأفعال أشباح أخرى، أفعال أخرى. هل تفهم؟ إن الأمر قد مضى إلى هذا الحد حتى لو لم نكن نريد أن ندرك. لكن ليس هذا هو السبب كاملا لهذا التماسك البائس."

هتف فريدل: "ولكن ماذا بعد! فقط أين يكمن الأمر؟ قل شيئا! هل يكمن في أننا متشابهون مهما كان ولذلك نحن معا؟"

" كلا" قلت، "نحن غير متشابهين. لم يكن مالر يوما كالآخرين، وآمل الا نصبح كذلك أبدا." حملق فريدل أمامه: واذن مالر وأنت وأنا، لكننا نختلف أيضا عن بعضنا اختلافا كبيرا، نحن نريد ويفكر كل منا بشكل مختلف. ليس حتى الآخرون متشابهين. هادرر ورانيتسكي مختلفان جدا، يريد رانتيسكي أن يرى عهده يعود مرة أخرى، ولكن ليس هادرر بالتأكيد، إنه يراهن على الديمقراطية وسيبقى على ذلك هذه المرة، هذا ما أشعر به. رانتيسكي يستحق الكره، وهادرر كذلك، هذا باق بالنسبة لي رغم كل شيء، لكنهما ليسا متشابهين. وثمة فرق بين أن يجلس المرء مع أحدهما أو معهما معا على مائدة واحدة. وبيرتوني...!"

حين صرخ فريدل بالاسم، دخل بيرتوني وأحمر وجهه تحت السمرة. اختفى وراء باب، وصمتنا برهة. غسلت يدي ووجهي. همس فريدل: "ثم أن الكل متحالف مع الكل، أنا أيضا، لكني لا أريد! وأنت أيضا متحالف!"

قلت: "لسنا متحالفين، لا يوجد تحالف. إنه أسوأ من ذلك بكثير. أعتقد أن علينا أن نعيش مع بعضنا، غيراننا لا نستطيع أن نعيش مع بعضنا. في كل رأس عالم ومطلب، يستبعِد اي عالم آخر، أي

مطلب آخر. لكننا جميعا نحتاج الى بعضنا، إذا ما أريد أن يؤتى بأي شيء جيد وكامل. ضحك فريدل بخبث: "نحتاج، طبعا، هو ذاك، يعني انني قد احتاج مرة هادرر..."

قلت: "لم أعن هذا."

فريدل: "ولكن لم لا؟ سأحتاجه، إنك تتحدث بشكل عام بسهولة، ليس لديك زوجة وثلاثة أطفال. وقد تحتاج، إذا لم تحتج هادرر، شخصا آخر ذات مرة، والذي لن يكون أفضل."

لم أجب.

"لي ثلاثة أطفال"، صاح، ثم أشار، محركا يده يمينا ويسارا نصف متر فوق الأرض، كم كان الأطفال صغارا.

"كف عن هذا." قلت، "هذه ليست حجة. لا نستطيع أن نتكلم على هذا النحو."

غضب فريدل: "أجل، إنها حجة، أنت لا تعرف أبدا، أي حجة قوية هذه. لكل شيء تقريبا. لقد تزوجت في الثانية والعشرين. ماذا أستطيع حيال ذلك؟ ليس لديك فكرة عما يعني ذلك، ليس لديك حتى فكرة!"

مطّ وجهه واستند بكل قوته على حوض المغسلة. ظننت أنه يهوي. خرج بيرتوني ثانية، لم يغسل حتى يديه وغادر الغرفة بسرعة، كما لو أنه كان يخاف أن يسمع اسمه ثانية، بل وأكثر من اسمه.

ترنح فريدل وقال: "أنت لا تحب هيرتس، ألستُ على حق؟"

أجبته على مضض: "كيف خطر لك ذلك؟ ..حسنا، وإذن، أنا لا أحبه. لأنني آخذ عليه أنه يجلس معهم. لأنني آخذ عليه هذا دائما. لأنه يشارك في تعذر جلوسنا معه ومع بضعة آخرين الى مائدة أخرى. لكنه يتكفل بأن نجلس جميعا الى مائدة واحدة."

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فريدل: "أنت مجنون، أكثر جنونا مني. تقول أولا اننا نحتاج إلى بعضنا، والآن تلوم هيرتس على هذا. إنني لا ألومه على ذلك. إن له الحق في أن يكون صديقا لرانتيسكي."

قلت مغتاظا: "كلا، ليس له الحق. ليس لأحد الحق، ليس له أيضا."

"نعم، بعد الحرب قال فريدل، " كنا قد فكرنا هنا، أن العالم انقسم الى طيب وشرير إلى الأبد. لكنني سأقول لك كيف سيبدو العالم حين ينقسم بنقاء. كان كذلك حين جئت الى لندن والتقيت بأخ هيرتز. كان الهواء قدقطع عني. لم أكد أستطيع التنفس، لم يكن يعرف عني، ولكن لم يكفه حتى أن أكون شابا، سألني حالا: أين كنتَ في ذلك الوقت وماذا فعلت؟ قلت، كنت في المدرسة وقد قتل أخي الأكبر كهارب من الجندية، قلت أيضا انه كان علي في البداية أن أشارك، مثل الجميع في صفي. لم يطرح سؤالا آخر أبعد من ذلك، لكنه بدأ يسأل عن بعض الاشخاص الذين عرفهم، أيضا عن هادرر وبيرتوني، عن كثيرين. حاولت أن أقول ما أعرف، وهكذا اتضح أن بعضهم كان يشعر بالأسف، كان البعض يخجل، نعم، لم يكن المرء يستطيع أن يقول في أحسن الأحوال أكثر من هذا، وثمة آخرون كانوا موتى، والغالبية أنكرت وتسترت، هذا ما قلته أيضا. سينكر هادرر دائما، يُزوِّر ماضيه، أليس كذلك؟ ولكني لاحظت بعدذلك، أن هذا الرجل لم يعد يسمعني، كان متجمدا في فكرة، وحين بدأت اتحدث عن الفروق ثانية، قلت لأكون منصفا، ربما لم يقم برتوني بعمل ردىء في ذلك الوقت وانه في أسوأ الأحوال كان جبانا، قاطعني وقال: كلا، لا تضع فروقا. لم تكن بالنسبة لي ثمة فروق الآن والى الأبد. لن أدخل هذا البلد أبدا بعد . لن أمضي بين القتلة." –

"إنني أفهم، بل أفهمه أفضل من هيرتس. رغم –"، قلت ببطء،

"هذا حقا لا يصح أيضا، لفترة وحسب، طالما أن أسوأ المساوئ يدوم. لا يكون المرء ضحية مدى الحياة، هذا لا يصح. "يبدو لي، أن الأمور لا تسير في العالم على مايرام بأي شكل. إننا نواجه هنا صعوبة ولسنا قادرين حتى على الانتهاء من هذه الحالة الصغيرة المكدرة، وقبل ذلك كان آخرون قد واجهوا صعوبة ولم يستطعوا أن يجدوا حلا لشيء، وركضوا الى الفساد، كانوا ضحايا أو جلادين، وكلما تعمق المرء في الوقت كلما أصبح الأمر أكثر وعورة، لا أستطيع أحيانا أن أعرف نفسي في التاريخ، لا أدري ، فيما أستطيع أن أعلق قلبي، في أي حزب، جماعة، قوة، فالمرء يتعرف على قانون العار بعد أن يكون كل شيء قد ارتُكب. ويستطيع المرء دائما أن يكون إلى جانب الضحية وحسب، وهذا لا يثمر شيئا، إنهم لا يدلون إلى الطريق."

"هذا هو الفظيع" صرخ فريدل، "الضحايا، الضحايا الكثيرون، الكثيرون، لا يدلونك إلى طريق. ويتغير الزمن بالنسبة للقتلة. الضحايا هم الضحايا. هذا كل شيء. كان والدي ضحية عهد دولفوس، جدي ضحية الملكية، أخي ضحية هتلر، لكن هذا لا يساعدني في شيء، هل تفهم ما أعني؟ سقطوا فقط، دهستهم العربات، أطلقت عليهم النار، صفوا لصق الحائط، ناس صغار، لم يشكلوا آراء ولم يفكروا كثيرا. أجل اثنان أو ثلاثة فكروا بشيء حول هذا، فكر أبي في الجمهورية القادمة، ولكن قل لي، لأي شيء؟ ألم تكن تستطيع القدوم دون هذا الموت؟ وفكر أبي في الاشتراكية الديمقراطية، ولكن قل لي، من يحق له أن يطلب منه الموت، إنه بالتأكيد ليس حزبنا للعمال الذي يريد الفوز في الانتخابات. لا يحتاج ذلك موتا. ليس لذلك. قتل يهوداً لأنهم كانوا يهودا، كانوا ضحايا فقط، ضحايا كثيرين، ولكن ليس لدرجة يخطر معها للمرء اليوم أخيرا أن يقول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للأطفال أنهم بشر؟ الوقت متأخر، ألا ترى ذلك؟ كلا، هذا ما لا يفهمه أحد، أن يكون الضحايا من أجل لا شيء! لا يفهم أحد هذا بالضبط ولذلك لا يشعر أحد بالإهانة، إنه يجب أن يقدّم هؤلاء الضحايا فوق ذلك من أجل التبصر أيضا. لا يحتاج الأمر لهذا التبصرعلى الاطلاق. من لا يعرف هنا أن المرء لا ينبغي أن يقتل؟ أن هذا معروف من ألفي سنة. هل ينبغي أن تقال كلمة أخرى بهذا الشأن؟ آه، لكن في خطبة هادرر الأخيرة، سيجري الحديث عنها طويلا، هنا يكتشف هذا الآن فقط، إنه يكور في فمه انسانية، يستشهد بمقولات من الكلاسيكيين، يحشد آباء الكنيسة وأحدث العبارات الميتافيزيقية المبتذلة. هذا هو الجنون. كيف يستطيع إنسان أن يصنع حول ذلك كلمات. هذا بله أو وضاعة تماما. من نكون نحن ليقال لنا مثل هذه الأشياء؟"

وبدأ ثانية: " ينبغي لأحد ما أن يقول لي لماذا نجلس هنا معا. يجب أن يقول لي أحد هذا، وسأسمع. فهذا لا مثيل له، وما سينتج عنه سيكون لا مثيل له أيضا. "

لم أعد أفهم هذا العالم! – هذا ما قلناه لأنفسنا مرارا في الليالي التي شربنا فيها وتحدثنا وأبدينا آراءنا. لكن بدا مفهوما لكل واحد للحظات. قلت لفريدل، إنني أفهم كل شيء وانه ليس محقا في ألا يفهم. لكنني أيضا بعد ذلك لم أعد أفهم فجأة، وقد فكرت الآن أنني نفسي لا أستطيع العيش معه، وبالطبع أقل من ذلك مع الآخرين. ببساطة لم يكن العيش مع شخص مثل فريدل في عالم واحد ممكنا، يتفق المرء معه حقا في أشياء كثيرة، ولكن كان وجود العائلة بالنسبة له حجة، أو مع شتيغل الذي كان الفن حجة له، أحيانا لم أكن أستطيع أن أعيش مع مالرالذي كان أحب إلي من الآخرين في عالم واحد. هل أعرف

حين أتخذ قراري التالي عما إذا كان سيتخذ نفس القرار؟" إلى الوراء" كنا متفقين مع بعضنا، ولكن ما يتعلق بالمستقبل؟ ربما انفصلت أنا أيضا عنه وعن فريدل قريبا – كنا نستطيع أن نأمل فقط ألا نكون مفترقين.

نهنه فريدل، أعتدل، وتذبذب إلى أول باب للمراحيض. سمعته يتقيأ، غرغر وحشرج وخلال ذلك قال: "لو صعد ذلك كله، لو استطاع المرء أن يتقيأ كل شيء، كل شيء!"

حين خرج، نظر اليّ بوجه مغتم وقال: "سأشرب قريبا نخب الأخوة مع الذين هنا في الداخل، ربما حتى مع رانتيسكي. سأقول...."

أمسكت بوجهه تحت صنبور الماء، جففته له، ثم أمسكته من ذراعه. "لن تقول شيئا!" كنا قد بقينا فترة طويلة غائبين وكان علينا أن نعود إلى المائدة. حين مررنا بالقاعة الكبيرة، ضج رجال "لقاء الزملاء" ضجيجا لم أفهم معه كلمة مما كان فريدل يقوله. بدا ثانية أفضل. أعتقد أننا ضحكنا من شيء ما، من أنفسنا في الظاهر،حين دفعنا الباب إلى غرفة خاصة.

دخان أكثر كثافة ملأ الهواء، ولم نكد نستطيع من خلاله رؤية حتى المائدة. حين اقتربنا وعبرنا الدخان وتجردنا من جنوننا، رأيت رجلا لا أعرفه يجلس قرب مالر. صمت كلاهما وتكلم الآخرون. حين جلسنا فريدل وأنا ثانية ورمانا بيرتوني بنظرة مضببة، نهض المجهول وصافحنا، همهم باسم. لم يكن فيه أقل قدر من الود، ليس فيه ما هو منفتح على الاطلاق، كانت نظرته باردة وميتة، وقد نظرت إلى مالرالذي يفترض أنه يعرفه متسائلا. كان رجلا فارع الطول، في بداية الثلاثين من عمره، رغم أنه بدا في اللحظة الأولى أكبر من ذلك. لم يكن سيء المظهر، لكنه بدا كما لو أن أحدا قد أهداه بدلة أكبر قليلا مما يقتضيه حجمه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

احتاج الأمر الى برهة من الزمن حتى استطيع أن أفهم شيئا من الحديث. الذي لم يشارك فيه لا مالر ولا الغريب.

هادرر لهوتر: "ولكنك تعرف أيضا الجنرال تسفيرل!"

هوتر منشرحا لهادرر: "طبعا. من غراتس"

هادرر: "إنسان مثقف. واحد من أفضل الذين يعرفون الاغريقية. واحد من أحب أصدقائي القدامى إلي."

كان يُخشى الآن أن يلومنا هادرر، فريدل وأنا على معرفتنا الناقصة بالاغريقية واللاتينية، دون النظر إلى أن أمثاله قد أعاقونا عن تحصيل هذه المعرفة في الوقت المناسب. لكن لم يكن لدي المزاج للدخول في واحدة من الموضوعات المفضلة لدى هادرر، ناهيك عن تحديه، إنما انحنيت إلى مالر، كما لو كنت لم أسمع. قال مالر شيئا بصوت هامس للغريب، وأجاب هذا ناظرا الى الأمام، بصوت عال. أجاب على كل سؤال بجملة واحدة فقط. أظن أنه كان من مرضى مالر أو صديقا له على اية حال، يتعالج لديه. كان مالر يعرف جميع الأفراد الممكنين وكانت له صداقات لم نكن نعرف عنها. كان الرجل يمسك بعلبة سجائر في أحدى يديه ويدخن بالأخرى كما لم أر أحدا يدخن. كان يدخن بصورة ميكانيكية ويرتشف في فترات منتظمة تـ اما من السيجارة، كما لو كان التدخين هو كل ما يستطيعه. من بقية السيجارة، بقية قصيرة جدا، أحترق منها، دون أن يقطب وجهه، أشعل السيجارة التالية ودخن من أجل حياته.

توقف فجأة عن التدخين، أمسك السيجارة بيديه العملاقتين القبيحتين المحمرتين مرتجفا وأمال رأسه. الآن سمعت ذلك أنا أيضا. رغم أن الأبواب كانت مغلقة، صدح من القاعة الكبيرة في الجانب الآخر من الممر ووصل إلينا الغناء الزاعق. بدا مثل " في الوطن، في الوطن، هنا ثمة لقاء. . . "

رشف سريعا من سيجارته وقال مخاطبا ايانا بصوت عال، بنفس الصوت الذي أجاب به على أسئلة مالر:

"هؤلاء يعودون دائما إلى الوطن. إنهم كما يبدو لم يعودوا بعد تماما."

ضحك هادرر وقال: "لا أدري كيف علي أن أفهمك، ولكن هذا حقا ازعاج غير معقول، ويا صديقي المحترم، كان بامكان العقيد فينكلر أيضا أن يحمل رجاله على قدر أكبر من الهدوء.... إذا استمر الأمر على هذا النحو، يجب أن نبحث لنا عن محل آخر."

اعترض بيرتوني قائلا إنه تحدث مع صاحب المحل، انها حالة استثنائية، لقاء مقاتلي الجبهة هذا، بسبب يوبيل كبير، هو أيضا لا يعرف بالضبط . . .

قال هادرر أنه لا يعرف هو الآخر بالضبط، لكن صديقه المحترم ورفيقه السابق. . .

فاتني ما قاله لنا الغريب، الذي واصل الكلام بينما طغى صوت هادرر وبيرتوني عليه – كان فريدل وحده قد استمع اليه – لذلك لم يكن واضحا لي، لماذا قال فجأة أنه قاتل.

"... لم أكن قد بلغت العشرين، يومذاك كنت قد عرفت"، قال مثل شخص لايروي قصته للمرة الاولى، وأنما لا يستطيع أن يتحدث في كل مكان عن شيء آخر ولا يحتاج الى مستمع معين وانما يكفيه أي مستمع كان. "عرفت أنه قدري، أن أكون قاتلا، كما يُقدر للبعض أن يكون بطلا أو قديسا أو شخصا عاديا. لم ينقصني شيء لذلك، لا خصلة، إذا أردتم، وقد دفعني كل شيء الى هدف واحد: أن أقتل. لم يكن ينقصني سوى الضحية. ركضت يومها في الشوارع ليلا، هنا" – أشار أمامه من خلال الدخان، وتراجع فريدل بسرعة الى الوراء، كي لا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تمسه اليد – "هنا ركضت خلال الأزقة، حيث عبقت زهورالكستناء، كان الهواء مشبعا دائما بعطر زهور الكستناء، في الشوارع المستديرة وفي الأزقة الضيقة وكان قلبي ينخلع، ورئتاي تعملان بجنون، جناح محشور، وقد خرجت أنفاسي مني مثل أنفاس ذئب يطارد صيدا. إنني فقط لم أكن أعرف بعد كيف علي أن أقتل، ومن علي أن أقتل. كانت لدي يداي فقط، ولكن ما إذا كانتا كافيتين أن تضغطا على رقبة؟ كنت يومها أضعف كثيرا وأعاني من سوء التغذية. لم أكن أعرف أحدا أستطيع أن أكرهه، كنت وحيدا في المدينة، وهكذا لم أجد الضحية وأصبحت في الليل مجنونا لذلك. كان ذلك في الليل على الدوام، كان علي أن أنهض وأهبط، أن أخرج، أقف وانتظر في زوايا الشوارع التي تهب فيها الريح، الخالية المظلمة، كانت الشوارع هادئة هكذا يومذاك، لم يكن يمر أحد، لم يكلمني أحد، وانتظرت، حتى بدأت أتجمد من البرد وأبكي من الضعف وذهب عني الجنون. لم يدم ذلك إلا زمنا قصيرا. ثم سحبت إلى الجيش. حين أمسكت بالبندقية في يدي، عرفت أنني قد ضعت. سأطلق الرصاص ذات مرة. سلمت نفسي لهذه الماسورة، حشوتها بالطلقات، التي اكتشفت أنها جيدة مثل البارود، كان هذا مؤكدا. في التدريبات لم أصب الهدف، ولكن ليس لأنني لم أستطع التهديف، ولكن لأني عرفت أن (النقطة) السوداء الشبيهة بالعين لم تكن عينا، وأنها كانت هناك نيابة فقط، هدفاً للتدريب، لا يؤدي الى موت. أربكتني، كانت شبيهة مغرية، ليست حقيقية. أطلقت، إذا شئتم، باصابة مؤكدة خارج الهدف. تعرقت بشكل فظيع خلال هذا التمرين، بعد ذلك كثيرا ما كان وجهي يزرق بعد التمرين، أتقيأ، ويكون علي أن أضطجع. كنت إما مجنونا أو قاتلا، هذا ما عرفته بالضبط، وبالبقية الأخيرة من مقاومة

هذا المصير تحدثت حول ذلك مع الأخرين كي يحموني، كي يحموا أنفسهم مني ويعرفوا مع من يتعاملون. لكن أبناء الفلاحين، الحرفيين والمستخدمين الذين كانوا في غرفتي، لم يجدوا في ذلك بأسا، أسفوا لأجلي أو ضحكوا مني، لكنهم لم يعتبروني قاتلا. أم أنهم فعلوا ذلك؟ لا أدري. قال لي أحدهم "جاك الجزار"، موظف في البريد، كان يذهب الى السينما كثيرا ويقرأ، شخص ذكي، لكني أعتقد أنه في الواقع لم يعتقد ذلك."

أطفأ الغريب سيجارته، نظر بسرعة الى الأسفل، ثم إلى الأعلى، شعرت بنظراته الطويلة الباردة موجهة الي ولا أعرف لماذا تمنيت أن أستطيع الصبر على هذه النظرة. تحملتها لكنها امتدت أطول من النظرة التي يتبادلها المحبون والأعداء، امتدت إلى اللحظة التي لم أعد فيها قادرا على التفكير أو ابداء الرأي، وكانت فارغة الى الدرجة التي جعلتني أصل الحديث حين سمعت الصوت المرتفع المنتظم ثانية.

"جئنا الى ايطاليا، إلى مونتي كاسينو. كانت تلك هي أكبر مجزرة تستطيعون تصورها. هناك ذبح اللحم، حتى أن المرء ليعتقد أنه متعة بالنسبة لقاتل. لكنه لم يكن كذلك، رغم انني كنت متأكدا تماما اني كنت قاتلا، واني كنت نصف سنة أتجول ببندقية في العلن. لم تعد لدي حين وصلت الى موقع مونتي كاسينو جذاذة من روح، تنفست رائحة الجثث، رائحة الحريق ورائحةالمخابىء مثل أنقى هواء في الجبال. لم أشعر بخوف الآخرين، كان بوسعي أن أقيم حفلة زفاف لأول قتل قمت به. حيث أن ما كان بالنسبة للآخرين ميدان حرب كان بالنسبة لي ميدان قتل. غير أني أود أن أقول لكم كيف حدث الأمر. لم أطلق الرصاص. صوبت أول مرة حين وجدنا مجموعة من البولونيين أمامنا، كانت هناك قطعات من كل البلدان. عندها قلت لنفسي: كلا ليس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البولونيين. لم تكن تناسبني، هذه التسميات للآخرين – بولونيون، امريكان، سود – بهذه اللغة العامية. حسنا، لا أمريكان ولا بولونيين. كنت قاتلا بسيطا، لم تكن لدي ذريعة، وكانت لغتي واضحة، ليست مزوقة كلغة الآخرين «ابادة»، «سحق»، «شوي»، لم تكن هذه المفردات بالنسبة لي موضع جدل، كانت تقرفني، لم أكن أستطيع نطقها. هكذا إذن كانت لغتي واضحة، قلت لنفسي: يجب أن، وإنك لتريد أن تقتل إنسانا. نعم هذا ما أردته ومن زمن طويل، منذ سنة بالضبط تحرقت لذلك. إنسان! لم أكن أستطيع اطلاق الرصاص، ينبغي أن تفهموا ذلك. لا أدري ما إذا كنت أستطيع أن أوضح لكم ذلك تماما. كان الأمرسهلا للآخرين، كانوا ينجزون حصتهم، لم يكونوا ليعرفوا غالبا ما إذا كانوا قد أصابوا أشخاصا وكم عددهم، ما كانوا أيضا ليريدوا أن يعرفوا. لم يكن هؤلاء الرجال قتلة، أليس كذلك؟ أرادوا أن ينجوا أو يحصلوا على الأوسمة، كانوا يفكرون في عوائلهم، أو في النصر والوطن، بالمناسبة لم يفعلوا في تلك اللحظة، وقتذاك لم يعد ذلك ممكنا، إذ كانوا في الفخ. ولكني فكرت في الموت بلا كلل. لم أطلق الرصاص. بعد اسبوع، حين أمسكت المعركة مرة أنفاسها، حين لم نعد نر شيئا من قطعات الحلفاء، حين حاولت الطائرات فقط أن تقضي علينا ولم يكن كل شيء قد غدا لحما هناك، كما كان ينبغي أن يكون، سحبت إلى روما وقدمت لمحكمة عسكرية. قلت هناك كل شيء عن نفسي، ولكن لم يرد المرء أن يفهمني، ودخلت السجن. حكم علي بسبب الجبن أمام الأعداء وتفتيت القدرة الدفاعية، كانت هنا نقاط أخرى، لم أعد أتذكرها بالضبط. ثم أخرجت فجأة ثانية، جيء بي الى الشمال للمعالجة في مستشفى للأمراض النفسية. أعتقد أنني شفيت والتحقت بعد نصف

سنة بوحدة أخرى، حيث لم يبق من القديمة أحد، ومضينا الى الشرق، إلى معارك العودة."

قال هوتر الذي لم يطق خطبة طويلة كهذه وود لو يأتي بشخص آخر يروى القصص والطرف، وهو يكسر كعكة : "الآن، وهل استقام الأمر بإطلاق الرصاص، سيدي؟"

لم ينظر الرجل إليه وبدلا من أن يشرب ثانية مثل كل الآخرين في هذه اللحظة، دفع قدحه بعيدا إلى وسط المائدة. نظر إلي، ثم إلى مالرثم إلي ثانية، فحولت نظري هذه المرة عنه.

"كلا." قال أخيرا، "كنت قد شفيت، لذلك لم يكن ذلك ممكنا. إنكم ستفهمون هذا، سادتي. بعد شهر اعتقلت ثانية وحتى نهاية الحرب في نفس المعسكر. ستفهون، لم أستطع أن أطلق الرصاص. حين لم أعد استطيع أن أطلق الرصاص على إنسان، كم قل عددهم، هكذا بشكل تجريدي، «الروس». لم أكن أستطيع تصور شيء تحت هذا الاسم على الاطلاق. وعلى المرء أن يستطيع أن يتصور شيئا."

"شخص مضحك" قال بيرتوني لهوتر بصوت واطئ، سمعته مع ذلك وخشيت أن يكون الرجل قد سمعه أيضا.

أشار هادرر إلى النادل أن يأتي وطلب قائمة الحساب. من الصالة الكبيرة سمع الآن صوت فرقة ضخمة من الرجال، كانت تشبه صوت الفرقة في الاوبرا حين تُقصى خلف الكواليس. كانوا يغنون : "أيها الوطن، نجومك..."

أبقى الرجل الغريب رأسه منحنيا وهو يصغي، ثم قال: "كما لو لم يمض يوم" و "ليلتكم سعيدة!" نهض ومضى عملاقا ومعتدلا تماما باتجاه الباب. نهض مالر هو الآخر، وقال رافعا صوته: "إسمعوا!" كان ذلك تعبيرا دائما لديه، لكني عرفت انه يريد أن يُستمع إليه الآن بالفعل. ومع ذلك رأيته أول مرة غير مطمئن، نظر الى فريدل وإلي كما لو كان يريد نصيحة. حدقنا فيه، لم تكن ثمة نصيحة في نظراتنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضيعنا الوقت في الأرقام، مضى مالر مغتاظا، مفكرا ومتزاحما جيئة وذهابا، التفت فجأة الى الباب، فتحه، وتبعناه، حيث كان الغناء قد انقطع فجأة، كان يمكن سماع أصوات منفردة ، مبعثرة فقط. وفي نفس الوقت كانت ثمة حركة في الممر تشي بفعل أو حادث.

اصطدمنا في الممر ببضعة رجال، كانوا يصيحون، صمت الآخرون مضطربين. لم نرَ الرجل في أي مكان. وجه أحدهم الكلام إلى هادرر، الأرجح أنه هذا العقيد، وجهه شاحب، تحدث بطبقة صوت عالية. سمعت نتفا من الجملة: "... استفزاز لا يصدق... أرجوك... جنود الجبهة السابقون.." . صرخت في مالر أن يتبعني، ركضت إلى السلم وصعدت الدرجات التي كانت مظلمة بعدة قفزات، رطبة وحجرية كما في الأنفاق التي تؤدي إلى الليل والعراء. كان يستلقي غير بعيد عن مدخل السرداب. انحنيت عليه. كان ينزف من عدة جروح. ركع مالر قربي، سحب يدي عن صدر الرجل وأفهمني إنه كان قد مات.

دوّى الليل في داخلي، وكنت في جنوني. حين عدت في الصباح إلى البيت ولم تعد فيّ فورة، حين وقفت في غرفتي فترة أطول وحسب، وقفت ووقفت دون أن أستطيع أن أتحرك ودون أن أصل إلى السرير، شاحبا، وشارد الذهن، رأيت الدم على باطن يدي. لم أرتعب، شعرت كما لو أنني حصلت على مناعة من خلال الدم، ليس لأكون غير قابل للجرح، وإنما كي لا تستطيع بذلك أبخرة يأسي، ميلي إلى الانتقام، حنقي أن تغادرني. ليس ثانية أبدا، ليس مرة أخرى. وإذا ما أنهكتني هذه الأفكار القاتلة، التي نهضت في، فإنها لن تصيب أحدا، كما لم يقتل هذا القاتل أحدا وكان ضحية فقط – للا شيء.

ولكن من يعرف هذا؟ من يجرؤ على قول هذا؟

خطوة نحو عاموراء

كان آخر الضيوف قد ذهب. بقيت فتاة تلبس بلوزا اسود وتنورة حمراء وحدها جالسة، لم تنهض مع الآخرين. "إنها مخمورة" فكرت شارلوتا حين عادت إلى الغرفة. إنها تريد أن تتحدث معي وحدنا. ربما أن تروي لي شيئا. وأنا ميتة من التعب. أغلقتِ الباب الذي كانت تقف فيه مترددة لتعطي الضيفة فرصة أخرى لترى الباب المفتوح، ورفعت من فوق الكومدينة نفاضة سجاير انهمرت على حافاتها رقائق الرماد.

في الغرفة، كراسٍ سحبت من مواضعها، منديل ورقي مكور مرمي على الأرض، الهواءُ اللزج والفوضى، الفراغ بعد الغارة. شعرت بالغثيان. كانت لا تزال تمسك بعقب سيجارة مشتعل وتحاول أن تضغطه لينطفئ في كومة أعقاب السجائر والرماد. بدأ يدخن الآن. ضيقت عينيها وهي تنظر الى الأريكة في الزاوية، إلى الشعر المرسل اللامع المائل إلى الحمرة، إلى التنورة الحمراء التي انتشرت كقبعة سقطت فوق ساقي الفتاة وغطت القدمين والسجادة والأريكة في نصف دائرة ثم انسحبت على الأرض. رأت تلك الألوان الحمراء غيرالمتجانسة في الغرفة أكثر مما فعلت الفتاة نفسها، الضوء الذي يخترق مظلة المصباح الحمراء، يتطاير أمامه عمود من الغبار، خلفه صف من أغلفة كتب حمراء على الرف. تنورة الصوف الفوضوية والشعر الرخو. بدا كل شيء للحظة كما لا يمكن أن يكون ثانية. مرة وحيدة كان العالم أحمر. انفتحت عينا الفتاة، شيئان مبتلان، داكنان، مخموران، والتقيتا بعيني المرأة. فكرت شارلوتا: سأقول انني لست على ما يرام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وانني يجب أن أذهب للنوم. يجب فقط أن أجد هذه الجملة المهذبة المناسبة التي تحملها على الذهاب. يجب أن تذهب. لماذا لاتذهب؟ إنني أموت تعبا. لماذا لا يذهب الضيوف أبدا؟ لماذا لم تذهب مع الآخرين؟

لكنها ضيعت اللحظة المناسبة، لقد وقفت أطول مما ينبغي صامتة. مضت بهدوء إلى المطبخ، نظفت نفاضة السجائر. غسلت وجهها في عجالة، غسلت المساء الطويل، الابتسامات الكثيرة، الانتباه، النظر المجهد في كل مكان. بقيت أمام عينيها: التنورة الواسعة ذات حمرة المَوت التي كان ينبغي أن تضرب معها الطبول.

ستروي لي قصة. لماذا أنا بالذات؟ إنها تبقى لأنها تريد أن تتحدث معي. ليس لديها نقود، أو انها لا تتدبر أمرها في فيينا، إنها من هناك، سلافية، نصف سلافية، من الحدود، من الجنوب على أية حال. إسمها يشير إلى ذلك أيضا، مارا. لا بد أن تكون شيئا من هذا القبيل. التماس، قصة، قصة ما، تريد بها أن تنيمني. لا بد أنها في فيينا وحيدة منذ فترة طويلة أو أنها تورطت في قصة ما. سأسأل فرانس غدا عن هذه الفتاة.

غدا!

اصيبت شارلوتا بالذعر. راجعت واجباتها بسرعة: في الصباح الباكر استقبال فرانس، توقيت المنبه، أن تكون نضرة، قد نامت جيدا، أن تعطي انطباعا مبهجا. لم يعد ثمة وقت تضيعه. ملأت بسرعة قدحين بالماء المعدني وحملتهما إلى الغرفة. ناولت واحدا إلى الفتاة التي شربته صامتة ثم قالت بفظاظة وهي تضع القدح جانبا: وأذن فهو سيعود غدا.

نعم قالت شارلوتا. شعرت بالاهانة متأخرة فأضافت : من؟

كان الأوان قد فات.

إنه كثير الاسفار، وأنت تبقين وحدك كثيرا.
أحيانا، ليس غالبا. أنت تعرفين ذلك.
هل تريدين أن أذهب؟
لا، قالت شارلوتا.
لدي شعور بأن الرجل الذي تكلم كثيرا ودَّ هو الآخر أن يبقى.
كلا، قالت شارلوتا.
لدي شعور... لوت مارا فمها.
كانت شارلوتا مغتاظة، لكنها كانت لا تزال تجيب بمجاملة: كلا، بالتأكيد لا. نهضت. سأعد لنا قهوة. ثم أطلب سيارة تاكسي.
الآن نجحت في العثور على الجملة. استعادت الأرض تحت أقدامها. هل كان يعني شيئا للفتاة أن تدفع هي اجور التاكسي ، لم تسمح لنفسها قبل كل شيء بهذة الملاحظة.
انتفضت مارا واقفة وامسكت بذراع شارلوتا.
قالت: كلا، لا أريد ذلك. لقد دخلتِ المطبخ بما يكفي مساء هذا اليوم. نستطيع أن نشرب قهوة في الخارج. تعالي. تعالي نخرج، نذهب بعيدا. أعرف هنا حانة، سنذهب، أليس كذلك؟
حررت شارلوتا ذراعها ومضت دون جواب لتحضر المعطف. دفعت الفتاة إلى الباب. شعرت بالارتياح. على السلالم التي كانت مظلمة، يضيؤها بخفوت المصباح الموجود في الساحة مع كل انحناء وحسب، امتدت اليها يد مارا، امسكت ذراعها ثانية. خافت من أن الفتاة قد تسقط فسحبتها ودعمتها في نفس الوقت حتى أصبحتا في الأسفل وبلغتا البوابة.
بدت ساحة الفرانسيسكانر وكأنها ساحة ريفية. هدوء، طرطشة ماء النوافير، هدوء. كان المرء ليود أن يشم عن قرب الساحات الخضراء والغابات، أن ينظر الى القمر، الى السماء التي عادت كثيفة ملونة بزرقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الليل بعد نهار ضاج. في زقاق فايبورغ لم يكن ثمة مارة. مضتا بسرعة صعودا حتى شارع كيرتنر وفجأة تناولت مارا يد شالوتا مثل طفل خائف. امسكتا أيدي بعضهما ومضتا أكثر سرعة كما لو كانتا تتعقبان أحدا. بدأت مارا تركض ، وفي الآخر ركضتا مثل تلميذتين، كما لو لم تكن ثمة طريقة أخرى للمشي. كانت أساور مارا تصلّ ويضغط أحدها على معصم شارلوتا فيؤلمها، يحثها على الاسراع.

أجالت شارلوتا بصرها في مدخل البار الدافئ والخالي من الهواء وقد اصيبت بالاضطراب.

فتحت مارا لها الباب الى الداخل. كان كل شيء أحمر ثانية. الآن كانت الجدران أيضا حمراء، حمرة الجحيم، الكراسي والموائد، الأنوار التي بدت مثل اشارات المرور التي تنتظر ان يحل الضوء الأخضر للصباح محلها. وهي تريد الآن أن تبقي الليل، أن تستبقي الناس في الليل، في الدخان، في النشوة. لكن درجات اللون الأحمر كانت أضعف تأثيرا من الأحمر الكثير قبل ذلك، لأنها لم تعدها صدفة وقد أضعفت أيضا ذكراه، وابتلع شعر مارا وتنورتها الواسعة حمراء في الهاوية المتثائبة.

كان الشرب والرقص يجري دون رغبة، ومع ذلك شعرت شارلوتا أنها دخلت غرفة في الجحيم، لتحرق وتتألم من عذابات لا تزال تجهلها. كانت الموسيقى وضجة الأصوات تعذبها حيث انها خرجت من عالمها دون ترخيص وكانت تخشى أن يكتشفها ويراها أحد يعرفها. مطأطئة الرأس مضت خلف مارا إلى المائدة التي أرشدهما النادل إليها. مائدة طويلة جلس اليها رجلان يرتديان بدلتين داكنتين، وبعيدا منهما امرأة ورجل شابان لم يرفعا بصرهما لحظة واحدة يلمسان رؤوس أصابع بعضهما. حولهم يتدفق الراقصون ويتدافعون كما لو كانوا ينزلقون

من ألواح سفينة غارقة. أمام المائدة يضربون بأقدامهم الأرض التي تعرضت فيها المائدة أيضا للخطر، لكانهم يريدون أن يدخلوا في عمق الأرض. تأرجح كل شيء، ارتفع منه الدخان، تصاعدت منه الأبخرة في الضوء الأحمر، كل شيء يريد المضي إلى العمق، إلى الأعمق مطوقا بالضجيج، إلى الأعمق دون رغبة.

طلبت شارلوتا قهوة ونبيذا. حين رفعت بصرها ثانية، كانت مارا قد نهضت وبدأت ترقص على بعد متر منها. في البدء بدت وكأنها وحيدة ثم رأت الرجل الذي كان يرقص معها أيضا. صبي محموم نحيف، متدرب أو طالب، طوح بأردافه وساقيه، رقص وحده وبين حين وآخر مد يده ليمسك بيدي مارا أو يأخذها لفترة قصيرة بين ذراعيه ليبعدها ثانية في الحال ويتركها لحركاتها الخاصة المبتكرة. أدارت مارا رأسها إلى شارلوتا، ابتسمت، استدارت، ألقت شعرها بيدها إلى الأعلى. قفزت مرة قريبا جدا من شارلوتا وانحنت برقة .

أنت تسمحين؟

أومأت شارلوتا برأسها متيبسة، انصرفت عنها، شربت على جرعات صغيرة، لم ترد أن تزعج الفتاة بمراقبتها. تقدم رجل خلف كرسيها وطلب منها الرقص. هزت رأسها بالرفض. كانت ملتصقة بكرسيها. وكان لسانها وقد جف ثانية ملتصقا بقوة في فمها. أرادت أن تنهض، وتذهب خلسة حين لا تنظر مارا اليها. لكنها لم تذهب – أجل لقد أدركت هذا بعدئذ فقط بوضوح شديد–، لأنها لم تشعر لحظة واحدة ان مارا رقصت لترقص أو أنها أرادت أن ترقص مع أحد أو تبقى هنا او تتسلى. فهي كانت تنظر دائما، تؤدي رقصتها فقط لتنظر شارلوتا إليها. سحبت ذراعيها في الهواء وجسدها خلال الغرفة كما لو كانت تسحبهما خلال الماء، لقد سبحت وعرضت نفسها. وكانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شارلوتا مرغمة في الآخر، أن تعطي أخيرا نظراتها اتجاها لا يخطؤه المرء، تابعتها في كل حركة.

نهاية الموسيقى، جلست مارا منقطعة النفس مشرقة وأمسكت يد شارلوتا. أيد متشابكة. همس. هل أنت غاضبة؟ هزة رأس. انقباض كبير. لو تستطيع الوقوف الآن والذهاب. لو تستطيع الافلات من هاتين اليدين اللاصقتين. حررت شارلوتا يدها اليمنى دفعة واحدة، تناولت قدح النبيذ وشربت. النبيذ أيضا لن ينفد، مهما أرادت أن تشرب منه. الوقت لن ينتهي، هذه النظرات، هاتان اليدان، لن تنتهيان. التفت الرجلان الجالسان الى المائدة الى مارا، ناجياها، ابتسما لها.

هل نصنع جسرا يا آنسة؟

رفعت مارا يديها، لعبت مع ايدي الرجال لعبة قصيرة لا تعرفها شارلوتا. كلا، ليس جسرا، ليس جسرا، صاحت ضاحكة، ادارت ظهرها للرجلين فجاة أيضا، كما انساقت لهما. وأدخلت يديها، عائدة، تحت يدي شارلوتا اللتين استلقيتا على المائدة بيضاوين وباردتين.

آه ، السيدات يردن أن يبقين وحدهن، قال أحد الرجلين وضحك لصديقه بطيبة. أغمضت شارلوتا عينيها. أحست بضغط أصابع مارا الصلبة وردت بمثله، دون أن تدري لماذا ودون أن تكون راغبة في ذلك. نعم كان الأمر كذلك. كان ذلك. عادت ببطء الى نفسها، لم تحول نظرها عن لوحة المائدة أمامها ولم تتحرك. لم تكن تريد أن تتحرك بعد الآن. كان يمكن أن يكون الأمر بالنسبة لها الآن متساويا، أن تذهبا أو تبقيا، أن تكون حتى الصباح قد نامت ما يكفي ام لم تكن، أن تستمر الموسيقى، أن يكلمها أحد، أن يعرفها أحد. . .

قولي شيئا، أنت، .. ألا يعجبك المكان هنا؟ ألا تذهبين أبدا للرقص، ألا تخرجين أبدا، لتشربي ...؟ قولي شيئا!

صمت.

قولي شيئا، اضحكي قليلا هل تتحملين الوضع هناك عندك فوق، ما كنت أنا لأحتمل، أن أذهب هنا وهناك وحيدة، النوم وحيدة، وحيدة في الليل والعمل في النهار، تتدربين دائما ... آه، هذا شيء مرعب. ليس ثمة من يستطيع احتماله.

قالت شارلوتا بصعوبة: فلنذهب.

كانت تخاف أن تنفجر بالبكاء.

حين وصلتا الشارع لم تجد ثانية الجملة التي أنقذتها من قبل. كانت الجملة ممكنة من قبل: سأطلب لكم تاكسيا... ولكن عليها الآن أن تترجم هذه الجملة إلى جملة جديدة لك. لم تستطع أن تركب هذه الجملة. مضتا ببطء عائدتين وضعت شارلوتا يديها في جيبي معطفها. لا ينبغي لمارا أن تعود لأخذ يدها على الأقل. عثرت مارا على السلالم في ساحة الفرانسيسكانر في الظلام دون عون، دون سؤال هذه المرة. سبقت شارلوتا كأنها قد صعدت وهبطت هذه السلالم كثيرا من قبل. أدخلت شارلوتا المفتاح في القفل وتوقفت. "مسكننا" لا يمكن أن يكون هذا بعد الآن، لو أنها فتحت الآن بالفعل، ولم تدفع مارا إلى الأسفل فوق السلالم. كان علي أن ادفعها الى الاسفل، فكرت شارلوتا، وأدارت المفتاح.

في الداخل أحاطت مارا في اللحظة التالية عنقها بذراعيها. تعلقت بها كطفل. جسم صغير مثير للعطف تعلق بجسمها الذي بدا لها فجأة أقوى وأكبر مما كان. حررت شارلوتا نفسها بحركة سريعة، مدت ذراعها وأشعلت الضوء.

جلستا في الغرفة، كما فعلتا من قبل، ودخنتا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا جنون، أنت مجنونة، قالت شارلوتا، كيف يمكن ذلك . . .؟ سكتت. لم تتابع الكلام، إذ بدت لنفسها مضحكة. دخنت وفكرت أن هذه الليلة لن تنتهي، أن هذه الليلة قد بدأت توا وربما لن تكون لها نهاية.

ربما بقيت مارا هنا الى الأبد، الى الأبد، الى الأبد، الى الأبد. وان عليها أن تفكر الى الأبد ماذا فعلت أو قالت لتكون المذنبة في أن مارا كانت هنا وأنها بقيت.

حين نظرت عاجزة إلى الفتاة، لاحظت أن الدموع كانت تجري من عيني مارا.

لا تبكي، رجاء لا تبكي.

أنت لا تريدينني. لا أحد يريدني.

رجاء لا تبكي. أنت . . . محبوبة جدا، جميلة جدا ولكن. . .

لماذا لا تريدينني؟ لماذا؟ – دموع جديدة.

لا أستطيع.

أنت لا تريدين. لماذا؟ فقط قولي لماذا لا تودينني. وسأذهب. سقطت مارا على ركبتيها، انزلقت من على الأريكة ببطء . جثت على ركبتيها ووضعت رأسها في حضن شارلوتا. ثم أذهب وتتخلصين مني.

لم تتحرك شارلوتا، كانت تنظر وهي تدخن إلى الفتاة، تدرس كل ملمح في وجهها، كل نظرة منطلقة، نظرت إليها فترة طويلة جدا وبدقة جدا.

كان هذا جنونا. لم يحدث أبدا أن . . . ، مرة في فترة التلمذة، حين كان عليها أن تأتي بالدفاتر إلى معلمة التاريخ في غرفة الإجتماعات، ولم يكن في الغرفة سواها، وقفت المعلمة، أحاطتها بذراعيها، وقبلتها على

جبينها. "فتاة طيبة". ثم أصاب شارلوتا الذعر، لأن المعلمة كانت متشددة عادة. استدارت وركضت باتجاه الباب الى الخارج. بقيت الكلمتان الرقيقتان تلاحقانها فترة طويلة بعد ذلك. منذ ذلك اليوم جرى امتحانها بتشدد أكبر مما مع الأخريات وأصبحت درجاتها أسوأ. لكنها لم تشتكِ لدى أحد، تحملت المعاملة الباردة التي لا ذنب لها فيها. أدركت أن هذه الرقة لا يمكن أن يعقبها إلا هذا التشدد.

فكرت شارلوتا: ولكن كيف يمكن لي أن اؤثر في مارا؟ انها مصنوعة من المعدن الذي صنعت منه. وفكرت حزينة في فرانس الذي كان في الطريق إليها. لا بد أن يكون القطار الآن على الحدود، ولا أحد يستطيع أن يمنعه من استئناف الرحلة. لا أحد يستطيع أن يحذر فرانس من أن يعود إلى حيث كف "بيتنا" عن الوجود. أم هل كان لا يزال موجودا؟ كل شيء لا يزال قائما في مكانه، المفتاح أغلق، وإذا اختفت مارا الآن كما لو حدثت معجزة أو أنها ذهبت فجأة، سيبدو كل شيء غدا وكأنه من عمل الجان، سيكون كما لو لم يكن.

رجاء كوني عاقلة. يجب علي أن أنام وأن استيقظ غدا مبكرا جدا.

أنا لست عاقلة. آه حبيبتي، جميلتي الحبيبة وتكذبين علي قليلا، أليس كذلك؟

لماذا؟ كيف؟ لم تعد شارلوتا النعسانة المدخنة، الفارغة قادرة على الادراك. كانت أفكارها تروح وتجيء في رأسها مثل خفير، سمعت الكلمات المعادية، كانت حذرة، لكنها لم تستطع أن تدق جرس الانذار وتستعد للدفاع.

أنت تكذبين! اواه كيف تكذبين!

لا أدري عما تتحدثين، لماذا علي أن أكذب وما الذي اعتبرته كذبة؟

أنت تكذبين. لقد ناديتني، تركتني آتي اليك، أخذتني معك مرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخرى في الليل، والآن تتقززين مني، والآن لا تريدين أن تعترفي بأنك دعوتني اليك.

أنا دعوت...

ألم توجهي لي الدعوة؟ ماذا يعني ذلك؟

بكت شارلوتا. لم تكن قادرة على ايقاف الدموع التي انهمرت فجأة. أنا أدعو ناسا كثيرين.

أنت تكذبين.

ضغط وجه مارا المبتل، الذي كان لا يزال مبتلا، بينما بدأت تضحك، على وجه شارلوتا، رقيقا، دافئا، اختلطت دموعهما. القبلات التي قام بها الفم الصغير، تجاعيد الشعر التي نفضت فوق شارلوتا، الرأس الصغير الذي اصطدم برأسها، كل شيء كان أصغر، اكثر قابلية للكسر، أكثر ضآلة من أي رأس، أي شعر، أية قبلات عرفتها شارلوتا.

بحثت في عواطفها عن توجيهات، في يديها عن فطرة، في رأسها عن احتفال عام. بقيت دون توجيهات. كانت شارلوتا في طفولتها قد قبلت قطتها أحيانا في غمرة عاطفة على فمها الصغير المبتل، البارد، الرقيق بعض الشيء والذي كل ما حوله لين وغريب، مكان غريب للقبلات. مبتل بصورة مشابهة، رقيق، كانت شفتا الفتاة غير عادية. كان على شارلوتا أن تفكر في القطة وتضغط اسنانها. وفي نفس الوقت حاولت أن تلاحظ، كيف تبدو هاتين الشفتين غير العاديتين.

هكذا إذن كانت شفتاها هي، هكذا بصورة مشابهة قابلت رجلا. نحيفة، دون مقاومة تقريبا، دون عضلات تقريبا، فم صغير، لا يؤخذ بجدية.

قبليني مرة واحدة، توسلت مارا. مرة واحدة فقط.

نظرت شارلوتا الى ساعة يدها، أثارها فجأة أن تنظر الى الساعة، وتمنت أن تلاحظ مارا ذلك.

كم الساعة؟ كان في صوت الفتاة ايقاع جديد. صوت عنيد شرير لم يسبق لشارلوتا أن سمعت مثله .

الساعة الرابعة، قالت بجفاف.

سأبقى. هل تسمعين؟ سأبقى. الصوت مرة ثانية، مهددا، وضيعا.

ولكن ألم تقل هي أيضا مرة لشخص ما: سأبقى. أملت متضرعة ألا تكون قد تكلمت بهذه اللهجة.

إذا لم تكوني قد أدركت بعد، لا طائل من بقائك. وفي السادسة تأتي خادمتنا. لا بد أنها هي ايضا غاضبة لتنتقم من مارا بهذه اللهجة. قالت "خادمتنا" وكذبت في ذلك، لأنها طلبت الخادمة في الساعة التاسعة.

التهبت عينا مارا. لا تقولي هذا آه أنت، لا تقولي هذا. أنت لئيمة، لئيمة جدا. لو عرفت أي أذى تلحقين بي ... هل تعتقدين اني سأسمح أن تذهبي إلى القطار وتعودي معه! هل يعانقك جيدا؟ جيدا؟ كيف؟

صمتت شارلوتا، كانت مغتاظة لدرجة لم تستطع معها أن تقول كلمة واحدة.

هل تحبينه؟ لا؟ يقال...آه، الناس يقولون أشياء كثيرة. قامت بحركة من يدها كمن يرمي شيئا. آه، لكم أكره هذا، لكم أكره فيينا، أكره هذه الدراسة، الثرثرات، هؤلاء الرجال، هاته النساء، الاكاديمية، كل شيء. أنت فقط، منذ أن رأيتك...لا بد أن تكوني مختلفة. يجب أن تكوني، أم أنك تكذبين!

من يقول شيئا، وماذا يقول؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما كنت لآتي، لآتي أبدا... أقسم لك.

ولكن هذا.... لم تعد شارلوتا قادرة على مواصلة الكلام. نهضت مترنحة. نهضت مارا. وقفتا في مواجهة بعضهما. دفعت مارا ببطء شديد خلال انفعالها القدح الذي بدأ ينزاح عن المنضدة، ثم الآخر، لأن الاقداح تدحرجت على السجادة دون ضجة، تناولت مزهرية فارغة وألقت بها إلى الجدار، ثم صندوقا طارت منه أصداف وحجارة محدثة ضجيجا وتدحرجت فوق الأثاث.

بحثت شارلوتا عن الطاقة لغضب عظيم، لصرخة، لغيظ، لإهانة. لقد فقدت قوتها. نظرت إلى الفتاة ببساطة وهي تدمر قطعة بعد أخرى. بدا أن التدمير قد استمر طويلا مثل حريق، فيضان، خراب. انحنت مارا فجأة، رفعت كسرتي زجاج كبيرتين من إناء الفاكهة، الصقتهما ببعضهما وقالت: يا له من صحن جميل. اعذريني. كنتِ قد أحببتِ الصحن بالتأكيد. أرجوك اعذريني.

أحصتْ شارلوتا، دون أسف ودون اي انفعال، القطع التي تحولت الى كسر أو تضررت. كانت قطعا قليلة جدا، ولكن كان بودها أن تعد كل ما كان في الغرفة لتستطيع ان تعبر عن حجم التخريب بدقة اكبر، الذي كان يمكن أن يكون أكبر كثيرا، وعلى وجه الدقة كان يمكن أن يتحول كل شيء الى انقاض. إذ أنها كانت تنظر، لم تبد حركة، وقفت ساكنة مع كل ارتطام، مع كل تحطم.

انحنت وجمعت الاصداف والحجارة، دفعت الكسر معا، تنقلت منحنية في المكان، من أجل ألا ترفع نظرها وترى مارا. ثم تركت بعض القطع تسقط، كما لو أن الأمر لا جدوى فيه، أن تنظم المكان ثانية. قرفصت في الصمت المستمر على الأرض. خرجت عواطفها وأفكارها عن الرصيف المعتاد، انطلقت دون قطار الى الخلاء. أطلقت لعواطفها وأفكارها العنان.

كانت حرة. لم يعد ثمة ما يبدو لها مستحيلا. لمَ لا ينبغي لها أن تبدأ العيش مع مخلوق له نفس الصفات؟

ولكن مارا كانت الآن قد ركعت قربها، بدأت بالكلام، وجهت الكلام إليها دائما. حبيبتي، لا ينبغي أن تفكري، أنت، يؤسفني جدا، لا أدري ما الذي حدث لي، أنت، كوني طيبة معي. أنا مجنونة، مجنونة بك. أريد، أعتقد، كنت لأستطيع....

فكرت شارلوتا: انني على الدوام لا أفهم عما تتحدث. كانت لغة الرجال في مثل هذه الساعات، لغة يمكن للمرء أن يمسك بها. لا أستطيع أن أصغي لمارا. كلماتها دون عضلات، هذه الكلمات الصغيرة عديمة الجدوى.

اسمعي يا مارا، إذا أردت أن تعرفي الحقيقة، يجب أن نحاول الكلام، أن نتكلم مع بعضنا بالفعل. حاولي. (إنها بالتأكيد لا تريد أن تعرف الحقيقة أبدا. ثم أن السؤال هو، كيف ينبغي أن تُسمى هذه الحقيقة بشأننا نحن الاثنتين. لا توجد كلمات لذلك بعد). لا أستطيع أن أستوعب ما تقولين. أنت تتحدثين معي بغموض. لا أستطيع أن أتصور كيف تفكرين. لا بد أن ثمة شيئا مختلفا يدور في رأسك.

رأسي المسكين! عليك أن تشفقي عليه. أن تمسديه، أن تقولي له بما عليه أن يفكر.

بدأت شارلوتا تمسد طائعة رأس مارا. ثم توقفت. لقد سمعت هذا مرة، ليست الكلمات ولكن اللهجة. إنها نفسها قد ألحت غالبا بنفس الطريقة، خاصة في الفترة الأولى مع فرانتس. وقد وقعت في هذه اللهجة أمام ميلان أيضا، مطت الكلمات إلى كشاكش، كان عليه أن يستمع إلى هذا الغناء الملئ بعدم التعقل، لقد ثرثرت معه بفم ممطوط، ضعيف مع قوي، لا عون لها، هي غير المدركة معه هو المدرك، لعبت نفس الضعف الذي تستخدمه مارا معها الآن، ثم أخذت الرجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فجأة بين ذراعيها، ابتزت توددات حينما أراد أن يفكر في شيء آخر، كما تُبتز الآن من قِبَل مارا، إذ كان عليها ان تمسدها، ان تكون طيبة، ان تكون ذكية.

لكنها كانت هذه المرة على بينة من الأمر لن تتورط. أم أنها تفعل؟ ربما لم ينفع في شيء أبدا انها كشفت الفتاة واستبانت ما تضمر، لأنها تذكرت نفسها فجأة واستبانتها، فقط شعرت مرة واحدة أنها أكبر كثيرا لأن هذا المخلوق أمامها يمثل دور طفل، يتصنع الصغر ويجعلها أكبر لأغراضه. مرة أخرى مرت بيدها بتهيب خلال شعر مارا، كان بودها أن تعدها بشيء. شيء حلو المذاق، زهور، ليلة أو سلسلة. لمجرد أن يسود الهدوء أخيرا. لتستطيع هي شارلوتا أن تنهض أخيرا وتفكر في شيء آخر. بذلك يُطرَد هذا الحيوان الصغير المزعج. فكرت في فرانس وتساءلت عما إذا كان أيضا قد أُزعج من قبلها أحيانا وتمنى طردها، هذا الحيوا ن الصغير، ليسود الهدوء.

نهضت شارلوتا لأنها لاحظت أن الستائر لم تكن مسدلة. ومع ذلك كان بودها لو تترك الشبابيك مضاءة، تتركها مفتوحة للرؤية من خلالها، لم يعد لديها ما تخشاه. يجب البدء بجعل ما تفكر فيه وما تراه نافذا، وليس ما يظن المرء أنها تفكر فيه أو ما سمح لها المرء أن تعيشه.

لو أنها بدأت تعيش مع مارا.. . لذهبت تعمل على سبيل المثال. فرغم أنها كانت تحب العمل، كانت تنقص عملها اللعنة، القسر، الضرورة الملحة. احتاجت أيضا أحدا ما حولها، إلى جانبها، أدنى منها، لا تعمل من أجله فقط، وإنما يكون المنفَذ الى العالم، تتحكم فيه، تحدد سعر شيء، تختار مكانا.

نظرت حولها في الغرفة. لقد اختار فرانس الموبيليا ما عدا المصباح في غرفة النوم وبعض المزهريات، أشياء صغيرة. لم يكن ثمة قطعة من عندها في هذا المسكن. لم يكن التفكير في أن لها علاقة بشيء ما في

المنزل ممكنا طالما أنها تعيش مع رجل. بعد أن غادرت بيت أبويها، عاشت سنة مع طالب، في غرفة بمصابيح حريرية متربة بمقاعد من القطيفة وجدران الصقت عليها في كل مكان البوسترات وطبعات رخيصة لأعمال رسم حديث. ما كانت لتجرؤ على تغيير شيء من ذلك. كان ذلك عالمه. الآن تعيش في النظام الكامل الذي يعود لفرانس، وإذا تركها فرانس ستذهب الى نظام آخر، إلى موبيليا قديمة مقوسة، أو موبيليا ريفية، أو إلى مجموعة أسلحة، في نظام ليس نظامها على اية حال – هذا ما لن يتغير أبدا. وعلى وجه الدقة فإنها لم تعد تعرف هي الأخرى ماذا تريد لنفسها، حيث لم يكن ما ترغب فيه. بالطبع كان فرانس قد سألها عند كل شراء: هل هذا يناسبك؟ ما رأيك؟ أم هل الأفضل أن يكون أزرق؟ وكانت قد قالت كما فكرت: أزرق. أو: أفضل أن تكون المنضدة أوطأ. لكنها كانت تستطيع أن تعبر عن رغبة فقط حين كان فرانس يسأل. نظرت إلى مارا وابتسمت. دقت بأصابع قدمها المنضدة. كان كفرا. كفرت "منضدتنا" .

ستستطيع أن تخضع مارا لها، أن توجهها وتدفعها. سيكون لها من يرتجف أمام موسيقاها، من يمسك سترة دافئة مهيأة حين تخرج من الصالة متعرقة. أحد لا يهمه سوى أن يشاركها حياتها. وتكون هي بالنسبة له المقياس لكل شيء. أحد يعتبر أنّ أهم له أن يرتب ملابسها، أن ينفض لها السرير من أن يرضي طموحا آخر. وقبل كل شيء أحد يفكر بأفكارها، بدلا من أن يكون له أفكاره الخاصة.

وظنت فجأة أنها تعرف ما افتقدته وبحثت عنه سرا طول السنوات: المخلوق الضعيف، ذي الشعر الطويل، الذي يستطيع المرء أن يستند إليه. الذي يُمسك باكتافه دائما عندما يكون المرء يائسا أو منهكا أو مقتدرا، يستطيع المرء أن يدعوه ويصرفه، وللإنصاف يشغل باله من أجله ويخاف عليه ويغضب منه. لم تستطع أن تغضب فرانس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبدا، لم تستطع أن تصرخ فيه كما كان يصرخ فيها أحيانا. لم تتخذ هي القرارات، كان هو يقرر (أو كانا يقررا ن معا، سيقول هو – ولكنه كان في الحقيقة هوالذي يقرر، دون وعي منه، وهي لم تُرِد غير ذلك –) . رغم انه احب استقلالها وعملها، وأسعده تقدمها، وانه واساها حين لم تستطع التوفيق بين عملها والعمل المنزلي، وخفف عنها الكثير، بقدر ما يمكن للمرء في حياة مشتركة أن يخفف، عرفت أنه لم يخلق ليترك لها الحق في شقاء خاص بها أو وحدة أخرى. لقد شاركته شقاءه أو تظاهرت بالمشاركة، أحيانا كان من غير الممكن لديها فصلها: الرياء، الحب، الصداقة. لكن لم يكن مهما كم كان فيها من الصدق وكم من الادمان على التعتيم – كان مهما انها وحدها عرفت هذه المشكلة، أنها كثيرا ما حركت عاطفتها، لكنها لم تتصور أبدا حلا لها.

كانت الكبرياء في ان تتمسك بشقائها الشخصي، بوحدتها الخاصة، في داخلها دائما ولكن الآن فقط جرؤت على الظهور، إزدهرت، تكاثرت، سحبت سياج النبات فوقها، كانت غير قابلة للخلاص، وليس لأحد أن يبيح لنفسه محاولة تخليصها، لتتعرف على السنة الألف، التي ستتفرق فيها الجذور البرعم الحمراء التي تشابكت مع بعضها، وتفتح الطريق. تعال، نم، تعالوا، ألف سنة، من أجل أن أوقَظ بَيد أخرى. تعال، لأستيقظ عندما لا يعود هذا نافذا: رجل وإمرأة. حين ينتهي هذا ذات مرة.

حزنت على فرانس كما لو كان ميتا، لقد استيقظ الأن أو نام في القطار الذي يحمله الى البيت، ولم يكن يعلم أنه ميت، وأن كل شيء كان بلا جدوى، الخضوع الذي مارسته هي أكثر مما فعل هو، لأنه ما كان يستطيع أن يعلم أبدا ما الذي يمكن أن يتنازل لها عنه. إنه على كل حال قد هدر طاقة كبيرة معها، كان مشغولا دائما بمراعاتها مراعاة كبيرة. بينما بدا لها صحيحا دائما أن تريد العيش معه، بدا لها أمرا

محزنا أن يكون عليه أن يثقل نفسه بها. لم يأته الأمر بشيء، كانت تتمنى له إمرأة تحيطه برعايتها وتعجب به، وما كان ليصبح أقل، – لا شيء يمكن أن يجعله أقل شأنا – حتى تعذيباتها لم تستطع، كما كان الحال يوما، أن تقلل شأنه، ولكن بنفس القدر تماما ما استطاعت هي أن تفيده، أن تمنحه شيئا، لأنهما كانا من النوع المخالف للدستور، الذي لا يشفى. قبل بطيبة خاطر، كان يعرف أنه كان بوسعه أن تكون الأمور أسهل، ولكن كان يسره أن يعيش معها: لقد اصبحت بالنسبة له عادة، تماما كما كانت ستكونه أمرأة غيرها، وأكثر حكمة من شارلوتا، كان سيعترف بالزواج كحالة أقوى من الأفراد الذين يدخلونه، والذي طبع عشرتهما لذلك أيضا بقوة أكثر مما كان بامكانهما أن يطبعانها أو حتى يغيرانها. ومهما كانت الطريقة التي تسير فيها زيجة ما، لا يمكن أن تسير بشكل كيفي، بشكل مبدع، إنها لا تقبل التجديد أو التغيير، لأن قبول الزواج يعني الدخول في شكله.

ذعرت شارلوتا إذ تنفست مارا بعمق ولاحظت أن الفتاة كانت قد نامت. كانت الآن وحيدة، استيقظت على ما أصبح ممكنا. لم تعرف في تلك اللحظة لماذا عاشت دائما مع رجال ولماذا تزوجت واحدا. كان الأمر غير معقول. ضحكت في نفسها وعضت يدها لتبقى يقظة. كان عليها أن تتولى الحراسة الليلية.

إذا ما تمزقت الرابطة القديمة؟ خشيت العواقب، التي ستكون لهذا التمزق. ستنهض بعد قليل، توقظ مارا، تهب معها الى غرفة النوم. ستتجردان من ثيابهما، سيكون الأمر شاقا، ولكن هذا أمر طبيعي. هكذا ينبغي أن يُبدأ. ستكون بداية جديدة. ولكن كيف على المرء أن يتعرى في المرة الأولى تماما؟ كيف ينبغي أن يحدث ذلك إذا لم يستطع المرء أن يعتمد على الجلد والرائحة، على فضول يقترب من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حب استطلاعات كثيرة. كيف ينشأ الفضول أول مرة، حين لا يكون ما قد سبقه؟

لقد وقفت أكثر من مرة نصف عارية أو في ملابس داخلية خفيفة أمام إمرأة. لقد كان ذلك يخجلها دائما، لبرهة على الأقل: في كشك السباحة مع صديقة، في محل بيع الملابس الداخلية، في محل بيع الملابس، حين ساعدتها بائعة في تجريب الكورسيهات أو الفساتين. لكن كيف عليها أن تنسل من ثوبها أمام مارا، تتركه يسقط، دون أن تفوتها البداية. ولكن ربما – وقد بدا لها ذلك رائعا – لن تشعر كلاهما بالحرج، لأنهما ترتديان نفس قطع الملابس. ستضحكان، تتفحصان بعضهما، تتهامسان، شباب. في قاعة الرياضة في المدارس كانت هناك دائما تلك العاصفة من قطع الملابس، أشياء خفيفة بلون وردي وأزرق وأبيض. لعبن كفتيات برمي الملابس فوق رؤوس بعضهن، ضحكن وتسابقن في الرقص، أخفين ملابس بعضهن، وكان لا يزال للسماء استخدام لدى الفتيات، حيث نقلتهن بالتأكيد الى الينابيع، إلى الغابات، الى الكهوف، واختارت إحداهن لتكون صدى، لتبقي الأرض شابة مليئة بالأساطير التي لا عمر لها.

انحنت شارلوتا فوق مارا التي لم تعد في النوم تشكل خطرا. قبلتها فوق حاجبيها الطريتين الاحتفاليتين في وجهها الشاحب. قبلت اليد المتدلية من الأريكة، ثم سرا وبخجل انحنت فوق الفم الشاحب الذي اختفى منه أحمر الشفاه بمرور الليل.

هل يستطيع هذا الجنس أن يمسك بثمرة مرة أخرى، أن يلهب مرة أخرى غضبا، أن يتخذ مرة أخرى قرارا لصالح أرضه! أن يعيش يقظة أخرى، خجلا آخر. هذا الجنس لم يحدد أبدا. كانت ثمة امكانات، لم تَضِع الثمرة أبدا، ليس اليوم، لم تَضِع هذا اليوم بعد. كان عطر جميع الثمرات التي كانت متساوية القيمة معلقا في الهواء.

إنها معارف جديدة، تلك التي كان يمكن للمرء أن يكتسبها. كانت حرة. حرة لدرجة أنها يمكن أن تقاد للغواية، أرادت غواية كبيرة تتحمل مسؤوليتها وتُلعن بسببها، كما جرى تحمل المسؤولية مرة.

يا إلهي فكرت، أنا لا أعيش اليوم، أشارك في كل شيء، أنجذب إلى كل شيء، كل ما يحدث، لئلا امسك أيضا بامكانية خاصة بي. الوقت يتعلق بي مزقا. لست زوجة أحد، حتى انني لم أكن بعد. أريد أن أقرر من أنا، وأريد أن أصنع لي مخلوقي أيضا، شريكي الصابر، الآثم، الغامض. لا أريد مارا لأني أريد فمها، جنسها- جنسي الشخصي -. لا شيء من هذا القبيل. أريد مخلوقي، وسأصنعه. لقد عشنا دائما من أفكارنا، وهذه هي فكرتي.

إذا أحبَّتْ مارا سيتغير كل شيء.

سيكون لها كائن، تستطيع أن تقدمه للعالم. ستعطي وحدها كل معيار، كل سر. لقد حلمت دائما بذلك، أن تقدم شيئا للعالم وقد أنكفأت على نفسها، حين قدمها إليه أحد. لقد صمتت بمرارة، حين أراد أحد أن يخدعها وفكرت في الزمن الذي كانت فيه فتاة، وكانت لا تزال تعرف كيف يمتلك المرء رباطة الجأش ولم يكن ثمة ما يخاف منه المرء، وكانت تستطيع أن تتقدم بصرخة رفيعة مجلجلة، ينبغي اتباعها.

لو استطاعت أن تحب مارا، لما سكنت في هذه المدينة، في هذا البلد، مع رجل، في لغة، وانما مع نفسها - ستؤثث البيت للفتاة. بيت جديد. سيكون عليها أن تختار للبيت، للمد والجزر، للغة. لن تكون بعد ذلك المختارة ولن يكون ممكناً اختيارها في هذه اللغة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فضلا عن ذلك، مع كل المسرات التي وفرها لها حبها للرجال، بقي شيء ما مفتوحا. ورغم أنها الآن، في هذه الساعة حيث افاقت لا زالت تعتقد انها تحب الرجال: كانت ثمة منطقة مجهولة. كثيرا ما تعجبت شارلوتا من أن الناس الذين يعرفون أفضل من النجم والدغل والحجر، أية رقة حق لهم أن يخترعوها ازاء بعضهم، كانوا على خطأ. لا بد ان البجعة والأبنوس الكاذب قد خمنا أن المجال كان أوسع، وان النظام الصغير من اشكال الرقة التي بناه المرء ونقله عبر الأجيال لم يكن كل الامكانات. كطفلة ارادت شارلوتا ان تحب كل شيء وان تكون محبوبة، من عاصفة الماء أمام صخرة، من الرمل الحار، من الخشب الصقيل، من صيحة الصقر – لقد تأثرت بنجمة و سببت لها شجرة احاطتها بذراعيها الدوار. والآن تعرف هي الحب من زمن طويل، ولكن بأي ثمن! كان يبدو لكثير من الناس على أية حال استسلاما بائسا وحسب، لقد اعتبروا الأمر ضروريا، إذ لم يكن أمامهم شيء آخر، وكان عليهم أن يحاولوا الاعتقاد أن ذلك كان صحيحا، كان جميلا وانه كان ما أرادوه. وخطر لها ان واحدا فقط من جميع الرجال الذين عرفتهم، ربما كان يحتاج الى النساء. فكرت في ميلان، الذي لم تكن هي لتكفيه، الذي ما كان شيء ليكفيه. لهذا بالذات. ولهذا ايضا عرف أنه ما كان شيء ليكفيها، الذي أحل اللعنة بنفسه وبها، لأن جسميها المفسدين كانا عائقا في الانطلاق الى اشكال من الرقة منسية أو غير معروفة. كان التجلي، النشوة، العمق، الاستسلام، المتعة قريبة يكاد يمكن الامساك بها. بعد ذلك اتفقت مع رجل على حسن المعاشرة، المحبة، الرضا، الضمان، الاسناد، الأمان، الحماية، الوفاء، كل ما يستحق الاحترام، الذي لم يبق كمشروع فقط، وانما أمكن أيضا أن يعاش.

هكذا كان ممكنا لها ان تتزوج، كانت الشروط متوفرة فيها،

لتدخل حالة الزواج وترتب امرها فيها. رغم الثورات بين حين وآخر، رغم رغبتها في ضعضعة الدستور. ولكن كلما حاولت أن تضعضع الدستور أدركت بسرعة انها لاتعرف بديلا له، أن خاطرة تنقصها، وان الحق سيكون مع فرانس بابتسامته وباشفاقه الذي سيشعر به نحوها. أحبت العيش في ظل تسامحه، وما كان سيحدث لو أنه لاحظ أنها هي أيضا تتساهل معه. لو أنه كان يخمن أنها لم تكن في السر تؤمن أن الأمر يجب أن يكون كما هو بينهما، وانها قبل كل شيء لم تكن تستطيع أن تعتقد انه كان يفهم جسدها. كان زواجها الناجح – كما تسميه – مؤسسا بالذات على عدم فهمه لجسدها. لقد دخل حقا هذه المنطقة الغريبة، عبرها، لكن رتب أموره حيث يجد الراحة.

شعرت من حركة الفتاة التي مدت يدها وهي نصف نائمة نحوها، أطبقت بأصابعها على ركبتها، مرت على باطن ركبتها، تفحصت و تلمست، شعرت أن هذا المخلوق يعرف عنها شيئا لا يعرفه أحد حتى هي نفسها، لأنها كانت تحتاج إلى تنْبيه. تراجعت شارلوتا مرتعدة ومذعورة وتوترت. دافعت عن نفسها ضد التنبيه الجديد.

قالت بجفاء: اتركيني، اتركي هذا في الحال.

فتحت مارا عينيها . – لماذا؟

نعم، لماذا في الواقع؟ لماذا لم تتوقف عن التفكير في أن تفيق وأن تدفن ميتا؟ لماذا لم تنهض أخيرا حيث بلغ الأمر هذا الحد، وترفع مارا وتذهب معها الى السرير؟

همست مارا بنظرة واشية: أريد أن أمضي بك الى غرفتك فقط. اضعك في السرير وأرى كيف تنامين. ثم أذهب. لا أريد شيئا. فقط أن أراك تنامين. . .

اصمتي رجاء، لا تتكلمي، اصمتي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنك تخافين مني وحسب، منك ، منه! – تلك النبرة التي أدت الى الغوص ثانية، التي جعلت شارلوتا تغوص.

وأضافت مارا منتصرة: يا لك من كاذبة، يا لك من جبانة!

كما لو كان الأمر يتوقف على ذلك! كما لو أن الأمر يُستنفد بخرق أحد الممنوعات، حماقة صغيرة، فضول اضافي!

كلا، حين تلقي كل شيء خلفها فقط، حين تحرق كل شيء وراءها، تستطيع أن تتقدم الى نفسها. ستأتي مملكتها، وحين أتت، لم يعد قياسها ممكنا، لم يعد تثمينها وفق معيار غريب ممكنا. في مملكتها جرى العمل بمعيار جديد. لم يعد ممكنا القول: هي كذا وكذا، مثيرة، عاقلة، غير عاقلة، مخلصة، غير مخلصة، مستقيمة أو دون ضمير، صعب الوصول اليها أو مغامرة. أجل عرفت ما كان يمكن قوله وفي اي المصطلحات يجري التفكير، من يستطيع قول هذا أو ذاك ولماذا. لقد كرهت دائما هذه اللغة، كل ختم طبع لها، وكل ختم كان عليها ان تطبعه لشخص ما، – محاولة قتل الحقيقة. ولكن حين اتت مملكتها، فان هذه اللغة لم تعد سائدة.

ثم أنها كانت قد استقالت، كان يمكنها أن تضحك من كل حكم، ولم يعد مُهمّا ماذا يعتبرها المرء. لغة الرجال، بالقدر الذي يمكن استعمالها على النساء، كانت سيئة بما يكفي ومدعاة للشك، لكن لغة النساء كانت أسوأ، مهينة – لقد فزعت منها منذ ان عرفت دخيلة امها وفيما بعد اخواتها، صديقاتها، وزوجات أصدقائها، واكتشفت ان تلك اللغة لم تطابق شيئا، لا تبصر، لا ملاحظة، الأقوال الماجنة أو الورعة ، الأحكام ووجهات النظر الملفقة أو العويل المتنهد.

كانت شارلوتا تحب النظر الى النساء، كثيرا ما حركن مشاعرها أو ادخلن البهجة إلى ناظرها، لكنها تجنبت الحديث معهن ما أمكن. كانت تشعر انها منفصلة عنهن، عن لغتهن، عن عبئهن، عن قلبهن.

لكنها ستعلم مارا الكلام، ببطء، بدقة ولن تسمح بكدر من خلال اللغة العادية. ستربيها على التمسك بشيء، سمته من قبل ولاءً لأنها لم تجد كلمة أفضل – مفردة غريبة بكل معنى الكلمة. أصرت على الكلمة الغريبة لأنها لم تستطع أن تتمسك بالأكثر غرابة. حب. حيث لم يستطع أحد ترجمتها.

نظرت شارلوتا إلى مارا، أعجبت فيها بما هو شاذ، الأمل كله الذي ألقته على هذا الشبح. عليها الآن ان تحسن إظهارهذا الشاذ في أصغر الافعال، في اليوم الجديد، كل الأيام.

هيا، اسمعيني، قالت وهي تهز مارا من كتفها. يجب أن أعرف كل شيء عنك. أريد أن أعرف ماذا تريدين. . .

اعتدلت مارا، وقد بدا عليها أنها فوجئت. لقد فهمت. ألم يكن أمرا يدعو للرضا أن تكون قد فهمت في هذه اللحظة! ليتها صالحة، ليتها فهمت أخيرا!

لا شيء ، قالت مارا. لا أريد شيئا. لن أقع في المصيدة.

ماذا يعني هذا، انك لا تريدين شيئا ؟

يعني ما يعني. يجب أن أفعل شيئا ما. يقولون إنني موهوبة، زوجك يقول ذلك أيضا. ولكن الأمر بالنسبة لي سيان. لقد أعطوني هذه المنحة. ولكن لن أنجح في شيء. وبشكل عام: لا يهمني شيء.– سكتت برهة ثم سألت بعدذلك: هل يهمك شيء؟

أجل، الكثير.– أحست شارلوتا انها لا تستطيع الاستمرار في الكلام. كانت الحواجز قد سقطت من جديد. تلعثمت، لم تجد الشجاعة في أن تجعل من نفسها سلطة، أن تمحو هذه الثرثرة الحمقاء وتستخدم لهجتها هي.

أنت تكذبين!

كفي اللحظة عن الكلام معي على هذا النحو. قالت شالوتا بحدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شبكت مارا ذراعيها بعناد وحدقت فيها دون حياء: الموسيقى، مهنتك، هذا لا يمكن أن يهمك. هذا وهم. الحب – الحب، هو ذاك. الحب هو كل شيء. –

نظرت متجهمة وحازمة، لم تعد عديمة الحياء.

همهمت شارلوتا محرجة: لا يبدو لي ذلك مهما. أردت أن أتحدث عن شيء آخر.

غير هذا ليس مهما.

هل تريدين الادعاء انك تعرفين أكثر مني ما هو مهم؟ انزلقت مارا من الاريكة، أخذت مكانها على الأرض في جلسة تركية وصمتت عابسة. ثم بدأت مرة ثانية مثل شخص لا يملك سوى كلمات قليلة وعليه لذلك استخدامها باصرار أكبر، وجعلها مؤثرة: أنا لا يهمني شيء ببساطة. أفكر فقط في الحب. ولذلك لا أصدقك.

ربما لم تكن مارا تريد غير ذلك بالفعل، ولم تدَّع على الأقل أنها تهتم بشيء، إنها صادقة بما يكفي لتعترف بذلك. وربما كانت على حق وان كثيرا من الآخرين الذين لم يعترفوا، كذبوا على أنفسهم، وعزّوا أنفسهم في المكاتب، المعامل والجامعات بالاجتهاد.

بدا أن مارا أصبحت مقبولة. أضافت خجلة: لقد سمعتك في الراديو في الاسبوع الماضي. في هذه الحفلة الموسيقية، لقد كنت جيدة جدا كما أعتقد. رفعت شارلوتا مرفقيها مدافعة.

جيدة جدا، قالت مارا وهزت رأسها. ربما كنت تستطيعين شيئا بالفعل، وربما كنت طموحا...

ردت شارلوتا وقد أسقط في يدها: لا أدري. يمكن أن يسميه المرء كذلك.

لا تغضبي! – اعتدلت مارا، أحاطت عنق شارلوتا فجأة بذراعيها– أنت رائعة. أريد أن أفعل وأن أعتقد كل ما تريدين. فقط أحبيني!

أحبيني! لكني سأكره كل شيء من الغيرة، الموسيقى، البيانو، الناس، كل شيء. وسأكون في نفس الوقت فخورة بك. ولكن أبقيني عندك.
– استعادت وعيها وتركت ذراعيها تهبطان. – نعم، افعلي ما تشائين. ولكن فقط لا تطرديني. سأقوم لك بكل شيء، أوقظك في الصباح، آتيك بالشاي، البريد، أرد على التلفون، أستطيع أن أطبخ لك، أقوم عنك بكل المشاوير، أبعد عنك كل شيء. من أجل أن تعملي ما تحبين بشكل أفضل. فقط احبيني، واحبيني وحدي.

أمسكت شارلوتا مارا من المرفقين. أنها وضعتها حيث أرادت أن تكون. قدرت قيمة غنيمتها ووجدتها نافعة، جيدة. لقد وجدت مخلوقها.

كان وقت تبديل النوبة، والآن استطاعت أن تستلم العالم، أن تسمي رفاقها، أن تثبّت الحقوق والواجبات، أن تلغي الصور القديمة وتخطط الجديدة. فقد كان عالم الصور هو ما تَبقّى حين كُنس كلّ شيء، حين اتُّفق على الجنسين وجرى الحديث عنهما. بقيت الصور عن المساواة واللا مساواة. وكل المحاولات لتحديد طبيعتها وعلاقتها القانونية كانت قد أصبحت كلمات خاوية من زمن طويل، وستحل محلها كلمات خاوية جديدة. تلك الصور التي تبقى فترة أطول حتى عندما تتلاشى الألوان وتظهر بقع القدم، وتنتج صورا جديدة. نقل صورة الصيادة، الأم الكبيرة والعاهرة الكبيرة، المحسنة، الطعم من الأعماق وتلك . . . المنقولة إلى ماتحت النجوم.

لم اولد داخل صورة، فكرت شارلوتا. لذلك فاني أرغب في القطيعة. لذلك أرغب في صورة مخالفة، وأرغب ان أصنعها بنفسي. ليس ثمة اسم بعد، ليس بعد. أولا القفز، تخطي كل شيء، ثم تنفيذ الخروج، حين يلامس الطبل نفسه، حين ينسحب المنديل الأحمر فوق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأرض ولا أحد يعرف كيف سينتهي الأمر. الأمل في المملكة. ليس مملكة الرجال، وليس تلك التي للنساء.

ليس هذه، ولا تلك.

لم تعد ترى، تدلت أجفانها ثقيلة ومتعبة. لم تر مارا والغرفة التي هما فيها، وأنما غرفتها السرية الأخيرة، التي عليها الآن أن تغلقها إلى الأبد. في هذه الغرفة تعصف رايات الزنبق. هنا كانت الجدران بيضاء وكانت قد زرعت هذه الرايات. كان الرجل فرانس ميتا، وكان الرجل ميلان ميتا. لويس ميت، السبعة الذين أحست بهم يتنفسون فوقها كلهم موتى. لقد تنفسوا الصعداء، الذين بحثوا عن شفتيها ودخلوا جسدها، كانوا ميتين. جميع الزهور المهداة خشخشت يابسة في الأكف المضمومة، كانت قد أعيدت. مارا لن تعرف، لا ينبغي أن تعرف أبدا، ما كان غرفة فيها موتى ولا برسم من قتلوا. في هذه الغرفة تجولت وحدها، طافت حول أرواحها. أحبت موتاها، وجاءت لتراهم ثانية. سمع صرير في الخشبات، كان سقف الغرفة يهدد بالسقوط في ريح الصباح المعولة، التي ضعضعت السطح. حملت مفتاح الغرفة تحت القميص، أنها لا تزال تعرف ذلك. حلمت، لكنها لم تكن قد نامت بعد. لا ينبغي أن يسمح لمارا أن تسأل عن ذلك أبدا، وإلا أصبحت هي الأخرى بين الموتى. –

انني ميتة، قالت مارا. لم أعد أستطيع. ميتة، هكذا ميتة أنا.

تريدين منذ وقت طويل أن أذهب ، شكت مارا.

كلا ، قالت شارلوتا مبحوحة. إبقِ . إشربي معي. إني أموت عطشا. أجل إبقِ.

– كلا . لم أعد أريد. لم أعد أستطيع أن أشرب، أن أمشي، أن أقف. إنني ميتة.

وإذن القي بي خارجا!

وقفت شارلوتا. لم يكد جسدها المشلول المنهك يطيعها. لم تعرف كيف عليها أن تذهب إلى الباب أو إلى سريرها. لم تعد تريد لمارا أن تبقى هنا. لا تريد أيضا أن تأخذ وقتا للتفكير.

الوقت ليس وقتا للتفكير. كان الصباح قد أضاء النوافذ بالضوء الأول الذي لم يصبح ورديا بعد. كان يمكن سماع أول صوت من سيارة مارة. بعد ذلك صوت خطوات – خطوات ثابتة مجلجلة تبتعد.

.حين كانتا في غرفة النوم، أدركت شارلوتا أن الوقت متأخر لكل شيء خلعتا ثيابهما، واضطجعتا الى جانب بعضهما – نائمتان جميلتان، بأكتاف بيض وتنورتين داخليتين بيضاوين ملتصقتين ببعضهما. كانتا ميتتين. وكانتا قد قَتلتا شيئا. مررت احداهما يدها على كتف الأخرى، على الصدر. كانت شارلوتا تبكي. التفتت، بحثت عن المنبه وأدارت مفتاحه. نظرت مارا اليه غير مكترثة. ثم سقطتا في النوم، وفي حلم عاصف.

ارتخت التنورة الحمراء مجعدة وديعة أمام السرير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيلدرموت

"إن واحدا من آل فيلدرموت ليختار دائما الحقيقة."، فكر رئيس المحكمة العليا وهو يخلع الروب والقلنسوة في هذه الجملة الهائلة التي سمعها كثيرا من أبيه المعلم أنتون فيلدرموت. تناول قدحا من الماء من الصينية التي أتاه بها خادم المحكمة زابلاتشان، أخرج من جيب بنطاله علبة صفيح صغيرة لحبوب الساريدون، أخرج اثنتين منها، وضعهما في فمه واستعان ببضع جرعات من الماء لابتلاع الحبوب المرة المقضومة. لقد انتشر صداعه الآن في كل زاوية من دماغه، وكان رأسه كما لو أنه يرزح تحت تاج من الألم. حدق فيلدرموت أمامه، بينما عادت هذه الجملة المجلجلة تدوي فيه، وبإشارة طلب من زابلاتشان الذي همّ بالذهاب أن يبقى. حذرا وكأن رأسه يمكن أن يسقط منه استقر على كرسي مفكرا أن هذه الحقيقة ستنتهي منذ الآن وإلى الأبد. احتفظ برأسه ممدودا، مصغيا، ما إذا كان يمكن ملاحظة هذا السكون في الخارج، في شارع المحكمة العليا وفي المدينة بأكملها بل في العالم كله –

"ماذا كنت قد قلتُ، يا زابلاتشان؟"

بقي الرجل العجوز صامتا. "هل صرختُ؟"

أومأ الرجل العجوز برأسه.

بعد قليل دخل الغرفة بعض الرجال في أردية سود، مثل ملائكة منتقمة، أُنزل فيلدرموت من قِبَل السرب إلى سيارة أجرة مضت به إلى البيت. تركهم يأخذونه إلى السرير وبقي عدة أسابيع على سرير المرض تحت مراقبة طبيب العائلة وطبيب للأعصاب.

في الساعات التي كانت تغادره الحمى فيها كان يقرأ الصحف التي

كتبت عن قضية فيلدرموت. قرأ التقارير والمواقف، حفظها بعد وقت قصير عن ظهر قلب، حاول كما لو لم يكن طرفا أن يعيد في ذهنه صياغة القصة التي صنعها المرء للرأي العام، ثم أن ينهيها في ذهنه. كان وحده يعرف أنه لا يمكن تأليف قصة أوكشف ترابط في المعنى من إضافة العناصر إلى بعضها، وإنما من حادث واحد منظور نجم عن تصدع العقل في عقله، ولم يكن قادرا أن يحدث في هذا العالم شيئا أكثر من اضطراب قصير مهووس.

١

قتل عامل زراعي يدعى فيلدرموت أباه بفأس خشبية، استولى على المال الذي كان أبوه قد ادخره، بعثره في السكر ووزعه هدية في ليلة الجريمة، وسلم نفسه في اليوم التالي إلى الشرطة. تفيد ملفات الشرطة أن الرجل إعترف بجرمه وهنا لم يكن ثمة شك في صحة أقواله، وهو المشتبه به الوحيد، وصلت الملفات في وقت قصير إلى حاكم التحقيق. وقد واجه حاكم التحقيق اندرله، وهو صديق لرئيس المحكمة العليا فيلدرموت من زمن المدرسة بعض الإزعاج مع المتهم، إذ أن هذا بدأ فجأة ينكر، وبكلمة أدق، جرؤ على الإدعاء بأقل حذق ان كل ما جاء في بروتوكول الشرطة غير صحيح. رغم ذلك استطاع حاكم التحقيق بعد وقت آخر أن يغلق الملفات ويحولها، حيث أن جوزيف فيلدرموت اعترف أنه قتل أباه دون نية مسبقة في الواقع وليس من أجل المال وحده، وإنما بدافع الكراهية، لقد كره أباه دائما، منذ أن كان طفلا، لأنه أساء معاملته، أعاقه عن التعلم ودفعه إلى الكذب والسرقة، وهكذا كان في الملف شيء عن يفاعة صعبة، عن أب متوحش بهيمي وأم توفيت في وقت مبكر.

حين استلم رئيس المحكمة العليا فيلدرموت القضية التي أحيلت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إليه، سئُل بدافع الشكليات، عما إذا كانت تربطه قرابة بهذا الفيلدرموت. استطاع أن ينفي هذا. فحتى علاقة بعيدة كانت أمرا مستبعدا، انحدرت عائلته من كيرنتن وكان المتهم من أصل ألماني. لم تهتم الصحافة تقريبا بالقتل لأنه لم يكن أمرا خطيرا ولأنه كان عاديا لا يثير الأهتمام، وقد جرى الاطلاع على المحاكمة لأن صحفيا من جريدة شعبية كان في ذلك الوقت مع رئيس مراسلات الشرطة وأكتشف بعد حديث طويل أن قضية فيلدرموت في يد رئيس المحكمة العليا فيلدرموت – حمل الحاكم والمتهم نفس الاسم. بسبب هذا التشابه في الاسم، الذي أثار مرح الرجل وفضوله، كتب بلهجة مثيرة ودعية في جريدته عن القضية، ولم تتردد صحف أخرى أيضا أن ترسل مخبريها.

كان القاضي ممتنا لهذه القضية، التي بدت خالية من المصاعب، ممتنا كما لفترة استراحة، حيث أنه في المرات الأخيرة تولى قضايا صعبة ذات خلفية سياسية. شهد عرقلات من رجال الحكومة وأشخاص آخرين في مواقع السلطة واستفسارات من البرلمان، تسلم رسائل تهديد من الحركات السياسية السرية، جرى التنبؤ له فيها بموت قريب. وقد كان لذلك في حالة من الارهاق التام. في العطلة القصيرة التي كان يمكنه التمتع بها حدثت وفاة في العائلة، لم يكن التفكير في الاستجمام واردا، وفي النهاية، بعد سفر وعودة، في الريف، بعد الدفن، تصفية التركة، وجد نفسه في حالة أسوأ مما كان قبلها. قضية فيلدرموت، لِنَقُل قضية روتينية، ولكنها قضية ذكرته بالمحاكمات الأولى التي أجراها وحده في فيينا، هذا يعني بأيام سعيدة، لهذا بدأت تشغله مُنشطة في وضوحها وبساطتها، ولو أن المرء سأله لأقر الآن أنه لم يعد يهمه ظهور لامع غير مرتش في محاكمة ضخمة متشابكة وأنه ليشعر بالكمد والقرف من عالم لم يعد يُقتَل فيه ببساطة، يُسرق ويُعتدى، وإنما تصبح الجرائم فيه غير شخصية، أكثر وضاعة

وتجردا من المعنى. نعم لقد فضل عالما يضرب فيه أحد أباه بالفأس ويسلم نفسه للشرطة، حيث لا يجب على علم النفس العميق أن يبذل جهدا، لا آخر المعارف عن الدوافع المظلمة لقتل جماعي وجريمة حرب ولا يجب أن ينشر الغسيل القذر لمجتمع بأسره تحت صرخة الصحافة الكاذبة، لا تحتاج الى مواجهة مؤسسات وأشخاص الحياة العامة بحدّة أو حذر، لم يكن الرقص على الحبل ضروريا، ولا رهافة حس سياسية، وهنا لم يكن ثمة خطر سقوط بالنسبة له. سيقف في مواجهته شخص واحد فقط وعمله الصغير البشع، وسيكون قادرا على التفكير ثانية والايمان بالحق واكتشاف الحقيقة، بالحكم، وبحجم العقوبة.

بينما كان يدرس ملفات فيلدرموت، شعر انتون فيلدرموت بالقلق بشكل ملحوظ، ببساطة لأنه كان عليه أن يقرأ اسمه مرة بعد الأخرى كما يقرأ اسم شخص غريب. تذكر كيف انه مرة وكان لا يزال يدرس في غراس، دعي كثيرا الى بيت، كانت بين بطاقات الأسماء عند الجرس قرب بابه بطاقة باسم فيلدرموت . وقد سببت له هذه البطاقة قلقا مشابها. كلما مر من أمام باب شقة ذلك الفيلدرموت المجهول، ضيق خطواته، محاولا أن يشم الرائحة المنبعثة من ذلك المنزل، – مرة كانت رائحة صابون، رائحة مشبعة بالبخار، وفي مرة أخرى كانت رائحة خضرة. ارتفعت في أنفه الآن فجأة هاتان الرائحتان، ورأى نفسه يقف ساكنا في البيت الساكن سكون الموت يقاوم رغبة في القيء.

كان عليه أن يقرأ هذا الاسم المرة بعد الأخرى، مرتبطا بفأس دامٍ، رغيف مقطع ومعطف مطري، زر مقطوع قبل كل شيء، تدحرج من ذلك المعطف وسيلعب دورا ما في هذه القضية – بضوء كان مشتعلا في مطبخ، ثم لم يعد مشتعلا، بتحديد للوقت عُبِّر عنه بالساعة الثانية والعشرين والنصف والساعة الثالثة والعشرين والدقيقة العاشرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والذي لايريد أن يناسب الاوقات الحيوية، بأشياء، جرى الكلام عنها كما لو أن العالم قد انتظر فقط أن يسمع اساطير هذه الأشياء، فأس للخشب من طراز كذا وكذا، معطف مطري من ماركة كذا وكذا. وكان اسمه هنا في اسطورة سيئة، مرتبطا بأحداث لا معنى لها أيضا كما كان مرة قد ارتبط برائحة خضرة، برائحة بخار أو بموسيقى راديو ترتفع فجأة عند السلام. ما كانت الأحداث المكتوبة في الملفات لتؤثر فيه في غير هذه الحالة. ما كان ليسأل على أية حال

أبدا كيف يتخذ قتل، سيارة محطمة، اختلاس أو خيانة زوجية أسما. كان بديهيا بالنسبة له أن الأسماء تعلن عن ذلك وأن الأحداث ترتبط بتلك الأسماء التي يستطيع المرء من خلالها أن يعرف المتهم والشهود.

حين بدأت المحاكمة ورأى المتهم، وكان عليه أن ينظر اليه مرة بعد أخرى، نشأ لديه شعور أكبر بالانقباض من ذلك الذي كان ينتابه في فترة الاعداد للدراسة، شعور هو خليط من خجل لا إرادي وثورة. كان عليه أن يتظاهر هذه المرة بالهدوء والرصانة الباردة التي اشتهر بهما. مرة لم يعرف بعد مرور ساعة ما كان قد سأل عنه ولا ما أجيب به عليه. في اليوم الثاني، حين كان يتوقع أن تدخل المحاكمة مرحلة نشيطة بعد مفاوضات تمهيدية مضجرة، بقي جامدا مثلما كان قبل ذلك. أجاب الشهود وكأنهم قد تدربوا على أدوارهم، لم يكن في أي موضع ثمة قلق أو عدم وضوح. بدا المتهم هادئا، خاملا ومتبلدا – صورة للصدق، لم تُتعب أحدا. كان القاضي وحده مرتابا، قلب الأوراق أكثر مما ينبغي، وضع يدا في الأخرى، ثم سحبها، رفع يديه أكثر مما ينبغي، وضعهما ثانية، فتح أصابعه، أغلقها، أمسك بيد مرتجفة حافة المنضدة، كما لو كان يبحث عن سند.

كان ذلك قبل استراحة الغداء في اليوم الثالث، عندها حدث ذلك، وهدأت يدا القاضي. باشارة صغيرة متواضعة نهض المتهم وقال: "لكنها ليست الحقيقة؛ وأضاف بصوت واطئ في الجو الذي ساده هدوء تام:

"لأن ما حدث كان يختلف تماما. كان كل شيء يختلف تماما."

استُجوِب، وأجاب هذا الجوزيف فيلدرموت، أنه قتل أباه حقا، وبما أنه يُسأل بدقة فإنه يرى أن من واجبه أن يجيب بدقة أيضا. وأن يقرّ بأن كل شيء كان مختلفا تماما. أنه استدرج إلى قول ما قاله حول سير الحادث من قبل الشرطة، ولم يجرؤ أيضا أن يعارض حاكم التحقيق دائما. لم تحدث بينه وبين أبيه مثلا معركة بسبب المال، والزر المقطوع، لم يقطعه أبوه في معركة، حيث أن الزر كان مقطوعا من معطفه منذ أسابيع، أن مصدر الزر هو معطف آخر، معطف جار، موجود هنا ضمن الشهود، كان قد تخاصم مع الأب.

لم يمض الرجل أبعد من ذلك، حيث أن المدعي العام انتفض واقفا وبدأ بخطبة صغيرة حادة وردت فيها كلمة «حيل» جعلت المتهم يشحب، رغم أنه أو لأنه أغلب الظن لم يسمع هذه الكلمة من قبل.

لكن القاضي وجه بعد الظهر جميع الأسئلة من جديد ليخمل هذا الفيلدرموت على الكلام، فأجاب الآن ثانية طائعا، روى بصوت واطئ ما حدث، وروى شيئا جديدا تماما. لم يبق مما ملأ صفحات وصفحات من البروتوكولات خاصة، إثبات مفيد. لم يبدُ أن سيرالفعل قد صوّر بشكل صحيح ولا كتب عن الدافع تخمين يقترب من الصحة. وإذ وقعت أخطاء كثيرة أجلت الجلسة لاستدعاء محكّمين جدد.

حين استؤنفت المحاكمة كان اهتمام الإعلام بها مؤكدا، أضيف محكّمون بينهم خبير له سمعة عالية، خبير أوروبي في الأزرار والخيوط،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إذ كان الدفاع قد شكك في صحة تقرير المختبر العلمي للشرطة وحيث لا يمكن كشف سير الجريمة بشكل كامل إلا إذا جرى التثبت مما إذا كان مصدر الزر معطف المتهم أم معطف الجار.

ولكن كان ينبغي أن يمر يوم آخر قبل أن يُدعى الخبير، جرى استجواب الشهود من جديد وحاول المتهم أن يروي كيف يفسر هذا وذاك من التفاصيل التي انكشفت الآن فقط وما الذي دفعه الى الفعل. لكنه بعد أن كان حتى الآن قد أجاب بشكل مستقيم ودون تهرب، سقط هذه المرة في التأتأة أو في صمت مضطرب. كلا، لم يعد يعرف بالضبط عما إذا كان أبوه قد هدده بالطرد من البيت بجدية، كلا، إنه ليس متأكدا ما إذا كان قد كره أباه دائما، الأرجح لا، لم يكن قد كرهه حين كان طفلا، فكثيرا ما نحت له أبوه حيوانات من الخشب للعب، من جهة أخرى بالطبع – هنا بدا أن شيئا جديدا قد خطر له، حملق أمامه بغضب، صعب عليه التذكر، ليس لديه الخبرة في أن يتذكر، كان يمكن رؤية ذلك.

تدخل محامي الدفاع المكلف رسميا هذه المرة باسهاب، رغم أنه لم يبدُ عليه أنه يعرف كيف يدافع عن الرجل على أفضل وجه، لكنه رأى فجأة أن ذلك من واجبه، شعر بالحركة الكبيرة، توسع القضية، والتوقع المتحفز في الصالة، رجا المحكمة عدة مرات مناشدا " يجب أن نستخرج الحقيقة من هذه الروح المسكينة المعذبة بصبر"، داعيا الى التعاون تقريبا وليس إلى الصراع. كان محامي دفاع جيدا ومن طراز قديم، خلق في المحكمة جوا من نفاد الصبر والتسامح في نفس الوقت، لأنه استخدم كلمات كان المحامون الشبان سيرفضون استخدامها وكانت ستبدو مضحكة من أفواههم: روح معذبة. التعيس، شباب مشوه. نبتة صغيرة غضة. حتى كلمة «اللا وعي» اكتسبت في فمه، حين استخدمها مترددا، شيئا مؤثرا، ينفطرله القلب. والحقيقة التي لم

يتمسك بها، بدت مثل خزانة متينة ذات أدراج كثيرة، تفرقع حين يفتحها المرء، ولكن توجد فيها أيضا جميع الحقائق الصغيرة التي يمكن استنباطها، ناصعة البياض، صالحة للاستعمال، نظيفة وفي متناول اليد. هنا في هذه الخزانة وجد قلب المتهم الذي تعلق بأمه التي ماتت في وقت مبكر، هنا وجد الوعي المضطرب، الذي جعله يهفو الى المال، هنا وجدت رغبة عامل مستقيم بعد قدح من الخمر، في قليل من الانسانية والدفء، هنا وجد في الجهة الأخرى أداء الواجب المخلص والمنضبط في مواعيده، شهادة صاحب العمل الجيدة، هنا وجدت أخيرا فأس الخشب أيضا ببقعة الدم، التي سترعب المواطن المسالم وتجعل المجتمع يصرخ مطالبا بالحماية. ساد صمت ثقيل متفهم منح الرجل العجوز حُسنَ بيان غير عادي، وحين دعي الخبير، القدرة الأوربية، الآن الى القاعة، كان له أن يشعر أن هذه القضية اكتسبت أهمية، أنه نفسه اكتسب ثانية أهمية، وأن هذه القضية ليست دون جوانب دقيقة، مفاجآت، وتعدد معان. ما كان له أيضا أن يخطئ في شعوره، رغم أنه في آخر المطاف قد أخطأ بالفعل، لأن المفاجأة جاءت من جهة أخرى غير التي توقعها.

مثل الخبير أمام المحكمة المنتبهة، ليس دون ثقة في لحظته الراهنة: "المحكمة الموقرة" بدأ الكلام ممسكا أمامه برزمة مثل كتاب التماس، "يحتوي التقرير، الذي كان لي الشرف أن أفحصه على استنتاجات كثيرة، ادعادات تستحق الاهتمام، ولكن للأسف على قليل من الثوابت، لا أدري ما إذا كنتم على بينة مما يُعمل من أجل تحليل يُعتمد عليه للزر في حالة العلم الراهنة، وما تنبغي مراعاته. يتوجب على المرء من أجل تحليل من هذا النوع ، لذكر الأهم وحسب، تحديد بريق الزر، خصائص السطح، المسافة بين الثقوب، يجب على المرء أن يصور أيضا داخل ثقوب الخيط، يجب أن يقيس المرء بعد الثقوب عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحافة، يحدد القطر. لكن ليس هذا كل شيء. ما ينبغي تحديده أيضا الثقل الخاص للزر، سمك حافة تكوره..." اتخذت الوجوه فوق الثياب الرسمية ووجوه المحلفين تعبيرا غير واضح. نظر الخبير بسرعة حوله وتابع بصوت مرتفع: "المحكمة الموقرة، لتحديد وزن الزر استخدمتُ ميزانا سويسريا دقيقا وآخر اميركيا!"

ضحك رجل في القاعة ضحكة مكتومة.

انحنى الرئيس الى الأمام وقال مبتسما: "أيها السيد البروفيسور، إذا كنت قد فهمتكم فهما صحيحا، فانكم تطلبون من هذا الزر اعترافا حقيقيا، وانكم تتهمون العاملين هنا في المختبر أنهم لم يحملوا الزرَّ على الاعتراف."

اهتز الجميع في القاعة الآن من الضحك. غضب محامي الدفاع، انتفض واقفا وقال بصوت رجل عجوز مرتجف: "دور الجمهور في هذه القاعة – أن يصمت!"

خفف القاضي من حدة الوضع، اعتذر عن أنه تسبب في الضحك، ورجا الخبير، الذي نظر حوله مستغربا، كما لو كان لا يمكن له أن يفهم ما حدث وأثار الضحك، أن يتابع كلامه.

استجوب رئيس المختبر فيما بعد، ليوضح مع الخبير مسألة ما إذا كانت الخيوط العالقة بالزر مطابقة لخيوط معطف المتهم.

"سادتي" صاح الخبير وقد أسقط في يده "إنني لا زلت أسمع كلمة «مطابقة»! لا يستطيع المرء أن يقول ان هذه الخيوط متطابقة! في كلمة «مطابقة» يُعبّر عن درجة عالية من الاحتمال. ربما كان ممكنا – نعم ربما – أن يقال، إن صورتين فوتوغرافيتين، التقطتا لنفس الصورة، متطابقتين. ولكن لا يستطيع المرء أن يدعي هذا بشأن هذه الخيوط. ألا يفهم هذا أحد هنا؟!"

أخرج رئيس المختبر الآن تقريرا آخر، أعدته مؤسسة فحص المادة

وقرأ الموضع الذي كان يتحدث عن "التطابق التام" للخيوط.

" كلا، كلا "، همهم الخبير منهكا ثم اعترض ثانية بشدة: "هذا لا يعني بعد أن مصدر الخيوط المنفردة يجب أن تكون نفس القطعة. إفهموا هذا. يوجد في اوربا معامل قليلة فقط لخيوط الأزرار، وهي تنتج بضاعتها طيلة سنوات بنفس الطريقة. هذا ينطبق على الأزرار أيضا. لا أدري إلى أي هدف تسعون، سادتي، لكني أرى أن من واجبي أن أوضح لكم أنكم لا تستطيعون الحديث عن الزر، ولا عن الخيوط على هذا النحو. لا يمكن أيضا اكتشاف الحقيقة عن زر بهذه السهولة ، كما قد تعتقدون. اشتغلت بهذا طيلة ثلاثين سنة، مجتهدا أن أعرف كل شيء عن الزر، وأرى الآن أن نصف ساعة هي في نظركم كثيرة، لأن تنشغلوا بهذا بجدية. . . . " تراجع، طأطأ رأسه كما لو أنه أمام سلطة كان عليه أن يستسلم أمامها.

لم يضحك أحد هذه المرة.

كان المزاج الطيب قد تبدد وحل محله مزاج لا يطاق. جرى الانتقال إلى أسئلة أخرى. ولكن بدا الآن أنه لم يعد بين شهود الأتهام وشهود الدفاع من يستطيع أن يعطي جوابا وجيها ومعقولا. منذ أن عرض الزر للمشاهدة وانكشف كل هذا عن الزر انتقلت عدوى عدم الطمأنينة الى الجميع. كما لو كان كل واحد قد حدس أن الزر كشف شيئا لم يكن المرء قد توقعه بشكل عام. وهكذا كان من الصعب تماما أن يقال شيء صحيح حول زر، وقد خشي رجال متعلمون ألا يكونوا قد عرفوا كل شيء عن الزر، وكرسوا حياتهم لبحث الزر والخيط. كان لا بد أن يكون الشهود قد شعروا أنهم أعطوا أجوبتهم السابقة بشكل متهور وأن شهاداتهم بشأن فترة وشيء محددين، كانت ببساطة غير مسؤولة. تساقطت الكلمات من أفواههم مثل فراشات ميتة. لم يعودوا قادرين حتى على تصديق أنفسهم. ولأن كل شيء كان مهددا بالضياع والانهيار، بادر المدعي العام الذي لم يسمح أن تنتقل اليه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عدوى تنويم الحقيقة بالكلام. أعرب أولا ساخرا ومبتسما تقريبا عن شكره لـ " تقرير الخبير «المدهش كما هو فائض» حول الزر والذي أضيع به الوقت وحسب، ثم ذكّر وقد اختفت ابتسامته بالوقائع البسيطة والصلبة التي لا يمكن تجاهلها. "

مضى بصوته الحاد في الصالة، صوتا جيد التدريب، استخدم كلمات سلطته وأعاد الاجتماع الذي تشتت الى الواقع. أصبح الجمهور والمحلفون الذين لم يعودوا قادرين على الفهم لكثرة الصياغات في هذه الجريمة البسيطة الى جانبه حالا. صرخ داعيا الى الحقيقة. أومأ المتهم برأسه موافقا. وحتى المدعي العام أومأ بشكل لا إرادي.

ليس في نهاية المناقشة كما أوردت الصحف، أو خلال الاختلاف حول الزر، وإنما حدث في هذه اللحظة أن قاضي المحكمة العليا أنتون فيلدرموت نهض عن كرسيه بمشقة استند الى يديه وصرخ. أفزعت هذه الصرخة المحكمة كلها وأصبحت موضوع حديث المدينة عدة أيام واحتلت العناوين الأولى في كل الصحف. كانت صرخة غريبة في الواقع لأنها فقط لا علاقة لها بالقضية، لا تندرج في أي مكان، لا علاقة لها بأحد. يقول البعض إنه صرخ: إذا تجرّأ هنا أحد أن يقول الحقيقة مرة أخرى...! يقول آخرون إنه صرخ: كفى حقيقة، كفوا عن الحقيقة...! أو: كفوا عن الحقيقة...! ثم أنه أعاد هذه أو تلك الكلمات عده مرات في هدوء مريع، ثم دفع كرسيه وخرج من القاعة. يقول آخرون إنه انهار ووجب حمله خارج القاعة.

ما كان ثابتا هو الصيحة.

٢

إذا ما أراد امرؤ أن يدوخ رأسه حول هذا الأمر، لماذا أسلك هذا الدرب وأتمسك به وأصرخ فيه، وإذا ما سأل أحد، إلى أين، في أي

طريق تقذفني أفكاري إذا نهضت ثانية بعد هذه القضية؟ ما لون عيني؟ كم عمري؟ ما رقم حذائي؟ كيف أنفق مالي؟ متى ولدت؟ اهتديت للحظة إلى إعطاء حجم رأسي، لكنه سيكون عاديا. وسيكون دماغي خفيف الوزن بعد موتي.

ما يهمني في الواقع هو الحقيقة، كما يتعلق الأمر بالنسبة للبعض بالله أو المال، المجد أو الراحة الأبدية.

ما يهمني هو الحقيقة، منذ زمن طويل، كان الأمر كذلك دائما.

لدينا في الوطن، في الريف، حيث كان أبي معلما وجدي فلاحا، في ذلك الزمن عندما كنا أطفالا، امتد خط عملاق باهت على الجدار الأمامي للبيت بكامله. ليس لدينا هنا مكان باق. كان جدي قد أوعز بخط الكلمات، فيلدرموت، الذي كان أكثر ضبطا للنفس من أبنائه وأحفاده، حكم بجملة قوية لا يدخل اليها الشك، وتركها تحكمه. بعد موته صبغ فوق الخط، طلي الحائط بالأبيض. ولكن لأن هذه الجملة كانت مكتوبة في موضعي الأول والوقت الذي نبقى فيه هنا قصير بالفعل، سيُغفَر لي أني مهتم بشيء واحد، والوقت لا يكفي هنا أيضا، لقتله كفريسة، وإنما فقط لمطاردته، لملاحقته بكل حمية، لن يضحك أحد من يديّ الفارغتين أيضا، ليس أكثر مما يضحك من ألأيدي الفارغة للجميع.

أيدي الجميع الفارغة.

والدي الذي كان أكثر من ثلاثين سنة معلما في هـ . ، في المدينة الصغيرة التي عملت في محكمة مقاطعتها كقاض شاب، بروتستاني، نعم عائلتي بأكملها بروتستانتية وقد كانت كذلك دائما، باستثناء أمي، كاثوليكية لم تذهب الى الكنيسة أبدا. بقدر ما أستطيع أن أتذكر، لم ينشغل أبي الذي كان عليه أن يشغل باله بتربية أطفال كثيرين بأختي وبي بشكل خاص. ولكنه توقف عن قراءة الجريدة أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تصحيح الدفاتر حين روى أحدنا أو أخبرته أمنا مبلغة عن شقاوة، خصومة أو شيء مشابه، ثم سأل حتما: هل هذا حقيقي؟ كان مخترع كلمة «حقيقي» في كل استعمالاتها، بكل امكانيات ربطها ووصلها «حقا» «الحقيقية» «الحقيقة»، «الحقيقي»، «مطابقا للحقيقة» «حب الحقيقة» و«محب للحقيقة». انحدرت هذه الكلمات منه، وكان صاحب الحق في الدهشة التي اثارتها هذه الكلمات فيّ منذ الصغر. اكتسبت هذه الكلمات فتنة بالنسبة لي قبل أن أستطيع فهمها، كنت صريعها. كما يجتهد أطفال آخرون في هذه السن أن يُركّبوا قطع البناء الى بعضها بدقة متبعين نموذجا، على هذا النحو بذلت جهدا كبيرا في أن أنجز نموذج "قول الحقيقة"، وقد خمنت أن أبي كان يعني بذلك أن أقول "بالضبط" ما حدث. أي نفع في ذلك، هذا ما لم أكن أعرفه بالطبع. ولكني سرعان ما انتهيت إلى قول الحقيقة دائما بقدر ما يسمح به رأس صغير كرأسي، بدافع طمع مظلم أكثر مما بسبب الخوف من أبي. دعيت لذلك "طفلا أمينا". بعد وقت قصير لم يعد ما كان يرضي أبي كافيا بالنسبة لي، أن أقول مثلا إنني تلكأت في الطريق إلى البيت أو إنني أتيت إلى الغداء متأخرا بسبب مشاجرة، وإنما بدأت أقول الحقيقة الأكثر حقيقة. حيث أنني أدركت فجأة –ربما كان ذلك في السنة الاولى أو الثانية في المدرسة – ما كان يطلب مني، وأدركت أنني كنت أملك المبرر. التقى طمعي مع رغبة، رغبة جيدة تنال مكافأة الجميع، أن يتوجه الكبار إلي. كانت أمامي حياة سهلة رائعة. لم يكن لي وحسب، وإنما كان من واجبي أن أقول الحقيقة مهما كانت الظروف! كان علي أن أقول حين يسأل أبي لماذا عدت من المدرسة متأخرا، إن المعلم عاقبنا بسبب الثرثرة والضجيج، تركنا نبقى ربع ساعة أكثر. كان علي أن أقول إنني عدا ذلك التقيت في الطريق الى البيت السيدة سيمون وتأخرت لذلك أكثر.

ولكن لا، كان علي أن أقول: أن المعلم قال عند نهاية درس الحساب، في الظاهر خمس دقائق قبل ذلك، لأننا كنا غير هادئين. . . .

كلا: لأن حركة حدثت في القمطر الأخير، لأننا أندرلا وأنا في القمطر الأخير صنعنا طائرات من الورق، لأننا مزقنا الورقة من الدفتر، وصنعنا منها طائرات وصنعنا عدا ذلك كرتين من الورق الذي أخذناه من دفاتر الحساب. من وسط دفاتر الحساب، حيث يستطيع المرء أن يفتح المشبك، كي لا يلاحظ المعلم ذلك. . .

ثم بحثت عن النص الدقيق للجمل التي تحدث بها المعلم، ورويت بأدق التفاصيل، ما قالته السيدة سيمون لي، كيف أنها أمسكت بذراعي خلال ذلك، وكيف أنها وقفت فجأة أمامي على الجسر. ولكن بعد أن رويت كلّ شيء بأدق التفاصيل، بدأت من جديد لأنني لاحظت باضطراب شديد أن ما رويته لم يكن بعد صحيحا تماما، وعدا ذلك فإن ما كنت قد ذكرته كان لا يزال متداخلا مع واقعة سبقت ذلك، بشيء، كان موجودا خارج الأشياء المذكورة. كان صعبا أن يتحدث المرء بشيء ابداعي، ولكن كان الأمر يتعلق فقط بأن نريد، وكنت أريد، تابعت محاولة ذلك، وتحرقت لهذا الواجب، الذي كان أجمل كثيرا من واجبات المدرسة.

أردت الحقيقة، وكان ذلك لا يزال يعني يومذاك "قول الحقيقة" قبل كل شيء.

ذات يوم، حين قمنا أختي آني وأنا بعمل عابث أغضب الجيران، تصاعدت عندي أول مرة نشوة الحقيقة، التي كان علي الا أخرج منها طيلة سنوات. حتى قبل أن يناديني أبي، نظمت الوقائع لنفسي في تتابع دقيق وذاكرتُ: قالت ايدي أولا، ينبغي أن نترقب السيدة سيمون في الطريق الى البيت. ذهبنا معا حتى زاوية البيت، لننتظرها. أردنا أن نخيفها. قالت ايدي، قلت، قالت ايدي، كانت ايدي قد قالت أولا،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

علينا أن نفعل ذلك، ولكني كنت قد فكرت في ذلك من قبل، أن أخيفها بضفدع كنت قد اصطدته، أن أضعه في حقيبة مشترياتها، إلا أنه أفلت مني. حين لم تأت السيدة سيمون، ذهبتْ آني للبحث عن حجارة، وضعنا آني وأنا الحجارة أمام باب الحديقة وضع ادي عصاه أمامها، خمس حجارات كبيرة، عصا من الغابة، وضعنا الحجارة لتتعثر بها السيدة سيمون، بالحجارة أو العصا، ثم جاءت هيرما بحجر رصيف، قالت هيرما، قلت، قال ادي، نعم قلنا هذا، ثم قالت آني، لكنها لا تريد للسيدة سيمون أن تسقط على أنفها، ولكني قلت، قال ادي...

عرفت أنني لن أعاقب حين أروي لأبي هذه الصياغة الأولى التي وُضِعت بعجالة، ولكني اقترحت أن يسمح لي بالتفكير، حسّنتُ الصياغة حتى بدت لي كاملة وصحيحة في كل تفاصيلها، ولكني لا أزال أستطيع أن أتذكر فقط إسهابها القاتل. لم يرد أبي أن يظهر رضاه العميق عما انجزت، لكني شعرت بتفكيره حين تركني أذهب قائلا: "بالحقيقة يبلغ المرء الأبعد، ابقَ دائما مع الحقيقة ولا تخف أحدا."

تابعت وصف جميع الحوادث حتى تلك الأكثر ازعاجا بالنسبة لي. كانت أمي أقل صبرا من أن تصغي لاعترافاتي كاملة، غالبا ما كانت توجه نظرة لم أفهمها الى أبي، لكن أبي كان يبقى منتبها، كان يستمتع بتلك الاستجوابات، التي كنت بعدها أقل خوفا فأقل. وانتشيت بالفرحة التي أدخلتها على قلبه. حين كانت الحقيقة وحدها هي ما قدمته حول قصص مدرسية مضجرة، صبيانيات، حماقات، الأفكار الطيبة والشريرة الأولى! إذا كانت الحقيقة فقط، مضى كل شيء بشكل طيب! كان ثمة ما هو رائع حول الحقيقة في طفولتي، حول هذا الوصف، إعادة الكلام، التلاوة. أصبح ذلك تمرينا لي، طبعني،

جعلني أكثر معرفة وعلمني أن أجزئ كل حادث، كل شعور، كل شيء في مكان حادث إلى ذراته.

لفت نظري بعد ذلك بوقت طويل فقط، أنني لم أُسأل عن أشياء كثيرة، لم أُحاسب على الكثير – لم أقل الحقيقة كاملة حول كل شيء. لم يسألني أحد عما أفكر حول الأشياء التي لم تكن تستحق الاعتراف، ما كان رأيي حولها وما اعتقدت. عشت بين سن الثالثة والثامنة عشرة فترة، رغم انني تابعت فيها التمرين على قول الحقيقة حتى الشطط، إلا أنني تحركت بحرية، في عالم لم تشاطرني فيه العائلة، كما في خلفية مسرح مظلمة. انسحبت اليها حين كان لدي دور أظهر فيه من أجل الحقيقة، وهناك ارتاح من الاداء المرهق وقد تسابقت مع فقدان القوة الذي كلفني اياه قول الحقيقة منذ الآن. أخذ كل شيء يكلف أكثر، وينتظر أن يكلف دائما أكثر كل سنة. التنفس، اللهفة، القول. في خلفية المسرح دارت مغامراتي الحلمية التي لا يحدس أحد بها، مسرحيات الحلم، تخيلات، ارتفعت في العشب بشكل غزير مثل الحقائق في أضواء المسرح.

حذرا وساخرا كنت أسمي هذا العالم أحيانا عالمي «الكاثوليكي»، رغم أنه ليس في الأمر ما له علاقة بهذا التعبير، أردت بهذا فقط أن اسمي عالما كان حادا وملونا وغنيا، دغل يستطيع فيه المرء أن يكون مسترخيا ويتنصل من بحث الضمير. كان بالنسبة لي عالما، ربطتُه بعالم أمي، جعلتها مسؤولة عنه، هذه الأم ذات الشعرالأحمرالشقرة الطويل الجميل، التي كانت تتنقل في بيتنا دون بحث والتي كانت ترفع حاجبيها بمرح فقط حين كان الأطفال يتشكون، في يوم أحد قارس البرد، إذ وجب علينا الذهاب الى الكنيسة، كأنها تستغرب هذا الاعتراض، هي، التي ما كان لها عمل.

أمي المسترخية، التي كانت تغتسل في طست خشبي بينما كنا في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكنيسة، تغسل شعرها، وحين كنا نعود كانت لا تزال تقف في المطبخ بردائها الداخلي، تتألق طراوة وسعادة بنفسها. تسمح لآني أن تساعدها في تمشيط شعرها، وكنت ألف الشعرات الحمراء المقطوعة حول أصبعي وأقوم بدور المستشار حين تعقص شعرها. نعم، أمي التي بدت مسراتها في يوم الأحد هكذا، كانت مبعدة بشكل مؤكد عن شيء – عن الحقيقة طبعا. ما كان بامكانها أن تعرف ما هذه. كانت من شأن الاب وحده وليس في يوم الأحد فقط، حين كان يتحدث عنها مباشرة، ويضع قيمتها نصب أعيننا. أيّا كان الهدف الذي يضعه الناس الآخرون لأنفسهم – فان هدف آل فيلدرموت، كما أصبح واضحا لي، كان دائما البحث عن الحقيقة، مساندة الحقيقة، اختيار الحقيقة.

الحقيقة – كان وقعها بالنسبة لنا نحن الأطفال، كما لو أن المرء يستطيع أن يسافر اليها كما يسافر إلى الصين. ويبحث –كان وقع هذا كما لو أن المرء يستطيع أن يبحث عنها كما يبحث عن الفطرفي الغابات في مواسم الصيف الرطبة ويعود بسلة مليئة منها تماما الى البيت.

تردد صدى الحقيقة في بيتنا، صدى هذه الكلمة وكلمات أخرى أحاطت بهذه الكلمة الأميرية كأنها تحمل أذيالها. وأن يربى فيلدرموت، فذلك يعني أن يربى على الحقيقة. وأن يصبح المرء فيلدرموت فذلك يعني أن يصبح في الحقيقة.

لكني تركت هذا البيت فيما بعد وانفصلت عن الحقيقة الأولى كما انفصلت عن بيت والديّ، عن أيام الأحد، عن العقائد. تعرفت على حقيقة أخرى حين بدأت الدراسة، واحدة تحدث عنها العلم، ربما حق للمرء أن يقول واحدة أعلى. أتى اندرلا معي الى غراتس، وفي الجامعة انضممنا إلى طالبين من المدينة، روسي وهوبمان، اللذين رأيا

في دراسة القانون شيئا آخر غير الحصول السهل على لقب والانخراط في مسلك الموظفين العادي في دولتنا. لم ترضنا المحاضرات، نبذنا النصوص التي حصل عليها المرء للتسهيل والتي كان ينبغي أن نعكف عليها. كنا نهفو الى شيء آخر، وهكذا أمضينا الأماسي في البحث عما يتجاوز المادة، عن أسس هذه المادة. تحمسنا مساء بعد آخر طيلة سنة أو اثنتين حول مشاكل أساسية، الدستور والقانون، وكانت هذه مناسبة لنا لخلافات كثيرة غنية بالكلمات. لكني لاحظت أن لكل منا ميولا، أكثر من هذا، أن شيئا ما التصق بنا مثل رائحة الجلد، مثل طريقة المشي، الصمت، والتقلب في النوم، وحين مال هوبمان أن يعتبر شيئا ما حقيقة، ملت أنا إلى اعتبار نقيض الشيء حقيقة، وأغاظنا معا روسي الذي فكك وجهتي نظرنا ساخرا، مستخدما القياس الذي سماه هو الحقيقة، وأوضح لنا أن الحقيقة تقع مرة أخرى في الوسط. ولكن لماذا ينبغي أن تقع الحقيقة في الوسط؟ كان شيئا لا يصدق ببساطة، أن تدفع الحقيقة الى الوسط أو إلى اليمين أو الى اليسارأو في الفراغ أو في الزمن أو خارج الزمن. أعتقد أنه من العبث أن يُذكر حول أي النقاط احتدمنا، لأن كل من قرأ مرغما أو طائعا عشرة كتب حول موضوع، كما فعلنا حول فلسفة القانون، سيفهم ما أعني. كانت تصريحاتنا غير أصيلة، ابرزنا ببساطة جملا أو أفكارا من كتاب وأعملنا فيها المشرط أو ربطناها: رأينا الحقيقة مرة هنا ومرة هناك وأحيانا في موضع ثالث. تضاربنا مثل كلاب صغيرة من أجل عظم، من أجل الحقيقة، بكامل المرونة، المشاكسة واللهفة الى التفكير التي يتصف بها الشبان. اعتقدنا أننا أنفسنا نمتلك تلك الأفكار الرائعة التي كانت لهيغل وايهرنغ ورادبروخ، ولكن عدم اتفاقنا أثبت في أقصى الأحوال عدم الاتفاق الذي كان قائما. صرخنا حتى بحت أصواتنا حول النسبي والمطلق، الموضوعي والذاتي. استنفدنا آلهتنا وكلماتنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأجنبية مثلما يستنفد ورق اللعب، أو أطلقنا الحقائق إلى مرمى الآخرين وسجلنا نقطة لأنفسنا.

افترقنا عن بعضنا في السنوات الأخيرة للدراسة، كان علينا أن نستعد لامتحانات كثيرة، بدلا من أن نستطيع أن نختلف حول مشكلات، رأينا منها الكثير، دخلنا في علاقات حب استغرقت أماسينا، ومخاوف من الامتحانات أرقتنا، لم يبق وقت للإهتمام بالحقيقة، ارتاحت الحقائق العليا منا، بينما سعينا وقد انصرف انتباهنا عنها إلى أن نضع نهاية متعجلة تحت دراسات متعجلة لنستطيع أن نعتبر أنفسنا عناصر نافعة في المجتمع.

وجدنا أرضا تحت أقدامنا، ذهبنا كواضعي مخططات إلى المحاكم وفقدنا شموخنا الأول، من أجل أن نستبدله بشموخ جديد. ولاحظنا أن المرء في مكاتب المحامين وفي ممرات قصر العدل الطويلة، الطويلة لا يجد الوقت للبحث عن الحقيقة. تعلمنا كتابة الوثائق، تنظيم الملفات، الكتابة على الآلة الطابعة، تحية الرؤساء وتلقي التحية من السكرتيرات والمتدربين والخدم، تعلمنا أن نتعامل مع ابواب الخروج وابواب الدخول والأضابير والملفات والخزانات. أين طارت الحقيقة، ومن أراد أن يقتفي أثرها ويجدها؟

أجل سيكون كل شيء بالنسبة لواحد من آل فيلدرموت هو طلبها، لا يمكن أن يفقد أثرها، هذا ما كنت أعتقده! حتى لو كان في مأزق، أن يجتاز مأزقا، ينبغي على الكل أن يجتازه...

أنشأنا عوائل. شكلنا شللا. أثثنا مساكن. تزوجتُ غيردا، فتاة من منطقتنا، من مدينتنا الصغيرة. لم نكن قد عرفنا بعضنا من قبل، ولكن بعد ذلك حين عدت كقاض شاب، التقيت بها كثيرا عند البحيرة، في نهاية الاسبوع، حين كنت أذهب للسباحة. غيردا التي اعيش بجانبها في دهشة عميقة، لا أعرف انسانا، قريبا إلي ويستهين بالحقيقة مثل

زوجتي. الكثيرون يحبونها، في عائلتها يقدسها المرء، يسعى أصدقائي إلى صحبتها أكثر مما يسعون لصحبتي. لا بد أنها تملك سحرا. حيث أن الجميع معجب بها، لأنها تستطيع أن تجعل من الوقائع الصغيرة، من الأحداث الثانوية قصة. إنها تأنس وتؤنس الآخرين دون انقطاع على حساب الحقيقة، لم أضبطها ولا حتى مرة واحدة وهي تروي واقعة بدقة. إنها تحول كل شيء في الحال، رحلة، ذهاب إلى دكان الحليب، محادثة لدى الحلاق، إلى شكل فني صغير، كل ما ترويه غني المعنى أو مدهش، مستظرف. حين تروي شيئا فعلى المرء أن يضحك حتما، أن يكون مندهشا أويقترب من البكاء. كانت تلاحظ ما لم أكن أستطيع ملاحظته، من هنا كانت تتحدث وتتحدث وكأن أحدا لا يستطيع محاسبتها. إنها تكذب، ولا أعرف حتى إذا ما كانت، بصرف النظر عن استثناءات قليلة، على بينة من ذلك. تروي حين ذهبت لتحضر جوازها: "جلس هنا، ربما ثلاثون، ماذا أقول، أربعون شخصا..." (وأنا متأكد، هذا يعني أربعة أو خمسة أشخاص!) وأنتظرت طيلة ساعات. (لكنها انتظرت، كما حسبت بعد ذلك، نصف ساعة!) حين تروي ذكريات الطفولة، تكون أسابيع تلك التي قضتها على البحر، ثم ثانية ثمانية أيام، أو تروي فخورة كيف أنها لعبت دائما مع الصبيان فقط، ولبست السراويل دائما، لكني أعرف صورا لها من تلك الفترة تظهر فيها بالتنورة فقط. تقول أن شعرها كان قصيرا، قصة رجالية، لكني أعرف أنها طيلة سنتين على الأقل كانت لها ضفائر.

لديّ سيرة ذاتية واحدة، ولكن لغيردا سير عديدة، فرغم أنني أعرف ماضيها بشكل عام، وأعرف عددا كافيا من الناس الذين يعرفونهامنذ الصغر توجد حين تتحدث هي اختلافات لا نهاية لها، ليس حتى اختلافات، حيث لا يوجد هنا خط يمكن أن تحيد عنه، وإنما ببساطة روايات كثيرة وتفسيرات لحياتها. ما أن يخطر لها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تفصيل، ويكون لها مزاج طيب وشهية للكلام، حتى تتخذ قصة حياتها منعطفا جديدا. حين كانت صبية صغيرة أرادت فقط أن تتعلم عزف البيانو، أن تغرق في الموسيقى، أن تعيش مع الموسيقى، ولكني أعلم فجأة أنها كانت تريد أن تدرس الطب، وأنها أرادت أن تذهب إلى أفريقيا، لتعمل في مستشفى لتستطيع مساعدة أفقر الفقراء هناك. كانت هذه رغبتها الوحيدة. في الكونغو أو لدى الماو ماو متحملة أي خطر لتؤدي الرسالة.

أحيانا يبدو لي كنوع من الايمان بالخرافات كما لو أن القدر قد خطط لكل منا أن يتحمل بالضبط ما لا يطيق، أن يرتبط كليا بالانسان الذي يحبط متطلبه الأعمق. غيردا التي يتحدث الجميع عن سحرها هي بالضبط المرأة التي كان يمكن أن أكون متأكدا أنني لا أطيقها. "زوجتك الساحرة . . . " يتجرأ هذا الكالتنبرونر البارد أن يكتب لي، كان لها السحر الصحيح بالنسبة له، سحر ينسجم مع سحره الفاسد، الذي أريدُ في غيظي وفي عجزي أن أقتلع جذوره.

ولكن كيف عاشت غيردا، كيف عاشت إلى جانبي، كيف عشت أنا الى جانبها! بغير الحقيقة تسير الأمور بشكل بديع. هذا ما أذهلني كثيرا. مرة حين ظننتُ أنها ستموت لا محالة، وظنت ذلك هي أيضا، حين ولدت طفلا ميتا، وحين ظننت أن السحر سينتهي وأن وجهها سيكون عاريا، أن أملا يراودنا في حالة اليأس، كذبَتْ هنا أيضا وتحدثت بأحاديثها العميقة المعنى أو السوداوية المرحة الطريفة. وهي تكذب اليوم أيضا عن أكثر الساعات بؤسا في حياتها، تلك التي أنْحَلَت جسدها الى أبعد حد، إنها تستطيع أن تتحدث عن ذلك بشكل مثير، تطلق ألعابا نارية من الملاحظات، مضحية بكل ما بدا لي مهما ينبغي قوله، بما كان في ذلك حقيقة، حقيقة الى حد ما. أعرف أنه لا يخطر لأحد سواي أن يتهمها بالكذب. إن لها بالفعل كما يرى

السيد كلتنبرونر نمطا شخصيا جدا في رؤية العالم. إني أكره هذا النمط الشخصي، بسبب الثمن الذي يدفع له، بسبب التعتيم الذي يصيب العالم من جرائه. لأن العالم غير موجود ليزين بالزخارف العربية ويغير من قبل غيردا، إنه مظلم بما يكفي ولا يحتاج أن يعتم أكثر من ذلك من قبلها.

إنني مهتم بايجاد الحقيقة، مهتم بها ليس بسبب المهنة، ولكن لأنني لا أستطيع أن أهتم بشيء آخر. حتى لو أني لن أجد الحقيقة . . . .

فيلدرموت، الذي لا يستطيع شيئا آخر، منذ زمن طويل، إلى الأبد. . . .

شخص يعرف أن المرء يتقدم معها بافضل ما يمكن. ولكن ألا زلت أريد أن أتقدم مع الحقيقة أبعد؟ منذ أن صرخت، لا. منذ ذلك الوقت لم أعد أريد ذلك، لم أرد ذلك مرارا. لماذا يراد التقدم مع الحقيقة؟ إلى أين؟ حتى بوكستهودا، حتى ما وراء الأشياء، وراء الستارة، حتى السماء أو فقط حتى ما وراء الجبال السبعة . . . لا أريد أن أضطر لقطع هذه المسافات، لأن الايمان ينقصني منذ وقت طويل. وأنا أعرف أنني أريد أن أوفق بين عقلي ولحمي، أريد أن أوفق طويلا جدا في متعة لا نهائية، وسأصرخ لأنه ليس ثمة ما يتلاءم، ولأنني لا أستطيع ذلك قسرا ولن أبلغه.

أصرخ!

بحثت عن الحقيقة حول نفسي، ولكن ما هي نتيجة ما أفكر فيه حول نفسي بالتفصيل، ناهشا أياي، أو أحيانا أفكر في نفسي في دفعات كبيرة حزينا! ماذا يمكن أن أصنع بهذه الاعترافات التافهة الشأن، التي يمكن أن يقوم بها أي شخص. أنا مقتصد ولكن أحيانا سخي، أشارك الكثير من الناس آلامهم، ولا أشعر بالاشفاق على بعض الناس. أشك في أن لي فطرة الميل الى الكفر، لكني لا أعرف بالضبط ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي يمكن أن يعتبره المرء ميلا للكفر بضمير مرتاح، وربما لا أعرف الكفر لأنني لم أستخدم ميلي الفطري، في البدء كانت تنقصني الشجاعة، ثم كان ينقصني الوقت ثم لم يعد يبدو لي مهما أن يتوجب عليّ تطوير هذا الميل. إنني طموح في ظروف محددة فقط. لذلك كان يمكنني أن أعطي الكثير لأتفوق على روسي في فترة الدراسة وحينا من الزمن بعد ذلك حين سلكنا نفس الطريق، لكني لم أفعل، ولكن أسعدني حقا أن نتائج هوبمان كانت أكثر تألقا من نتائجي وقد شق طريقه صاعدا في وزارة العدل. اعتبرت الاثنين أصدقاء، وشعرت بالودّ لكليهما، ولكن لا أعرف لماذا كان ثمة فرق في مشاعري. ربما لم يكن الأمر يتوقف علي في أنني ارتبت في نجاحات روسي، بل عليه أو على شيء ثالث لم أكن أنا ولم يكن هو سببه، ولكن في نوع صداقتنا، التي لم تعد تسبب اليوم لي ألما. إنني مخلص وغير مخلص، كثيرا ما شعرت انني عاجز وأعرف أنني أتصرف بتصميم. إنني جبان وشجاع وغالبا ما لاحظت الاثنين فيّ، في صور كثيرة مختلفة. ولكن لاحظت دائما أن الأمر يتعلق لدي بالبحث عن شيء واحد، هو الحقيقة. ولكني لا امتلك الحقيقة لنفسي، إذ يجب ألا تكون لها علاقة بي. فقط أن تكون لي أنا علاقة بها.

كان علي أن أفعل بها ما يفعله الحداد بالنار، باحث القطب بالجليد أو المريض مع الليل. وإذا لم أستطع أن أفعل شيئا آخر سأستلقي كما بعد الصرخة ولا أنهض أبدا، وأعيش في الصمت حتى الموت.

أجل ما هي الحقيقة عني، عن أي واحد؟ إنها يمكن أن تقال فقط من خلال لحظات تشبه النقط، بالغة الصغر، التدرجات الأكثر صغرا للمشاعر، من خلال القطرة بعد القطرة من تيار الأفكار، ثم لا يمكن الاستنتاج بعد ذلك، إن للمرء صفات ثابتة مثل "مقتصد"، "طيب"، "جبان"، "متهور". كل اللحيظات القصيرة من الاعجاب، الخوف،

الشهوة، القرف، الهدوء، الانفعال، التي يعيشها المرء، إلى أين تؤدي؟ هل ينبغي أن تؤدي؟ أجل، إلى شيء واحد فقط: لقد كان له الكثير وعانى من الكثير. . .

أو الحقيقة حول العالم، لأنني بالذات لا أنفتح لنفسي، ولأني مثلا يمكن أن أرى، أن أحس، أن أفهم بأشكال مختلفة! منضدة، شيء واحد مثل منضدتي! على سبيل المثال! كثيرا ما جلست وراءها متعرفا عليها دون اكتراث، أو لمستها، تحسستها في الظلام، رسمت لها تخطيطا في رسالة إلى صديق، كانت هنا تطابق بضعة خطوط بقلم الرصاص، أشمها أحيانا، كيف تفوح بعد عمل طويل، أنظر إليها متعجبا، حين تبعد جميع الأوراق وتكون متحررة مني، واحدة أخرى، وما في هذه المنضدة الضخمة عدا ذلك! كتلة من الخشب للتضحية، شكل يذكر بطراز معين، لها ثقل كبضاعة شحن، كان لها ثمن وسيكون لها آخرٌ اليوم أو بعد موتي. لا يمكن رؤية نهاية لهذه المنضدة. ستراها ذبابة بغير ما يراها عصفور كناري، وما إذا كانت غيردا قد رأت المنضدة كما أراها؟ لا أدري، إنني متأكد فقط أنها تعرف الموضع الذي أحرقتُ فيه ثقبا في سطحها بسيجارتي. إنها بالنسبة لها منضدتي ذات الثقب المحروق، عدا هذا تعرف هي عن قوائمها المحفورة لأنها «تجمع الغبار». أدركت من خلالها فقط أنها تجمع الغبار، ولكني لقاء ذلك أعرف ما لا تعرف هي: أي شعور بالراحة تمنح، حين يستند اليها المرء على مرفقيه، وكيف تتعلق نظرة أثناء التفكير بخطوطها وكيف ينام المرء على هذه المنضدة، حيث أنني نمت عدة مرات فوق عملي، برأس ساقط فوق سطحها.

حيث أن أشياء كثيرة الى هذا الحد تتعلق بشيء واحد، فكم هي التي تتعلق بالعالم كله ويجب مراعاتها في كل موضع، وكم هي بالنسبة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لإنسان، حيث انه يتحرك ويعيش ويتفوق على الشيء من خلال الحياة.

بحثت عن الحقيقة في اللحم. أردت أن اجعل شيئا ما منسجما، جسدي الحي مع جسد حي. أردت أن أقسر اللحم على اعتراف، عليه أن يتحدث عن حقيقته، وحيث انه لم يعد يريد قول الحقيقة، ولم يفصح عقلي عن نفسه، لم يفصح العالم عن نفسه. حيث انني شعرت منذ وقت مبكر ان فيه شهوة تتجاوز المرأة. ارتبت في أن جسدي يسعى وراء حقيقة وقد انتظرت منه أن يستطيع أن يبلغني شيئا بسيطا ورائعا. أرسلت جسدي في الغربة، إلى النساء، تركته يتعلم ويُعلم معه جسدا آخر. حاولت أن أكون مع هذا الجسد صادقا. الآن وقد زورت جميع الذكريات عن اللقاءات الأولى مع النساء، حيث أن بعض الأشياء فاسد، بعضها سام، لكن أغلب ما كان صالحا للسمو كان ناجزا، لم يبق لي سوى أن احزر حول زواجي الذي كان إلى درجة كبيرة دون أسرار، ناجحا، موحد الشكل وواثقا. ربما يفكر المرء، ماذا يوجد هنا ليُحزر. أجل توجد لحظات تبدو لي فيها أحاديثنا وعناقاتنا مرعبة، شائنة، غير شرعية لأن ثمة ما ينقصها، أجل إنها الحقيقة. لأن لنا نظامنا من المغازلات، لا نبحث أكثر، ليس أبعد من ذلك. كل شي ميت وقد مات. مات إلى الأبد. ليس لأن ما ينقصني هو المفاجأة حين أسحب غيردا إلي، لأنني أعرف حركاتي وحركاتها عن باطن وظهر قلب. – كلا، المفاجأة موجودة، إن الأمر هو – لا يمر خلال ذلك بيننا برق، لا يمسنا رعد، إنها لا تصرخ وانا لا أضربها، أننا لا نثور ضد هذا الارتباط السعيد الطيب، الذي يخمد أجسادنا، يبسها – إلى درجة لا تستطيع معها خيانة، أو رغبة متخيلة، أو خيال جامح أن يغير في هذا الموت قليلا . لا يخطر لكلينا شيء بشأن أجسادنا، بشأن ذلك الذي تعتبره أجسادنا حبا. حين أجول النظر لدى أصدقائنا ومعارفنا يسري

فيّ أكثر من هذا شعوربأننا لسنا الوحيدين اللذين لا يخطر لهما شيء بهذا الشأن وأننا جميعا نستحق هذا. الحالات القليلة المنفردة والنوبات من الحب يُحَطّ منها بسخرية من قبلنا كعقوبة، تغرق في صمت مميز أو تدمر بثرثرة كاذبة. وأشعر أنا كما لو أن هذه الحالات لا توجد الا في ملفات القضاء تقريبا، يبدو أنها انتقلت الى باب «حوادث وجرائم».

لكني أردت أن أتحدث عن الحقيقة التي كان لحمي يبحث عنها، وعن المرة الوحيدة ، حين أوشكت أن أضيع نفسي وأوشكت أن أقع على هذه الحقيقة ذات صيف قبل سنوات طويلة.

ذات صيف – كنت لا أزال يومها قاضيا في محكمة المحافظة – سافرت مرة كل اسبوعين مع طالب كان يقوم بالتطبيق العملي لدي في العطلة، الى مدينة ك. الأصغر، حيث اننا، بسبب النقص الكبير في القضاة النزيهين في سنوات ما بعد الحرب، حصلنا على يوم قضاء واحد وكان علينا أن نكرس أنفسنا لقضايا صغيرة، حوادث المرور، رعاية الأحداث، خلافات الفلاحين بشأن الحدود. أدلت نادلة بشهادتها، أعتقد بسبب خلاف حول أبوة طفل من غير زواج، بذلت جهدا للتعبيرعن نفسها، ثم وردت جمل بهذه الصراحة، بهذا الفساد، كان عليّ يومها حين لم أكن قد اعتدت بعد سوى لغات اجنبية قليلة أن أتماسك، لأبدو باردا، ودودا ومحايدا. مجتزءات فقط أوردها البروتوكول الذي لا يزال موجودا أمامي، لم تعد موجودة منذ وقت طويل في الذاكرة، لولم تكن صورة فاندا التي لا تمحى هنا: الشعر الأسود المنثور، الفم الرطب الرائع، الشعر ملقى فوق الصدر، الشعر ملقى وراءها، الشعر في كل مكان يسد الطريق، خارج الطريق، في طريق جسد أراد أن يشهد كل إمكانية يمكن أن تتوفر لأن يتفتح، أن ينثني، أن يتحرك، في الصورة ذراعاها اللتان أرادتا في كل لحظة أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكونا ذراعين، أصابعها التي كانت عشر أصابع بالفعل، وكل واحد منها استطاع أن يلهب الجلد، أن ينشب أظفاره أو يوصل بلاغا من جسدها، الذي لم يكن يعرف رياء في البحث، في الكفاح، في هزيمته المرة.

قبل أن أذهب لتناول الغداء، رأيت فاندا تقف في الممر، عرفتها، أومأت بأدب باتجاهها، ثم التفتت ثانية إليها بينما تابع الطالب طريقه. كانت تقف هناك ببساطة، لم تكن تنتظر أحدا، كان المرء يرى ذلك. وقفت في مبنى القضاء كما لو أنها في مكان مقدس، لأن هنا يجري شيء حاسم بالنسبة لها، استندت الى الجدار وشبكت يديها كما في الكنيسة، ليس بسبب الضعف، ليس وسط الدموع، وإنما كإنسان غير مستعد لمغادرة مكان بهذه الأهمية له حالا.

اليوم السابق كان يوم الكنيسة. وفي مطعمنا كان الرقص مساء يوم الاثنين مستمرا. لم يفكر أحد في النوم، لذلك قررنا أن نشارك في الاحتفال. دعينا إلى أفضل مائدة ولكن لأننا كنا نشعر بسبب مناصبنا أننا مراقبون على الدوام، لم يرق مزاجنا، لم نشعر بمرح. وجب علي أن أشرب النبيذ مع طبيب وطبيب أسنان وصاحب مطعم وتاجر، كان «المستشار» هو الذي لم يسمح أن يمنح نفسه لأحد. رقص الطالب أخيرا، وبقيتُ متروكا، متحولا إلى مراقب صامت أكثر فأكثر. في هذا الوقت كنت خطيبا لغيردا، كان نقلي الى فيينا وشيكا وبذلك زواجي أيضا. كان أمرا مفروغا منه لدي أن يقع اختياري على غيردا. لم يثر الاختيار بالنسبة لي فيما بعد أيضا أي شك. لكني لم أكن أعرف في ذلك الوقت ما عرفته منذ ذلك الوقت ونجحت في اسكاته: لا تستطيع هي ولا إمرأة مثلها أن تقود جسدي إلى حقيقته، وإنما كانت تلك النادلة، وانه قد يوجد في العالم فاندا أو أخرى لها هذه القدرة – جنس من النساء الشاحبات ذوات الشعر الأسود بنظرة واسعة حزينة،

عيون مصابة بقصر النظر، بلا لغة تقريبا، سجينة خرسها تقريبا، اعترف بانتسابي اليها ولا أستطيع أن أعترف بذلك. ليس لأنه محظور علي أن أحب هاته النساء، أو انني عانيت في ظل مجتمع سيستهجن الانتساب إليهن جهرا – انه حزن صغير فقط، مدهش جدا ذلك الذي فيّ، انني لا أحتاج إلى الحقيقة هناك حيث تظهر. كانت لدي الشجاعة لأعيش مع فاندا وأقدم ذريعة لغيردا لصرف النظرعن الزواج، أن أثقل نفسي بامرأة أمام العالم الذي كان أخرس، لم يكن بوسعي أن أنتفع من هذا العالم وأن يتحملني قومي على مضض. لكني عرفت في الحال أن الأمر غير ممكن على الاطلاق، أن أعيش معها، ليس معها أبدا، ولن يكون بوسعي أن أحتمل الحقيقة التي غزت لحمي يومها وفتكت به.

كانت فاندا تجلس الى مائدة مع بعض الرجال في مواجهتي. كان أحدهم يمسك بذراعها، آخر يضع يده على كتفها. الجميع يعرفون بعضهم، يتكلمون في نفس الوقت ثم يضحكون ثانية معربدين. نادرا ما ضحكت هي، ولكن بصوت عال أيضا، بغيض، ضحكة قصيرة، من نوعٍ ما كنت لأستطيع قبوله. ما أروع غيردا حين تضحك. بالطبع هي لا تضحك لأنه يجب عليها أن تضحك، ولكنها تضحك لتستلب الآخرين بضحكتها. فاندا تنفجر ببساطة ضاحكة.

عند منتصف الليل، حين كان كل شيء حولي ثملا واستطعت دون أن يلحظني أحد أن أخرج من المبنى الى الهواء النقي، رأيتها تقف بالباب، وبقيت واقفا قربها في الضوء الشحيح، الذي تذبذب في الريح، بينما اهتز البيت أيضا خلفنا من الموسيقى، تفجرات الضحك، الغناء والدبك. نظرت الى وجهها، كما لم أنظر أحدا في وجهه، حدقت فيها، كما لو لم يكن بامكاني أن أحول نظري عنها أبدا، ونظرتْ هي إلي، بشكل حاسم أيضا. أتذكر تحديقها كما أتذكر التحديق الحاد والمعتم لطير جارح، وكما أتذكر شيئا احتفاليا جدا، حين لم تعد أعيننا قادرة على الاستمرار ومضينا مع بعضنا، دون كلمة، دون أن نلامس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعضنا. ببطء شديد مضينا، تفصلنا عن بعضنا مسافة حددناها بأنفسنا منذ الخطوة الأولى. لم يكن لتنورتها أن تلامسني، حتى في الريح، لم يكن لها أن تلتفت، لم يكن لي أن أنظر الى الوراء، ألا أسرع، ألا أسبقها، فقط أمضي، أمضي خلفها، هابطا الشارع، صاعدا في الطريق، صاعدا الدرج إلى البيت المظلم. دون أسئلة، دون كلام. حين بلغنا غرفتها، كنت فاقد الوعي تقريبا. لم يكن بمقدوري أن أمضي خطوة أخرى. لم أعد قادرا على التعرف على جسدي ثانية وفهمته للمرة الوحيدة.

لم نضحك أبدا، ولم نقل إلا ما هو ضروري، أحيانا ابتسمنا ابتساما آفلا، في المرات القليلة التي كنت فيها معها، حين جئت الى ك. بقي كل شيء بيننا جادا ومعتما، جادا الى حد اليأس، ولكن كيف كان بالامكان مجاراة رغبتي بغير ذلك؟ كيف كان يمكن أن يكون لحب قيمة بالنسبة لي، إذا لم يستنفد نفسه في البحث عن تجانس. تجانست مع هذا الجسد الشاحب الصابر لفاندا، أتممت الحب، حتى أن كل كلمة كانت لتزعجها ولا يمكن العثور على كلمة لن تزعجها .

غيردا بلغتها المشرقة – كيف سترتفع أزاء هذا الصمت لتلك الأيام! هل يستطيع المرء أن يقضي على هذه اللغة، أن يتركها، تلك التي أبعدتني بها عن نفسها. حبيبي، إنني سعيدةجدا. أحببني، لا تؤلم حبيبتك. أما زلت تحبني حقا؟ ألست زوجتك؟ هل نام حبيبي؟ كل كلمة بخط وردي، كل شى دون عيب، ليس سوقيا أبدا، لا يخرج عن الطور أبدا. هل تعرف غيردا كم، كم هو قليل من هذا ما يتلاءم فيه ما تقوله مع ما تشعر به؟ ما الذي تريد تغطيته بلغتها، أي نقص تستبِق، ولماذا تريد أن تجعلني أتكلم بهذه الطريقة أيضا؟ أثثتنا بهذه اللغة كما بالموبيليا التي أتت بها من البيت والتي كانت مريحة لها مثل جُمَل: أحبك. و: ألا أحصل على قبلة؟

لا نختصم تقريبا، ولا نهدم جسر الطوارئ لهذه اللغة الذي سلكناه في البداية والذي أثبت متانته. الآن فقط أصبحت معاندا ضد غيردا، وفي المساء في الاسبوع الماضي حين لم تَدَعني أنهض وقعت في أول مشاجرة مزعجة معها. هذا الكالتنبرونر، الذي يدّعي أنه شاعر وأنه يريد أن يتزوج إحدى صديقاتها زارها ثانية، تحدث معها بإفاضة، حول أي شيء، لا أدري. أعطتني غيردا كتابا صغيرا أسود له، عليه في الصفحة الأولى الإهداء المزعج : مع الشكر لك، المخلص أبدا، ادموند كالتنبرونر. بعد العشاء ألحت عليّ غيردا أن أترك كتبي وأن أقرأ فيه. رغم أنني أقرأ في المعتاد بسرعة وسهولة، بذلت جهدا كبيرا في التعامل مع هذه الجمل المضببة. بعد عدة صفحات أوشكت على النوم، لكن غيردا جلست إلى جانبي في السرير وطلبت مني أن أحدثها عن انطباعاتي. تمتمتُ باعتذار متهربا، لمحتُ بعودة الحمى والضعف. لم يكن شاعرها يعنيني. "يجب أن تعترف" قالت غيردا بحماس، "ان ثمة عبارات وصورا بهذه الحقيقة ! بالغة الحقيقة!" غضبت وأصبحت خبيثا، إذ كان جديدا بالنسبة لي، أن تكون الحقيقة موجودة لغيردا. كان حريا بها أن تعني أنها وجدت في كتاب، في مثل هذا الكتاب، حقيقة. كان العالم بالنسبة لها هنا مصاغا بشكل مليء بالأسرار، هنا تستطيع أن تجعل الحقيقة كسيحة بين غيلان الجمل. "إنها حقيقة أخرى، حقيقة أعلى"، صاحت غاضبة.

خطرت لي في الحال جميع الحقائق العليا التي كنت قد واجهتها، عليا وأعلى، يحدث لي هذا الآن وفوق ذلك في بيتي الخاص، أن أحدا يكون حليفا مع العليا ويتوهم أنه يفهم شيئا عنها. بالطبع غيردا التي انفعلت وقالت إنني ببساطة غير قادرة على الحكم على الكتاب. لأنني أتعامل مع الحقائق العامة وليس مع الحقائق البالغة سألتُ بخبث. نعم،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنا أقول كلمة حقة، أنا الحقوقي اليقظ، صاحب الحق والساخر مع حقيقتي الجافة النحيلة!

كم هي حقيقية! كم هي حقيقية!

كنت قد تخففت. تشاجرنا بقية الوقت حتى منتصف الليل، ثم أعدنا ما قلناه من أجل التشاجر فقط، وفي النهاية حين خطر لها أن عليها أن تخفف عني، وأطفأت الضوء، ضغطت على يدي بقوة كما تفعل دائما حين تكون مستعدة للصلح، سحبَتها وشدّتها إلى جهتها ووضعتها على صدرها. آه، هذه الرقة ثم وهذا الهمس!

إنني تعب من هذه اللعب وهذه اللغات.

بحثت عن الحقيقة في الأعالي، في أعلى الأعالي، في الكلمات الكبيرة الهائلة، التي يقال أنها تأتي مباشرة من عند الله أو من عند البعض الذي أعاروه أذانهم، لكن الكلمات الكبيرة لا بد أن تكون كثيرة ومتناقضة، حيث لا تلفت نظر المرء الكلمة الكبيرة بين كلمات كبيرة كثيرة مختلفة. أيها هي، التي يجب أن يتمسك بها المرء؟ حاولت التمسك بكلمات كبيرة كثيرة، بها جميعا في نفس الوقت وبكل واحدة على انفراد، وقد سقطت ونهضت ثانية منهكا، دخنت، أكلت، نمت، ذهبت ثانية الى العمل، بسبب كلمة أقل، تضاف إلى بضعة المجلدات التي وجدت فيها الحقيقة بالنسبة لي للاستهلاك اليومي.

هل الحقيقة هنا للاستهلاك؟ وإذا كانت هنا من أجل الاستهلاك هل هي الصحة، الدقة؟ أي غرض لها إذن؟ هل هو حقيقة أن يقال، اننا سافرنا بقطار الساعة العاشرة قبل الظهر، حين نكون قد سافرنا به فعلا؟ مؤكد، ولكن ماذا يعني هذا! إنه لا يعني أكثر من أن ما قلناه، متطابق مع ما فعلناه. إنها لكذبة أن نقول: اننا سافرنا في الساعة العاشرة مساء وحسب، إذا كنا قد سافرنا في الصباح فعلا. إذا لم يكن

ثمة تطابق فثمة كذبة هنا. لماذا لا تعتبر الكذبة أمرا حسنا؟ يمكن أن يكون لها عواقب (ولكن ألا يمكن أن تكون ثمة عواقب للحقيقة؟)، وانني أحدث من خلالها اضطرابا في العالم (ولكن ألا يمكن أن تسبب الحقيقة اضطرابا؟)، وانني اضلل أحدا، جيدا.

ما الذي يختلف، حين نقول الحقيقة؟ إنني سافرت في الساعة العاشرة صباحا. هاكم الحقيقة! يحتاج الحادث الى حقيقتكم، وتحتاج الواقعة إلى قولي الحق. والوقائع تبقى ذاتها، ولكن لماذا يتعين علينا أن نقول الحقيقة، مرة أخرى أيها الأعزاء؟ لماذا يكون علينا أن نختار هذه الحقيقة الملعونة؟ كي لا نقع في الكذبة، لأن الأكاذيب من صنع الانسان، حيث انه يجب أن يكون ثمة شيء ما يطابقها في الجهة الأخرى، هناك، حيث الوقائع. يجب أن يكون ثمة شيء في البدء، بذلك يمكن أن تكون ثمة حقيقة. لا يمكن أن توجد الحقيقة وحدها.

ما هي الحقيقة العليا، أيها الأعزاء؟ أين توجد حقيقة عليا، إذا لم يكن ثمة حادثة عليا! أيها الأعزاء، إنه أمر مرعب بشأن الحقيقة، لأنها تشير إلى قليل جدا، إلى ما هو جد عادي، ولا تعطي سوى الأكثر عادية. لم أستنتج منها في كل هذه السنوات سوى هذه القناعة، هذا الاعتراف، الاعتراف المخفّف عن الكاهل بالوقائع. لم يمكن الحصول منها على أكثر من هذا. كان علي أن أبحث عن الحقيقة حول أشخاص، حول كثيرين جدا، كانوا مذنبين أمام القانون – ولكن ماذا يعني ذلك! إذ كيف يمكن أن يكون القانون في الحقيقة . .

لماذا؟ لماذا؟ سألنا القاتل، لكنه استطاع أن يقول لنا فقط، أن الأمر كان كذلك، وكما كان. فقط مع الفعل ظهرت الحقيقة دامية، مع الفأس، مع السكين، مع الأسلحة النارية. ظهرت مع آلاف الأشياء الصغيرة. ولكن لم تأت مسرعة إلى السؤال "لماذا". حيث بذلت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

محكمة كاملة خبيرة جهدا لتفسر على هواها، فتظهر بذلك حقيقة. لكنها لا تأتي عن هذا الطريق ببساطة.

(آه لماذا فعلت شيئا ولم أفعل غيره؟ لماذا كان كل شيء فظيعا الى هذا الحد وجميل الى هذا الحد. لا تأتيني حقيقة من هنا، لا أحب أن أقول شيئا، لا أستطيع أن أقول شيئا وأقول من أجل إرضائكم على الأرجح: كان علي أن أفعلها، كانت لدي رغبة لذلك، كان هذا شعوري. . .)

أيها الأعزاء، لست مريضا الى هذا الحد، كما يعتقد الأطباء ناهيك عن حاجتي إلى الراحة. لم أعد أحتاج إلى الراحة. لقد فكر رجل هنا طيلة ثلاثين سنة في الزر وكل ما يتعلق بالزر، ومن حقي أنا هنا أن أفكر في حياتي بالحقيقة. أدعوكم أيها الأعزاء أن تفكروا مرة فيها! ماذا تريدون من الحقيقة، حيث أن ما يهمكم بالتأكيد، المستقيمين منكم، هو الحقيقة. أنكم لا تريدون أن تشتروا بها شيئا بالتأكيد. أن تذهبوا الى الجنة؟ لقاء أنكم لم تقعوا في زلة لسان ولم تقولوا الساعة العاشرة مساء، بينما كان يتوجب عليكم أن تقولوا الساعة العاشرة صباحا؟ تابعوا. ولكن تُرى أيحبها المرء في الجنة؟

(لكن قول الساعة العاشرة خطر، حيث لا توجد الساعة العاشرة، لا بد أنكم تعرفون هذا. الحساب افتراض وحسب، لا شيء يختفي وراء ذلك، ولكن اطمئنوا من ناحيتي عند مقارنة الساعة والتوقيت الاعتيادي!)

آه، أجل، أي رضا عميق هو، أن تصل إلى توافق. أن تصنع تطابقا. القول: إنها تمطر – حين تمطر. القول: أحب – حين يحب المرء.

ولكن كان هذا خطر ثانية، هنا تبدأ الظلمة في الحلول من جديد، إذ كيف تستطيعون أن تدّعوا: أحب. هل تحبون؟ كيف عرفتم ذلك؟ هل لديكم ارتفاع في ضغط الدم؟ هل تحسون بالسمو، بالاضطراب؟ماذا حدث لكم؟ أنتم تعتقدون إذن انكم تحبون.

تعتقدون، تعتقدون. وماذا تعتقدون أيضا؟ هكذا حالكم . حسنا، إذا كان حالكم هكذا، إذا كنتم تعتقدون انكم تستطيعون أن تقدموا سببا أو آخر. . هيا قدموها، أسبابكم المتملقة الداخلية العميقة. هل يصدقكم المرء أم لا؟ لا شيء يمكن اثباته، ولكن ربما يكون هنا شيء يساعدكم، الحقيقة «الداخلية» . حسنا، لا اعتراض لدي، حقيقة داخلية أيضا. هيا. حقيقة تلو حقيقة.

بحثت عن الحقيقة الداخلية. عن الفطر السام الملون في عمق الغابة.

ولكن مرة أخرى، أيها الأعزاء: أي شعوربالرضا هو، وذلك منذ وقت طويل، أن تسمع الخبر: التقى الرئيس بالرؤساء وأدلى بتصريح. نص. بالطبع نريد أن يكون ما سمعناه هنا مطابقا لشيء، حيث أن اهتماماتنا من ذلك النوع الذي يجعلنا نريد أن نكسب دائما شيئا من تصرفنا – وأولى بذلك يجب أن يستطيع الاقتصاديون والصناعيون وحراس الفضيلة السياسيون أن يربحوا. إذا أخطأنا الآن في المضاربة، علقنا على ذلك آمالا خاطئة أو أصابنا القنوط، إذا لم تكن القنابل الكبيرة موجودة في المستودعات، إذا ما استغفلنا المرء . . هذا أمر غير مستبعد!

ولكن دعونا نكن حسني النية ونتحدث عن الأول من نيسان. حين كنا لا نزال أطفالا، كنا نركض في الأول من نيسان في الصباح الباكر إلى أبوينا في الغرفة ونصرخ: "تعالا انظرا!، لقد نضج الكرز!" افتُرض أن يكون ذلك مزحة، لكنكم تدركون أنها لم تكن مزحة جيدة بشكل خاص. كانت المزحة الأفضل كثيرا أن يقال لأحد بصراحة: أريد أن أصفعك. أو: لقد اعتبرتك دائما نذلا. لكن هذا يقترب من الحقيقة.التي تقود اليها المزح الكبيرة. أحيانا حاولت هذا أيضا، من أجل قول الحقيقة وحسب. ولكن لم أشعر بالسعادة في ذلك، ولم أكن بعد ذلك أيضا أقرب الى الحقيقة، بعد أن أردت أن أنفتح .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أستأذنكم. أنني أنا الذي صرخ.

لم أستطع فجأة أن أتجاوز زرا، ورجلا هو فيلدرموت أيضا و كان له الحق ليس فقط في أن تظهر الحقيقة التي يمكن أن نحتاجها وحدها إلى النور. أجل إنه قال: لقد فعلتها، وسيذهب لقاء ذلك الى السجن خمسا وعشرين سنة. لا أستطيع أن أرضى بأن حقيقة واحدة تكفي، تلك التي يمكن أن تظهر الى النور، ولا تظهر الحقيقة الأخرى، لا تأتي منطلقة، لا تومض مثل برق. أن نستخدم من الحقيقة الصالحة للاستعمال الطرف الأكثر صلاحية للاستعمال، لنضع الانشوطة حول رقبة شخص ما، لأنه قال: نعم كان ذلك في الساعة الثالثة والعشرين والنصف. أو لأنه نسي أن يقول: كان ذلك في الساعة العاشرة صباحا.

تعقبت الحقيقة. لكني كلما تعقبتها، ابتعدتْ ثانية أكثر، مرسلةً ضوءا كاذبا في كل وقت، في كل مكان، فوق كل شيء. كما لو كان يمكن الامساك بها فقط، كما لو كانت لها صلابة فقط إذا لم يتحرك المرء، لم يسأل كثيرا، كان طيبا مع أكثر الناس غلظة. يجب أن تنصب على درجات حرارة معتدلة، على النظرة المعتدلة، على الكلمة المعتدلة. هنا ينتج تطابق متصل رخيص بين الشيء والكلمة، الشعور والكلمة، الفعل والكلمة. أنت أيتها الكلمة الملهذبة التي يجري التمسك بها، من أجل قبول هذا العالم الأبكم للأزرار والقلوب برحمة! كلمة كسلى مترهلة للمطابقة في كل استعمال

وأبعد من ذلك، حيث توجد آراء كثيرة فقط، ادعاءات جريئة، آراء حول آراء ورأي حول الحقيقة، أسوأ من الآراء حول كل الحقائق، التي يمكن أن تعدمي من أجلها في بعض الأزمنة وتنتهي إلى محرقة الحطب، حيث ثمة ما هو مرعب حول الرأي، أكثر من ذلك حول الحقيقة –

وهذا أيضا سيء،

هذا الرأي السامي، الذي كان لي عن الحقيقة
وانه لم يعد لي الآن عنها
منذ أن انتهت بالنسبة لي –

تركت طعنة وحسب في عقلي الرخو البارد والحار، الذي لا يعمل جيدا في درجات الحرارة المعتدلة. من هذا الذي بات في عقلي؟ من الذي تحدث بلساني؟ من الذي صرخ من داخلي؟

احكوا لي مرة أخرى اسطورة السيدة البيضاء كالثلج، التي تسكن خلف الجبال السبعة، أرجوكم!

أريد أن أخلع ردائي وقلنسوتي، أن أقرفص في كل موضع من العالم، استلقي على العشب والاسفلت واتسمع العالم، أتلمسه، أنفضه، أنبشه، أعضه، ثم أتطابق معه، دون نهاية طويلا وكليا–

حتى تصبح الحقيقة حول العشب وحول المطر وحولنا:
استبطان أخرس، يجبر على الصراخ وعلى الصيحة عن كل الحقائق.
حقيقة، لا يحلم بها أحد، لا يريدها أحد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اوندينا تذهب

انتم أيها البشر، انتم أيتها الغيلان!
أنتم أيتها الغيلان باسم هانز، بهذا الاسم، الذي لا أستطيع أن أنساه.
كلما جئت عبر ممر الغابة، وانفتحت الأغصان، كلما نفضَت العيدان الماءَ عن ذراعي ولحسَت الأوراق القطرات عن شعري، التقيت واحدا يدعى هانز.

نعم، تعلمت هذا المنطق، ان الواحد ينبغي أن يدعى هانز، انكم جميعا تحملون هذا الاسم، واحدا كالآخر، ولكن واحدا فقط، دائما واحد فقط هو الذي يحمل هذا الاسم، والذي لا أستطيع أن أنساه، ولو نسيتكم جميعا، نسيتكم تماما، كما أحببتكم تماما. وحين كانت قُبَلكم وحيامنكم قد غُسلت منذ زمن طويل بالمياه الكبيرة، المطر، الانهار، البحار، وجرفتها المياه، فالاسم لا يزال هنا، يتكاثر تحت الماء، لأنني لا أستطيع أن أتوقف عن مناداته، هانز، هانز...
أنتم أيتها العفاريت ذوات الأيدي الثابتة والقلقة، بالأظافر القصيرة الشاحبة، بالأظافر المثلومة ذات الحافات السوداء، المانشيتات البيض حول المعاصم، البلوزات التي ظهرت خيوطها، البدلات الرمادية الموحدة، جاكيتات الجلد الخشنة، القمصان الصيفية المفتوحة! ولكن دعوني أكن دقيقة، أنتم ايتها الغيلان، وأجعلكم الآن محتقرين مرة، لأنني لن أجيء ثانية، لن أستجيب لايماءاتكم، لا دعوة الى كأس نبيذ، إلى رحلة، إلى زيارة للمسرح. لن أجيء ثانية أبدا، أبدا لن أقول ثانية نعم و أنت ونعم. جميع هذه الكلمات لن تكون

موجودة، وربما قلت لكم، لماذا. حيث أنكم تعرفون الأسئلة، وجميعها يبدأ بـ "لماذا؟" لا توجد في حياتي أسئلة. أحب الماء، شفافيته الكثيفة، الأخضر في الماء والمخلوقات الخرساء (وكذلك أنا سأكون قريبا خرساء أيضا)، شعري بينهم، فيه، في الماء العادل، المرآة غير المكترثة، التي تمنعني من أن أراكم على نحو آخر. الحدود المبتلة بيني وبيني...

ليس لدي أطفال منكم، لأنني لم أعرف الأسئلة، ولا المطالبات، ولا الحذر، لا النية، ولا المستقبل، ولم أعرف كيف يتخذ المرء مكانا في حياة أخرى. لم أحتج إلى إعالة، لا ارتفاع اسعار وتأمينات، فقط هواء، هواء الليل، هواء الشواطئ، هواء الحدود، لأستطيع مرة بعد أخرى أن أستعيد أنفاسي لكلمات جديدة، قبلات جديدة، لاعتراف لا يتوقف: نعم. نعم. حين قُدِّم الاعتراف كان محكوما علي أن أحب. إذا ما تحررت ذات يوم من الحب، كان علي أن أعود إلى الماء، في هذا العنصر، الذي لا يبني فيه أحد عشا، يقيم سقفا فوق الدعامات، يتغطى بغطاء. لا يكون في أي مكان، لا يبقى في أي مكان. يغطس، يهدأ، يتحرك دون بذل جهد – ويتذكر ذات يوم فيطفو ثانية، يمضي عبر ممر في الغابة، يراه ويقول "هانز". يبدأ من جديد.

"مساء الخير."

"مساء الخير."

"كم هي المسافة اليك؟"

بعيدة هي، بعيدة."

"وهي بعيدة الي."

إعادة نفس الخطأ دائما، ارتكاب خطأ واحد يوسَم به المرء. وماذا ينفع أن يكون المرء قد غُسِل بكل المياه، بمياه الدانوب، ومياه الراين،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمياه التيبر ومياه النيل، مياه البحار الثلجية المضيئة، مياه البحيرة العليا الحبرية والبرك الساحرة؟ نساء البشر العنيفات يشحذن ألسنتهن وتبرق عيونهن، نساء البشر الرقيقات يتركن بعض الدموع تنهمر هادئات، إنها تقوم أيضا بعملها. لكن الرجال يصمتون حول ذلك. يمسحون على شعر زوجاتهم وأطفالهم بوفاء، يفتحون الجريدة، يراجعون الحساب، أو يشغّلون المذياع بصوت عال ويسمعون فوق ذلك صوت المحار، صفير الريح، ثم مرة أخرى، في وقت لاحق، حين تحل الظلمة في البيوت، ينهضون سرا، يفتحون الباب، يتسمعون الخطوات الهابطة إلى الحديقة، إلى الشوارع المشجرة، والآن يسمعونه بوضوح تام: صوت الألم، النداء القادم من بعيد، موسيقى الأشباح، تعال! تعال! تعال مرة فقط!

أنتم أيتها الغيلان مع نسائكم!

ألم تقل: إنه الجحيم، ولماذا أبقى معها، هذا ما لن يفهمه أحد. ألم تقل: زوجتي، نعم، إنها إمرأة رائعة، نعم إنها تحتاجني، لا تعرف كيف تعيش بدوني-؟ ألم تقله ! أولم تضحك وتقول مكابرا: لا تحمل هما، لا تغتم لشيء كهذا. ألم تقل: ينبغي أن تسير الأمور دائما على هذا النحو، والشيء الآخر لا ينبغي أن يكون، إنه ليس نافذا! أنتم أيتها الغيلان، بأقوالكم المأثورة، التي تبحث لكم عن أقوال النساء المأثورة، كي لا ينقصكم شيء، كي يكون العالم مدورا. الذين تجعلون النساء حبيبات لكم ونساء، نساء ليوم واحد، نساء لعطلة الاسبوع، نساء لمدى الحياة، وتجعلون من أنفسكم رجالا لهن. (ربما كان هذا يستحق اليقظة!) أنتم بغيرتكم على نسائكم، بتسامحكم المكابر وطغيانكم، بحثكم عن الحماية لدى نسائكم، أنتم بنقود اقتصاد منازلكم وأحاديثكم المشتركة قبل النوم، بهذه المقويات، بحيازة الحق

أزاء الخارج، انتم بمعانقاتكم المقتدرعليها بيأس، المشتتة بيأس. أدهشني هذا، أنكم تعطون نقودا لنسائكم للتسوق وللملابس ولرحلة الصيف، هنا تدعونهن (تدعونهن، تدفعون عنهن، هذا أمر بديهي) . تشترون ويُشترى لكم . ينبغي أن أضحك منكم وأندهش، هانز، هانز، منكم انتم الطلاب الصغار والعمال المجتهدون، (اللطفاء) الذين تتخذون لكم نساء للعمل معكم، فتعملون معا، كل واحد يصبح أكثر ذكاء في كلية أخرى، كل يتقدم في معمل آخر، حيث أنكم تبذلون جهدا، تجمعون نقودكم معا وتستعدون للمستقبل. نعم لذلك أيضا تتخذون لكم نساء، ليصلّبكم المستقبل، لتحصلوا على أطفال، فتصبحوا عطوفين حين يتصرفن خائفات وسعيدات بالأطفال في أجسادهن. أو أنكم تمنعون زوجاتكم من الحصول على أطفال لأنكم لا تريدون أن يزعجكم أحد وتمضون مسرعين الى الشيخوخة بشبابكم المدخر. آه، إن ذلك ليستحق يقظة كبرى، أنتم أيها المحتالون وأنتم أيها المخدوعون. لا تحاولوا هذا معي. ليس معي!

أنتم مع الهات فنكم، حيوانات الحمل، ورفيقاتكم المتعلمات المتفهمات، اللاتي تسمحون لهن بالكلام... لقد حركت ضحكاتي الماء طويلا، ضحكات مقرقرة، قلدتموها أحيانا بخوف في الليل. حيث انكم عرفتم دائما أن الأمر مضحك ومخيف وأن الأمر يكفيكم ولم تكونوا موافقين أبدا. لذلك فانه من الأفضل ألا تنهضوا في الليل، ألا تهبطوا الممر، ألا تتسمعوا في الساحة، ولا في الحديقة، حيث لن يكون ذلك سوى الاعتراف بأنه ما من شيء أكثر إغواء من نغمة الألم، اللحن، الأغراء، وتتوقون إليها، الخيانة الكبرى. لم تكونوا راضين عن أنفسكم أبدا. عن بيوتكم، عن كل ما هو ثابت. كنتم فرحين سرا بكل حجارة أفلتت ، بكل انهيار وشيك، لقد فكرتم بالفشل،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالهرب، بالعار، بالوحدة، التي خلصتكم من كل ما هو قائم. كنتم تحبون جدا تقليب الفكر في هذا. حين أتيت، حين أعلنت نسمة ريح قدومي، قفزتم وكنتم تعرفون أن الساعة قد حانت، العار، الطرد، الخراب، مالا يفهم. نداء للانتهاء. للانتهاء. أنتم ايتها الغيلان، من أجل هذا أحببتكم، لأنكم عرفتم ماذا يعني النداء، أنكم تركتموهن يناديكم، لأنكم لم تكونوا راضين عن أنفسكم أبدا. وأنا، متى كنت راضية؟ حين كنتم وحيدين، وحيدين تماما وحين لم تأتِ أفكاركم بشيء مفيد، ليس ما يمكن الاستفادة منه، حين أضاء المصباح الغرفة، انفتح الطريق في الغابة، كانت الغرفة رطبة ومليئة بالدخان، حين وقفتم هكذا، ضائعين، ضائعين إلى الأبد، ضائعين من التفهم، حان لي الوقت. كنت أستطيع أن أدخل بنظرة تطالب: فكر، كن، قلها !-

لم أفهمكم أبدا، بينما عرفتم كيف يفهمكم واحد من ثلاثة. قلت: أنا لا أفهمك، لا أفهم، لا أستطيع أن أفهم! دام هذا فترة طويلة رائعة، أنكم لم تُفهموا وأنتم أنفسكم لم تفهموا، لماذا هذا وذاك، لماذا الحدود والسياسة والصحف والبنوك والبورصة والتجارة وهذا يستمر دائما.

حيث أنني فهمت السياسة المهذبة، أفكاركم، عقائدكم، آراءكم، فهمت هذه جيدا وأكثر من ذلك قليلا. لهذا بالذات لم أفهم. فهمت المؤتمرات تماما، تهديداتكم، تقديم أدلتكم، تحصنكم، حتى انه لم يعد فهمكم ممكنا. وكان هذا هو ما حرك مشاعركم، عدم فهم كل ذلك. حيث كانت هذه فكرتكم الكبيرة المتسترة عن العالم، لقد أخرجت بالسحر فكرتكم الكبيرة منكم، فكرتكم غير العملية، في الزمن والموت ظهرت والتهبت، أحرقت كل شيء، النظام، متنكرا بمظهر بالجريمة، الليل، أسئ استخدامه للنوم. نساؤكم، مريضات

من حضوركم، أطفالكم، حكم عليهم بلعنة المستقبل من قبلكم، لم يعلموكم الموت، وإنما طوعوكم لذلك بشكل تدريجي. ولكني علمتكم بنظرة، حين كل شيء كامل، مضيء ومسرع – قلت لكم: إنه الموت يكمن هنا. و: إنه الزمن يكمن هنا. وفي نفس الوقت: إذهب أيها الموت! و: توقف أيها الزمن! هذا ما قلته لكم. وأنتَ تكلمت، حبيبي، بصوت متباطئ، محقا تماما ومنقَذا، حراً من كل ما هو بين ذلك، أظهرت روحك الحزينة، الحزينة، الكبيرة، التي تشبه روح جميع الرجال، ومن النوع الذي لم يخلق ليصلح لشيء. لأنني لا أصلح لاستعمال معين، وأنكم لا تعرفون استعمالا معينا لأنفسكم، كان كل شيء بيننا جيدا. أحببنا بعضنا. كنا من نفس المعدن.

عرفت رجلا يدعى هانز، وكان يختلف عن كل الآخرين. عرفت واحدا آخر، كان أيضا يختلف عن كل الآخرين. ثم واحدا، كان يختلف تماما عن كل الآخرين وكان يدعى هانز، أحببته. التقيته في الطريق داخل الغابة، ومضينا على الفور دون اتجاه، كان ذلك في بلاد الدانوب، ركب معي دولاب الهواء، كان ذلك في شفارتسفالد، تحت أشجار الدلب في الشوارع الكبيرة، شرب معي البيرنود. أحببته، وقفنا في أحدى محطات الشمال، وقد انطلق القطار قبل منتصف الليل. لم أومئ بيدي، قمت باشارة بيدي تعني النهاية. تعني النهاية، التي لا تجد نهاية. لم تكن ثمة نهاية أبدا. ينبغي على المرء ببساطة أن يقوم بالاشارة. إنها ليست اشارة حزينة، أنها لا تظلل المحطات والشوارع الخارجية بالحزن، أقل من الايماء المضلل الذي تنتهي به أشياء كثيرة. إذهب ،أيها الموت، وتوقف أيها الزمن. ما من سحر ينفع، لا دموع، لا تشابك الأيدي، الأيمان، الرجاءات. لا شيء من كل هذا. الواجب هو: الافتراق، أن تكفي الأعين الأعين، أن تكفي الخضرة، أن يكفي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأخف. أن تطاع القوانين هكذا، ودون مشاعر. أن تطاع الوحدة هكذا. الوحدة التي لا يتبعني اليها أحد.

هل تفهم هذا حقا؟ لن أشاركك وحدتك أبدا، لأن وحدتي هنا، منذ زمن بعيد، وستبقى زمنا طويلا. لم أخلق لاشاطركم همومكم. ليس هذه الهموم! كيف أستطيع أن أعترف بها دون أن أخون قانوني؟ كيف أستطيع أن أومن بأهمية تشابكاتكم؟ كيف أصدقكم، طالما أنني أصدقكم فعلا، أصدقكم تماما، أنكم أكبر من تصريحاتكم الضعيفة المغترة، سلوككم الرث، شكوككم الحمقاء. إعتقدت دائما أنكم أكثر من ذلك، فرسان، معبودون، لستم بعيدين عن روح تستحق كل الأسماء الملوكية. إذا لم يخطر لك شيئا حول حياتك، فقد قلت الحق تماما، ولكن أيضا أنذاك فقط. ثم أن كل المياه غمرت الشواطى، ارتفعت الأنهار، أزهراللوتس بالمئات في الحال وغرق، وكان البحر متنهدا قويا، ضرب، ضرب وركض وتدحرج مصطدما بالأرض، حتى قطرت شفاهه بالزبد .

خونة! حين لم يعد ينفعكم شيء، نفع الخجل. عندها عرفتم فجأة ما كان فيَّ مريبا لديكم، ماء وغلالة وما لا يثبت. فكنت فجأة خطرا تعرفتم عليه في الوقت المناسب وكنت مسحورة وحل الندم على كل شيء في لمح البصر. كنتم نادمين على مصاطب الكنيسة، أمام زوجاتكم، أطفالكم، في العلن. كنتم بواسل أمام مراجعكم الكبيرة الكبيرة، أن تندموا من أجلي وتثبتوا كل ما كان قد أصبح فيكم غير مؤكد.. كنتم في مأمن. أقمتم المذابح بسرعة وأتيتم بي ضحية. هل كان دمي لذيذا؟ هل كان طعمه يشبه طعم دم الهندوسية قليلا ويشبه دم الحوت الأبيض؟ يشبه خرسهم؟

هنيئا لكم! انكم كثيرا ما تكونون موضع حب، وسيغفر لكم

كثيرا. لكن لا تنسوا أنكم ناديتموني إلى العالم، أنكم حلمتم بي، بالأخرى، بالآخر، بروحكم وليس بهيأتكم، بالمجهولة التي تترنم بنداء الشكوى في حفلات زفافكم، تأتي بأقدام مبتلة وتخافون الموت من قبلتها، كما ترغبون في الموت ولا تموتون أبدا:

بغير نظام، مفتونون وبتعقل كبير.

لماذا عليّ الا أتكلم، ألعنكم، قبل أن أذهب.

سأذهب .

حيث انني رأيتكم مرة ثانية، سمعتكم تتحدثون بلغة ما كان ينبغي عليكم التحدث بها معي. ذاكرتي لا بشرية. كان علي أن أفكر في كل شيء، في كل خيانة وكل وضاعة. رأيتكم في نفس الأماكن، فبدت لي أماكن مشينة، تلك التي كانت مرة أماكن مضيئة. ماذا فعلتم! كنت صامتة، لم أقل كلمة. عليكم أن تقولوا أنتم لأنفسكم. رششت ملء كف من الماء في الأماكن، عسى أن تخضر بذلك مثل القبور. عسى أن تبقى بذلك مضيئة.

لكني لا أستطيع أن أذهب هكذا. لذلك دعوني أذْكُركم بالخير مرة أخرى، كي لا نفترق هكذا. كي لا نفترق.

كان كلامكم مع ذلك جيدا، ضلالكم، دأبكم، وتخليكم عن الحقيقة كاملة، كي يقال النصف فقط، كي يسقط الضوء على نصف العالم، الذي تستطيعون بالكاد إدراكه في دأبكم. كنتم شجعانا ضد الآخرين – وجبناء بالطبع أيضا وغالبا شجعانا، كي لا تبدوا جبناء. حين رأيتم الويل قادما من الخصام تابعتم الخصام مع ذلك وأصررتم على كلمتكم، رغم أن ذلك لم يؤد الى فوزكم. اختلفتم ضد الملكية ومن أجل الملكية، من أجل اللا عنف ومن أجل الأسلحة، من أجل الجديد ومن أجل القديم، من أجل الأنهار ومن أجل تنظيم الأنهار،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من أجل القسم وضد الأيمان. وعرفتم أنكم تدأبون ضد صمتكم وتتابعون الدأب مع ذلك. ربما كان هذا يستحق الثناء.

في أجسادكم المتثاقلة تمتدح رقتكم. ثمة ما يبدو رقيقا بشكل خاص، حين تقدمون معروفا، تفعلون ما هو حسنة. أكثر رقة من كل ما هو رقيق في زوجاتكم هي رقتكم، حين تعطون كلمتكم أو تستمعون إلى أحد وتفهمون. أجسامكم الثقيلة تجلس هنا، لكنكم عديمو الوزن تماما، وإن حزنا أو ابتسامة منكم يمكن أن يكونا هكذا، حتى أن شك أصدقائكم اللانهائي يكون للحظة دون غذاء.

أيديكم تستحق الثناء، حين تمسكون أشياء قابلة للكسر، تصونونها وتعرفون المحافظة عليها، وحين تحملون الأثقال، وتزيحون الثقل عن الطريق. وهو أمر جيد، حين تعالجون أجسام البشر والحيوانات وتقضون بحذر شديد على الألم. هكذا محدودا يأتي من أيديكم، ولكن بعض ما هو جيد سيقف لصالحكم.

يستحق الاعجاب أيضا، حين تنحنون فوق المحركات والمكائن، تصنعونها وتفهمونها وتوضحونها، حتى ينشأ من كثرة التوضيحات سر ثانية. ألم تقل، إنه ذلك المبدأ وتلك الطاقة؟ ألم يكن هذا قولا طيبا وجميلا؟ لن يستطيع أحد أن يتكلم هكذا ثانية عن التيارات والقوى، عن المغانيط والميكانيكيات وعن جوهر كل الأشياء.

لن يتكلم أحد هكذا ثانية عن العناصر، عن الكون وعن النجوم. لم يتكلم أحد هكذا عن الأرض، عن هيئتها، عن عصورها. في أحاديثك كان كل شيء واضحا: البلورات، البراكين والرمادات، الجليد والجمر الداخلي.

لم يتحدث أحد عن البشر على هذا النحو، عن الظروف التي يعيشون فيها، عن عبوديتهم، أموالهم، أفكارهم، عن البشر فوق هذه الأرض، عن أرض سابقة وأخرى مستقبلة. كان صحيحا أن يتكلم المرء هكذا وأن يُفكر هكذا كثيرا.

لم يكن ثمة سحر بهذه الكثرة على الأشياء، كما كان حين تحدثت، ولم تكن الكلمات متفوقة هكذا أبدا. كان يمكن للغة أيضا أن ترغب من خلالك، أن تجن أو تكون مقتدرة. فعلت كل شيء بالكلمات والجمل، تفاهمت معها أو غيرتها، أعدت تسمية شيءما، فيما تحركت الأشياء التي لا تفهم الكلمات المفردة ولا المزدوجة مبتعدة تقريبا.

آه، لم يكن أحد قادرا على اللعب بهذه المهارة، انتم أيتها الغيلان! اخترعتم جميع الألعاب، ألعاب الأرقام وألعاب الكلمات، ألعاب الأحلام وألعاب الحب.

لا أحد تكلم عن نفسه مثلما فعلتم. صدقا تقريبا. صدقا قاتلا تقريبا. منحنون على الماء متروكون تقريبا. أصبح العالم مظلما، ولا أستطيع أن ألبس قلادة المحار. لن يكون ثمة ممر في الغابة، أنت الذي تختلف عن الآخرين أنا تحت الماء. أنا تحت الماء.

والآن يصعد أحد ما الى الأعلى ويكره الماء ويكره الخضرة ولا يفهم، لن يفهم أبدا. كما لم أفهم أبدا.

خرساء تقريبا،
سامعة
النداء
تقريبا.

تعال. مرة فقط.
تعال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفهرست

- يفاعة في مدينة تمساوية ٥
- العام الثلاثون ١٦
- كل شيء ٦٣
- بين قتلة ومجانين ٨٤
- خطوة نحو عاموراء ١١١
- فليدرموت ١٣٨
- اوندينا تذهب ١٧٤

مكتبة بغداد

لا تقصد باخمان من كتاباتها "أن تجعل المرء يبصر" فقط وإنما تسلط الضوء على المحيط القريب منها لتجعل المناطق المظلمة فيه مرئية. إنها تريد أن نبصر ما لا نحبه في أنفسنا وما نتستر عليه. وهي لا تكتفي بنظرة تعلن أنها تعرف وإنما تقول ما تعرف بلغة معتمة جارحة، مثل الكثير من كتّاب ما بعد الحرب العالمية الثانية، ممتلكة القدرة على الرؤية في المناطق المظلمة، حيث يختزل المرء، وهو يبلغ الثلاثين، أحلامه الكبيرة في الرغبة المتواضعة في البيت والطفل، وتحلم النساء المتروكات في البيت بموت أزواجهن، ويضعف الرجال أمام الحورية التي تشتمهم عائدة إلى البحر.

منشورات الجمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad